أحمد مراد
أرض الإله
دار الشروق

أحمد مراد

أرض الإله

دار الشروق

أرض الإله

أحمد مراد

تصميم الغلاف : أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

٧ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر . القاهرة . مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٧٤٠٣/٢٠١٦

ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٠٩-٣٣٨٢-٤

«ستُصبحين أرمَلة،

وكل صَوت مُقدَّس سيُجبَر على الصَّمت،

وتُصاب مَعرفة الروح الخالدة بالإنكار والسخرية».

من تنبؤات المُعظَّم ثلاث مرات

«إدريس»

عن أرض «إيجيبت»

ربيع ١٩٢٤

مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة.

اقتربت السكرتيرة من الغرفة بخطوات صارمة، تحمل بين يديها ملفًا ضخمًا مُغلقًا بشريط أحمر، عند الباب وقفت، هندمت قميصها ثم قرعت:

- سيد بانكروفت، السيد كارتر جالس في مكتبي، حضر دون إخطار مُسبق.

نظر الرَّجل لساعة الحائط التي أشارت إلى التاسعة صباحًا، حكَّ إبهامه بسبابته في تبرم ثم أشار إليها أن تقترب، وضعت الملف أمامه، أزالت الشريط الأحمر وأخرجت ورقتين:

- تلك هي آخر مُخاطبة بريدية مع رئيس مصلحة الآثار المصرية، وهذا رد مكتب رئيس الوزراء على الالتماس الذي قدمناه.

هز السيد بانكروفت رأسه:

- أدخلي كارتر بعد خمس دقائق، وحين أضغط الجرس تعالي لتخبريني على مسمع منه أن هناك اجتماعًا هامًا ينتظرني.

هزّت السكرتيرة رأسها وخرجت، مرت عيناه على سطور المخاطبات البريدية حتى قرع الباب كارتر، دخل بابتسامته العصبية والبابيون المنقطة، خلع قبعته ومد يده بسلام:

- سيد بانكروفت.

- سيد كارتر مرحبًا، تفضل.

فتح علبة سيجار فخم وقربها من كارتر فاعتذر، أشعل لنفسه واحدة ونفث دخانها ثم قال بابتسامة:

- شمس اليوم رائعة، تمشيت في أشعتها ساعة حتى انتعشت مفاصلي وصفا ذهني، فلديَّ اجتماع هام مع المندوب

السامي بعد قليل.

. أعتذر عن الحضور بلا ميعاد، ولا أرغب في تضييع وقتك، لكن الوضع أصبح مُهينًا وغير مُحتمل.

. سيد كارتر، لقد خاطبنا مصلحة الآثار ومكتب رئيس الوزراء السيد سعد زغلول، وكان الرد قاطعًا: رفض تجديد تصريح التنقيب الخاص بالمقبرة.

تحفز كارتر على طرف كُرسيه:

. سيد هنري، سامحني حين أقول إن حكومتنا لا تُدرك حجم المشكلة؟ تلك الفضيحة ستدوي في الجرائد أكثر من اسم «توت عنخ آمون». هوارد كارتر، مُكتشف أهم مقبرة في القرن العشرين، ممنوع من التنقيب في مقبرته بأمر من السلطات المصرية.

. مقبرتك! لم لا تكمل الجملة يا سيد كارتر؟

نظر بانكروفت في خطاب مصلحة الآثار وقرأ:

. لما لاقته المصلحة من مخالفات وتلاعب في السجلات، مثل عدم تدوين رأس الملك الخشبية الخارجة من زهرة اللوتس الزرقاء والتي عثر عليها في صندوق نبيذ أحمر ماركة «فورتنم وماسون» بمقبرة رمسيس الحادي عشر. أتحب أن أكمل قراءة التقرير؟

. أنت تُصدِّق المصريين؟ تُصدق الهمج! لقد وجدتها في ردِيم ممر المقبرة. كيف أهتم بتدوين قطع صغيرة تافهة وسط هذا الكم من الصخب الصحفي وزيارات رجال السلطة؟

. عليك أن تقنع السلطات المصرية بذلك، بالإضافة إلى أن مُكتشف المُخالفة هو السيد «بيير لاكو» وليس أحد الموظفين المصريين، وقد أسرَّ لي بأن رأس الملك الخشبية ليست القطعة الوحيدة التي لم تدوَّن في السجلات.

. البيروقراطية أهم من كشف «توت عنخ آمون»؟

. عذر لا يبرر موقفك.

. ما لي أشتم رائحة تخاذل؟ أين مكتب المندوب السامي؟ كانت لنا اليد العليا يومًا في مثل تلك الأمور.

. من فضلك أخفض صوتك. انفعالك ليس له مردود في ذلك المبنى. أنت تعلم جيداً أن الوضع ملتهب بيننا وبين السلطات المصرية منذ انتهاء الحماية على مصر..

قاطعه كارتر:

. الحماية؟ هراء. تلك لعبة سياسية أنت أول من يعلم بها.

. في وجود «سعد زغلول» على كرسي الوزارة. لا مجال للتفاهم. رأس من الصخر. متحفز ضد كل ما هو بريطاني. يجب أن نلتزم بالتهدئة حتى إشعار آخر. وأؤكد لك مرة ثانية على صعوبة التدخل الحالي لحساسية القضية.

. أنتم لا تدركون ما تفعلون؟ جورج الخامس بات يرسل الى مصر هواة السياسيين.

. راقب ألفاظك. إن أهمية «مقبرتك» كما تسميها ليس في أهمية السياسة الخارجية للمملكة.

قام كارتر في غضب:

. حسنًا. بلغ رؤساءك أني إن لم أتلق ترضية كافية وعادلة. فسأنشر على العالم كافة تفاصيل نصوص البرديات التي عثرت عليها بغرفة دفن الملك..

أي برديات؟

☥

☥

☥

سَمنّود؛ مَعبد الأسوار السَّبعة ـ ٢٥٠ عامًا قبل ميلاد المسيح

السنة الخامسة والثلاثين لحُكم فيلادلفيوس «بطلميوس الثاني».

رغم الصَّيف القائظ تراكمت السَّماء بالغُيوم الدَّاكنة، ثم انهالت الأمطار، غزيرة صاخبة مصحُوبة بهزيم رعد يصم الآذان، حتّى امتلأت تجاويف الأرض ببرك صغيرة ولمعت أحجار المعبد العتيق في بهاء ورهبة.

الطقس المُباغت لم يمنع الكهنة الحُفاة حالقي الرُّءوس والأجساد من التراكم في بهو الأعمدة، تبللت أرديتهم الكتَّانية حتى التحت الجلود تحتها وارتعشت الأطراف في وجل، تتردد أعينهم بين السَّحاب المركوم وبين الباب النّحاسي الكبير لقدس الأقداس، الباب الذي لم يكن ليترك مُواربًا، فهو إما مُغلق لأن المكان خالٍ، أو مُغلق لأن كاهن المعبد بالداخل، يتولى بنفسه حفظ المتون المقدّسة في الرّفوف، حرق البَخور، ودهان التمثال الكبير بزيوت اللوتس واللبان والمسك، ذلك التمثال الذي نحتته الملائكة تكريمًا للمُعظّم ثلاث مرّات «إدريس»، رجل حاز المُلك والحكمة والنبوّة، علّم الجيبتيين الزراعة والغزل، الصلاة على الموتى، وجعل من رؤية الهلال وفيضان النّهر عيدًا، كما علّمهم قراءة النجوم والأبراج، والكتابة بالقلم، في لغة لم يُر لها مثيل بين البشر من قبله.

انقضت دقائق والقلق ينهش الكهنة المُتزاحمين، مُستقر في صدورهم أن أمرًا جللًا سيحدث، حتى كسر الجُمود «كاي» فتى من قرية مُجاورة وهبه عمّه للمَعبد بعد وفاة أبيه، تربّى بين جنباته ككاهن «مُطهِر» يُعنى بشئون النظافة والسقاية، ثم تعلّم الكتابة حتى بلغ مرتبة كاهن «مُجنّح»، وُضعت على رأسه ريشتا التحليق في العلم الإلهي واطّلع على أسرار الحروف بعد صوم عن الكلام ترك في عينيه ثبات العارفين، تقدم كاي فالتفت الأعين وتعالت الهمهمات قبل أن يرتفع صوت:

ـ لست مُخولًا بالدخول دون إذن، ستجلب علينا لعنة، لننتظر عودة نائب الكاهن.

رفع كاي سبابته للسَّماء:

ـ مطر غزير في صَيف عقيم، باب قدس الأقداس مُوارب، والكاهن الأعظم لم يخرج لصلاة مُنذ الفجر!

ارتفع صوت ثانٍ:

. لعلّه يتأمّل.

تبعه صوت آخر:

. أو صعد إلى السّماء ليقابل رب الأرباب.

. أو لعل مكروهًا أصابه.

قالها خاي فساد صمت، ثم أردف:

. سأتحمل العاقبة وحدي.

تقدّم تجاه الهيكل ورفع المقبض الكبير ثم هوى على صدر الباب بطرقتين. رنّ النحاس في وقار ولم يلتقط الكاهن إجابة. دسّ رأسه بين درفتي الباب في حذر. لم يتبيّن من الظلمة شيئًا. فالهيكل نافذته في السّقف والشّمس إلى الغروب تنحدر. التفت لرفاقه فأجابوه بقسمات ملؤها الوجوم والخشية. ثم نظر للسّماء يستسمحها الدخول مُتمتمًا بسفر الغفران. شبّ الكهنة على أطراف أصابعهم يتطلّعون لمن ستبتلّ قدميه أرض الهيكل حتى اختفى عن الأنظار. راسخ في صدورهم أن صاحبهم من اللحظة هالك ملعون، فمن ذا الذي يدنو من قدس الأقداس دون إذن الكاهن! الدقائق مرّت كسنة جدباء قبل أن يلتقطوا صوت آنية تصطك على الأرضية المرمرية. في الداخل كان خاي يتعثّر في كئوس وأباريق مُبعثرة. السّراج الكبير مطفأ والشموع هامدة. وهواء الهيكل مُحمّل ببخور كثيف أثار حلقه وعينيه. نادى في الفراغ:

. سيّدي الكاهن الأعظم، أنا خاي، خادمك. اغفر لي دُخولي دون إذن، سيّدي!

لم يتلق إجابة فرفع يديه يتلمّس طريقه حتى تعرّف على المركب المقدّس. ابتعد خطوات فاصطدم بالناووس الحجري فقرر الثبات مُتيحًا لعينيه الفرصة أن تعتاد الظلمة. ببقايا ضوء الغروب النافذ من الفتحة العلوية ميّز تمثال «إدريس» فخرّ على رُكبتيه احترامًا قبل أن يلمح كتلة جاثمة على الأرض بين القدمين الحجريتين. اقترب فميّز ملابس الكاهن

الأعظم، نفض ذهوله وأسرع ناحيته. الكاهن كان مكبًا على وجهه ومن تحته بركة دماء لزجة خضّبت فرو الفهد فوق كتفيه وتسلّلت بين شقوق الأرضية. التقط كاي اليد فاستشعر برودة. تلاحقت أنفاسه وهو يدير الجسد المهرم ناحيته. أخدود غائر شقّ الرّقبة وأبرز لحمها، وسكّين استقر على بُعد ذراعين من الأطراف الباردة.

تغلّب كاي على رعشة ألمّت به فأراح جثمان الكاهن بلسان لا يكفّ عن ترديد متون الرحمة، ثم قام والتقط السكين، تأمل نصله المشحوذ بحرقة ثم لمح الخزانة الأرضية؛ فراغًا مربّعًا عمقه ذراعان، تغطيه بلاطة محفورة بزهرة لوتس غائرة، لها قُفل سحري لم يسأل يومًا عن طريقة فتحه. الغطاء كان مزاحًا عن مكانه والبرديات مبعثرة! ثم ميّز قرب كفّ الكاهن أحرفًا مكتوبة بالدم، مدّ يده لمرآة الروح مستغفرًا فعكس على سطحها ما تبقى من ضوء السّقف. قرأ بصعوبة ثلاث علامات إغريقية «ΨΛΕ». رعشة الخط قالت إن الكاهن الأعظم كتب رسالته بالرمق الأخير، رسالة أغفلها قاتله!

انكفأ كاي على الأرض يلتمس أثر خطوات الغدر فتداعت الأفكار في رأسه كالدبابير الجائعة. الهيكل له باب واحد لم يخرج منه الكاهن منذ الفجر. من ذبحه استفرد به ساعة التأمل حيث يحلو له التعبّد والكلّ نيام. ذبحه ولم ينتظر النفس أن تغادر. سرق الخزانة الأرضية وفرّ في عجالة تاركًا الباب مواربًا!

«أيكون أحد أبناء المعبد؟»

وقع الفكرة كان مرعبًا. أجبر كاي أن ينظر للعلامات نظرة أخيرة، ثم يطمسها بكفّيه «إذا أراد الكاهن إيصال رسالة؛ فمن الأفضل ألا تصل لقاتل بين جنبات المعبد» قالها في نفسه ثم تولّى مدبرًا حتى وصل إلى الباب النّحاسي. خرج بوجه باهت وكف مخضّبة، رفعها مرتعشة في وجوه المترقّبين مقاومًا حشرجة ألجمت حلقه:

. لقد قُتل الكاهن الأعظم.

☥

☥

☥

ظهر اليوم التالي،

جزيرة فاروس، الإسكندرية

على ارتفاع مائتين وستين ذراعا انتصب إله البحر فوق القمة، رافعا يمناه بحربة ثلاثية النصل، رامقا البحر بعينين زاجرتين من العقيق في رأس ذهبية بثت الرّعب في نفوس من أقاموه. أسفل منه يقع بيت المرآة، قبّة تحملها ثمانية أعمدة تحتضن مرآة برونزية هائلة تعكس الشّمس بصفرة ذهبية يميّزها ملاحو السفن من مسافة ثلاثين ميلا، ويتحاشون بؤرتها الحامية منذ روّج البحّارة العجائز الحكايات عن اضطرام النار في سفنهم حين تسلطت عليها المرآة. تحرّكها ثيران فحلة في طواف سرمدي بغرفة تحت الأرض، وحين تنحسر الشّمس يشتعل الموقد، مجمرة نار حامية تتوسّط بيت المرآة، تغذيها البغال والحمير بالحطب صعودا على منحدر حلزوني ينتهي إلى أتون ملتهب. يسكب العمّال فوق حطبه الزيوت فتتأجج بوهج يخترق الحجب ويرشد السفن الجانحة إلى الميناء. أمّا أسفل المرآة وباتساع الفنار فيقع جناح الملك، طابق كامل زيّنت شرفته بحوريات بحر برونزيات ينفخن في أصداف ذهبية، يكشف الواقف فيها قبر الإسكندر العظيم بشارع «صوما» ومعبد «السيرابيوم» والاستاد الأوليمبي بحيّ «راقودة»، حي الجيبتيين.

استوى الملك في الشّرفة على كرسي ناء بحمله السّمين، مستمتعا بلسعة الشّمس في رداء من الحرير لم يخف دهون الرّفه. بجانبه رقدت «بليستيش» فوق مخدّة عريضة، بربرية حسناء اشتهرت بلقب «أفروديت»، خلبت عقل الملك

حين شاهد رقصتها فاقتناها، نفثت سحرها في أنفه فانطفأت أغلب العشيقات المتنافسات أمام سخونة وجنتيها التي تداعبها أنامله وهو يتابع سفينة غلال ضخمة تترنح فوق الموج مقتربة من الميناء. من ورائه وقف في خشوع رئيس خاصته الملكية، مُردخاي رجل ذكي عرف منذ زمن متى يتكلم ومتى يلتزم الصمت. ملك من الحنكة ما حافظ به على منصبه منذ عهد الملك الراحل «بطلميوس الأول» وحتى الآن. يُلقبه عُمال ومُوظفو الخاصة المَلكية سرًا بـ«القط» نظرًا ليقظته وبراعته في إدارة مقاليد القصر. يُوقِّع العقاب المُبالغ فيه على المُخطئ؛ فيرهب من انتوت نفسه التراخي أو الإهمال.

مرت دقائق من الصمت قبل أن يسحب الملك من فوق المنضدة إناء نبيذ مغموسة فيه زهور اللوتس الأزرق. قربها إلى أنفه فاستنشق العبير السحري المُخدر ثم رشف رشفة وألقى برأسه إلى الوراء في انتشاء. حين أقلقت سكينته ذبابة لحوح، وضع الإناء وأشار لمُردخاي. اقترب الأخير دون أن يقطع خط النظر للبحر في عيني مليكه.

. أتعرف يا مُردخاي، لقد بُنيت تلك المنارة في عشرين عامًا. ارتفعنا بها لعنان السماء حتى يراها السلوقيون من شرفات منازلهم. لكنني ما زلت لا أفهم كيف يصعد الذُباب في طرفة عين إلى قمتها!

. لقد اتخذ أصحاب الأهرامات من الذُباب نيشانًا للشجاعة على صدور جنودهم. فالذُبابة إن طُردت عن مكان فلا بد أن تعود إليه. كذلك القائد الناجح، إذا انسحب من مكان معركة فعليه أن يهيئ نفسه للعودة إليه.

. إذن علينا ترويض ذلك الكائن البغيض، أو جد لي طريقة لإبادته. لم يُلقبك موظفو القصر بالقط من فراغ.

ضحك مُردخاي مُجاملًا:

. لو كان صديقنا «هيروفيلوس الخلقدوني» على قيد الحياة لخيّرتها بين التشريح في مُختبره أو العدول عن إزعاج جلالتكم.

رمقته بليستيش بعينين متهكمتين حين رفع الملك كأس نبيذه وسكب منه قطرات على الأرض:

. إلى روح طبيبنا الراحل هيروفيلوس.

ثم استطرد:

- ماذا لديك يا مُردخاي؟

أشار الأخير لعبد بالباب، اقترب، يحمل بين يديه برديات ملفوفة بحزام جلدي، وضعها وانسحب. مدّ مُردخاي يده وسحب بردية، فضّها ونظر فيها ملمّاً بمحتواها ثم ابتسم:

- سيّدي، استكمال حفر القناة القديمة بين بحر البوص والنيل أوشك على الانتهاء. دورتان للقمر وستسافر على متن مركبكم الملكي عبر النهر إلى أرض الفيروز.

- احرص على أن يكون موكب الاحتفال مهيباً. أريد أصداءه أن تصل لأصدقائنا في الشمال والشرق.

- يتم تزيين الفنار بمشاعل ستظل مشتعلة حتى عودتكم الكريمة. أما الرسّامون والنحّاتون فيضعون اللمسات الأخيرة على العربات الحربية وعرش جلالتكم فوق الفيل.

داعب الملك ثدي بليستيش تحت الغلالة الشفافة مردفاً:

- وأكثر من الأقزام في الموكب يا مردخاي، فإن النساء يحببونهم ولا أعرف لذلك سبباً.

ضحكت بليستيش وابتسم مُردخاي:

- أمر جلالتك.

ثم مدّ يده وسحب بردية أخرى:

- إقليدس يطلب مقابلة، أنهى كتابه في الرياضيات والهندسة، ويود أن يعرضه على جلالتك قبل تسليمه للمكتبة.

- ائتني به بعد الغروب. إقليدس يحتاج إلى قيلولة قبل لقائه وكأسي نبيذ. فلسانه متدفق كفيضان غاشم، غزير الكلام ينسى متى يتوقف. قل لي، كم بلغ عدد البرديات في رفوف المكتبة إلى الآن؟

. ستمائة وثماني وخمسون ألفًا، وستزداد خمس إضمامات هذا الصباح. فقد أنهى حاخامات أورشليم عملهم على ترجمة الأسفار الخمسة للتوراة إلى اليونانية، وينتظرون مباركة جلالتك قبل أن يودعوها رفوف المكتبة.

. ترجمت كتبكم المقدّسة في شهرين؟

. اثنين وسبعين يومًا يا سيدي بالتمام والكمال.

. وعدد الحاخامات كان...؟

عاجله مردخاي:

. اثنين وسبعين حاخامًا، ستّة حاخامات من كل سبط من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر

. يا للصّدفة!

. علامات الرب لا تنقطع منذ جئت بهم من «أورشليم» بعد استئذان «ألعازر» رئيس الكهنة. أبحروا ومعهم النّسخ مخطوطة بحروف من ذهب على رقوق الجلد. عزلت كل اثنين منهم في غرفة منفصلة بالجزيرة، وحرصت على عدم اتصالهم عن طريق مراقبة لصيقة، حتى أضمن أمانة الترجمة واحترازًا من الاقتباس. وما لبثت المعجزات أن بدأت في الحدوث.

. معجزات!

. نعم يا سيدي. لقد امتنع الحاخامات فجأة عن الطعام بلا مرض أو أذى، وكثرت الحمائم على الجزيرة بشكل غير مسبوق، تحوم في دوائر لا تتوقف وتهدل في تناغم، وشفيت زوجة رئيس عمّال الفنار من العقم، والآن هي حبلى..

قاطعته بليستيش:

. عقمًا أعرف زوجة رئيس عمّال الفنار كما أعرف أصابعي. كانت من فتيات الدكترياديس وكانت تجيد خدمة الرجال. أتذكّر أنها حملت مرة لكنها أجهضت نفسها بالقرفة وبذور السمسم.

ضحك الملك:

. يبدو أن أحد الحاخامات كان يتجوّل ليلًا.

كزّ مُردخاي على أسنانه ثم افتعل ابتسامة وأردف كأن لم يسمعها:

. اثنان وسبعون يومًا من البركات المتلاحقة تُوّجت بست وثلاثين ترجمة تطابقت بشكل عجيب، تطابق لا تصنعه سوى يد إله. الحاخامات بلا استثناء قضّوا رؤية واحدة أنتهم نيامًا. زار الرّب فيها أرواحهم ومدّ من جدائل شعره الذهبي حبال نور إلى صدورهم.

رفع الملك إلى أنفه إناء اللوتس الأزرق، استنشق وارتشف فتسللت إلى فمه ابتسامة:

. اثنان وسبعون حاخامًا ترجموا توراتكم إلى اليونانية في اثنين وسبعين يومًا. ستة حاخامات من كل سبط؟

. صحيح يا سيدي.

. بغض النظر عن الأسباط العشرة الذين فقدوا زمن غزو البابليين على أورشليم. ربّكم أشرف بنفسه على ترجمات الحاخامات حتى أصبحت كلها مُتطابقة؟

هز مُردخاي رأسه في إيجاب:

. بل وألهمهم صيغة لعنة نطقوها لتُطارد كل من يجرؤ على الحذف من النسخة المُترجمة أو الإضافة إليها، إيمانًا ويقينًا باستخدام الرب أجسادهم وأقلامهم في ترجمة كلماته.

ضحك الملك:

. ليست تلك علامات الرب، بل علامات مُردخاي.

ابتسم مُردخاي ثم أردف:

. جلالتك، إن شيوخ اليهود في حي «دلتا» يموتون، ولم يعد باستطاعة أحفادهم من مواليد الإسكندرية قراءة توراتهم بالعبرية، لذا تكفلوا باستضافة حاخامات أورشليم، وتبرعوا بعشرين تالنت من الفضة من أجل المكتبة ومعبد سيرابيس، وسيصلون باسم جلالتك حين يقرءون توراتهم باليونانية التي فضلوها على لغتهم الأثيرة.

. وماذا عن الكلمات المسيئة في كتبكم؟ سمعت أن «لوجوس» اسم جدّي الأكبر، يعني في لغتكم «أرنب».

. خطأ تم تداركه يا سيدي وتبدلت الكلمة إلى «ذو الأقدام الخشنة».

قام الملك من مكانه فقامت وراءه بليستيش تصب له كأس نبيذ. استند إلى السور ورشف رشفة ثم نظر إلى تمثال بوسيدون فوق قمة الفنار:

. أيّ رب تصلون إليه يا مردخاي: يهوه؟ إلوهيم؟

. كلها أسماء لإله واحد يا سيدي.

. هل من الممكن ضم بوسيدون إلى معبوداتكم؟

. بوسيدون إله البحر، والبحر مصدر الخير والتجارة.

أطلق الملك ضحكة عالية:

. أنتم يا معشر اليهود مثلكم مثل الماء، تتكيفون مع كل إناء.

. هذه سمة الغرباء المستضعفين في الأرض يا سيدي، والشرف كل الشرف في معاونة من أوانا ورحمنا، والدكم العظيم ثم مليكي، حتى ولو لم يستوف أهل دلتا حقوقهم كاملة حتى الآن.

نظر إليه الملك فعاجله مردخاي:

. إن الضرائب تثقل كواهلهم، وقد تساووا مع أهل البلد غير المتعاونين. آن الأوان يا سيدي لإعطاء اليهود مواطنة كاملة في مدينتهم التي يتفانون في خدمتها.

. يا مُردخاي، إن بيوت المُرابين والرهونات تملأ الإسكندرية، وعشيرتك لها حق دخول الجمنازيوم أسوة باليونانيين، وشبابها يتزاحم كل ليلة في أزقة إليوسيس المُظلمة، يغترفون رحيق الراقصات في ترف، بالإضافة لوجود مُردخاي إلى جانب ملكهم.

. يكفيني شرفًا ويكفيهم شرف الخدمة في جيش المملكة... بعد إذن جلالتك.

قالها واتجه للباب، فتحه وأدخل رجلًا بدينًا في رداء بُني، لحيته مُخضّبة بالحناء وحول عينيه كحل، ومن ورائه خمسة عبيد يحمل كل منهم إضمامات بردي مربوطة بالجلد، وقفوا في خشوع حين استطرد مُردخاي:

. جلالتك، أسبغ على توراتنا اليونانية شرف الاطلاع لمُباركتها.

نظر الملك للرجل الذي تقدّم العبيد ثم وجّه كلامه لمُردخاي:

. من هذا؟

أجاب مُردخاي:

. الحاخام رأوبين من سبط لاوي، مُساعد كبير الكهنة في أورشليم والمُشرف على الترجمات.

تأمل الملك كرش الحاخام للحظات ثم فلتت منه ضحكة:

. أكنت مُمتنعًا معهم عن الطعام؟

ضحكت بلبستيش في غنج فاضطرب الحاخام قبل أن يتمالك نفسه:

. أيها الملك العظيم، لقد كفى الإله أجسادنا عن الطعام وأشبع أرواحنا عن السؤال.

ثم التقط أول بردية من العبد الأقرب إليه وانحنى أمام الملك:

. إنه سفر التكوين يا جلالة الملك.

وشرع يقرأ: «في البدء خلق الرب السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الرب يرف على وجه المياه، وقال الرب: ليكن نور، فكان نور، ورأى الرب النور أنه حسن، وفصل الرب بين النور والظلمة...».

استرخى الملك في جلسته وأطرق برأسه للأرض فرفع مردخاي كفه للحاخام:

. أشكرك يا راوبين.

قطع الحاخام قراءته وطوى الرق في خشوع ثم انحنى في تحية وانصرف ساحبًا العبيد وراءه. قال الملك:

. ضع توراتكم في المكتبة يا مردخاي، فرفوفنا تحمل خير برديات العالم. لن يضير أن نرضي شيوخ ومرابي حي «دلتا» ما داموا يجبون عنا الضرائب ويتحملون مشقة الجدال مع الصناع والفلاحين.

. بورك عمر جلالتك...

قاطع الحديث طرق بالباب، انفتح عن رسول أتى بخبر عاجل. أشار له الملك فاقترب في خطوات حثيثة وانحنى ساجدًا باسطًا ذراعيه حتى أمره الملك بالكلام، جلس على ركبتيه وأخرج لفافة صغيرة فضها مردخاي فاكفهرت ملامحه بغتة:

. ما فحوى الرسالة يا مردخاي؟

. الحمام الزاجل أتى بخبر حزين، إنه الكاهن مانيتون السمنودي يا سيدي!

عبست ملامح الملك فالتقط اللفافة، قرأها ثم قام إلى سور الشرفة حين انسحبت بليستيش خلف الأستار. تأمل البحر الممتد أمامه بلا نهاية ثم سحب شهيقًا أخرجه حين اقترب مردخاي في خشوع. احترم صمت الملك حتى تكلم:

. لا يقتل الكهنة كل يوم، ولن أجد أفضل منك في تقصي الحادث يا مردخاي.

. سأعد عدتي للسفر إلى سمنود قبل الغروب.

قالها مردخاي بحزم ثم انحنى منسحبًا قبل أن يستدركه الملك:

. انتظر، مانيتون كان بصدد إنهاء كتاب تحدث معي بشأنه في آخر زيارة، احرص على أن تجده.

. لن يُحنط جسد الكاهن الأعظم قبل أن أظفر بقاتله، وبالكتاب.

قالها مردخاي وانسحب فالتقط الملك كأس نبيذه وسكبه على الأرض متمتما:

. وداعا يا مانيتون.

☥

☥

☥

سمنّود، معبد الأسوار السّبعة، بعد يومين.

بأعين مُحتقنة وأجساد أنهكها الحزن بدا المعبد خليّة نحل لا تتوقف. غُسلت الجدران ومُسحت بالزيوت، وُضعت زهور السّوسن البنفسجية تحت أقدام التماثيل. كُللت أبواب الغرفات والأعمدة بسعف النّخيل. نُكّست الأعلام فوق الساريات وضُرب صوم عن الكلام منذ نُقل جسد الكاهن على المحفّة من الهيكل إلى غرفة تحت الأرض. مدّدوا جسده فوق حوض جرانيتي له مزراب صرف. يُسابقون التلف والتخشب أن يسريا في الأوصال الطّاهرة. أفرغ المُحنّطون مُخّه من فتحتي أنفه ومُلئ رأسه بالصمغ والقطن وقطران الخشب ثم شقوا جانب بطنه. أفرغوا الأحشاء في أربعة أوانٍ حجرية ووضعوا راتنجات الكافور والعنبر والمسك. وتُرك القلب مكانه ليُوزن في الميزان وقت الحساب. ثم سُدّت فتحات جسده بشمع العسل استعدادًا لتغطيته بقطر التحنيط. كان ذلك حين لاحت في الأفق عربتان أثارتا الرمال وراءهما. ميّز الحُرّاس راية رئيس القصر ففُتّحت الأبواب. نزل مُردخاي من عربته ومن خلفه حرّاسه وكان في استقباله العجوز «متري» نائب الكاهن ومن ورائه كاهن يحمل مظلّة.

- أحمل إليك تعازي الملك في كبير الكهنة.

- مُصيبة لا تُحتمل.

- أنا مُكلّف بتقصّي الواقعة. سأسمع ما حدث مهما بدا تافهًا.

. لم أكن هنا حين قُتل الكاهن الأعظم، عاينت الهيكل ثم أمرت بغلق بوابات المعبد على من فيه واستدعاء من كان غائبًا، ثم نقلت الجثمان إلى غرفة التحنيط.

. تحنيط قتيل قبل فحصه.

. خشيت على جسده التلف وقد عاهدته يومًا على تكريم من يسبق فينا الآخر إلى الحياة التالية.

زفر مردخاي.

. من الذي اكتشف الحادث؟

. كاهن يدعى كاي.

. ائتني به، وقدني إلى غرفة التحنيط.

تقدمه نائب الكاهن إلى مدخل السرداب، نزلا درجًا من عشر سلمات يفضي إلى غرفة ما لبث كل من فيها أن خر على ركبتيه احترامًا.

. أين وجدتم الجثمان؟

أجاب النائب:

. أمام تمثال الرسول.

. أريد أن أرى السكين.

مد كاهن يديه بقماشة ملفوفة، وضعها بين يدي مردخاي الذي فضها، تأمل مقبضها الملفوف بكتان خشن ونصلها المشحوذ على حجر، ثم اقترب من الجسد المسجى يتفحصه في صمت، ترقرقت عيناه ونشج صدره قبل أن يتمالك نفسه، التقط مبضعًا لامس به أطراف الجرح حين قال نائب الكاهن:

- المسكين، كان يصلي فبوغت من الخلف.

- بل القاتل باغته من الأمام!

التفت مُردخاي لصاحب الصوت فاستدرك نائب الكاهن:

- هذا كاي، الكاهن المجنّح الذي اكتشف مقتل الكاهن الأعظم.

أشار له مُردخاي:

- اقترب.

دنا كاي فرفع مُردخاي شمعة مكّنته من رؤية عينيه الواسعتين وأنفه المستقيم المدبب، مسح ملامحه للحظات طالت ثم أردف:

- أكمل.

اقترب كاي من الحوض وأشار للعنق:

- القاتل قوي البنية، محترف، عمل سكينه بسرعة لم تُمكّن الكاهن من الاستغاثة، تركه يصارع الموت وشرع في البحث عما جاء من أجله.

- إذن القاتل شخص يعرفه الكاهن، شخص لم يتعجب ظهوره؟

- لا أظن القاتل من رجال المعبد، ضربته كجزاري النوق، يعقرون ذبائحهم من أسفل الرقبة في خفة، وليس بيننا جزار، كما أن النعل التي يرتديها من الجلد، وكهنة المعبد كما ترى يا سيدي لا يرتدون إلا نعال الحلفاء والبردي.

التفت مُردخاي للنائب بدهشة فعاجله:

- هذا الفتى كان ابنًا لقاصٍ أثر قبل أن يصير كاهنًا مطهرًا، تربى بيننا في طاعة، لم يقرب يومًا السمك أو الفول أو لحم

الخنزير، يُجيد الكتابة ويحفظ متون الأقدمين كاملة

نظر إليه مُردخاي:

- هل تتبعت آثاره؟

- خلع نعليه لمّا تلوثتا دمًا، وتكفلت الأمطار بطمس خطواته على الصخر خارج الهيكل.

هز مُردخاي رأسه ثم نظر لنائب الكاهن:

- أريد أن أعاين الهيكل، وأريد لكاي أن يصاحبني.

☥

☥

☥

تسللت شمس الظهيرة من فتحة السقف كسكين لامع، ضربت الأرضية وانعكست على تمثال إدريس الكبير فأكسبته رهبة على رهبة، رائحة البخور لا تزال عالقة في هواء الهيكل، والكئوس والبرديات مبعثرة لم ترفع من مكانها.

دخل مردخاي خلف نائب الكاهن ومن ورائهما كاي الذي أغلق الباب وسجد. تأمل مردخاي أثاث الهيكل المبعثر وأبواب الناووس المفتوحة ثم التفت لنائب الكاهن:

- ماذا فقد من الهيكل؟

- الكئوس والشمعدانات الذهبية لم تمس، كذلك محتويات الناووس، فقط أغلقت الخزانة.

- ماذا عن الذهب؟

- القاتل سرق ثالثت ونصفًا من ذهب الإله في خزانة الهيكل، وبعض البرديات.

نظر مردخاي للخزانة:

- اسمح لي بتفقدها.

بعد تردد توجّه نائب الكاهن إلى منضدة، التقط من فوقها كأسًا خشبية حافتها من النّحاس، ملأها من إناء الماء المقدّس ثم سكب بضع قطرات حتّى بلغت حافة الماء حفرة صغيرة لا تراها العين، اتجه إلى غطاء الخزانة ذي نقش اللوتس الغائر، سكب الكوب فوق ورقة بعينها فجرى الماء في منحنياتها حتى وصل إلى تاج الزّهرة التي امتلأت قبل أن تصدر طقطقة تلاها انخفاض كتلة من الحجر فانفتحت الخزانة، جذب نائب الكاهن الغطاء فظهرت البرديات، اقترب مردخاي:

. الآن عرفت لم لا تغادر الأسرار أسوار المعابد! من المطلع على مفتاح الخزانة؟

أجاب نائب الكاهن:

. الفتيل، وأنا.

هز مردخاي رأسه ثم التقط بردية من الخزانة وقرأ:

. الچيبتيكا.

أردف نائب الكاهن:

. قوائم أسماء ملوك الأسرات الجيبتية منذ التوحيد الثاني، تم نسخها وإرسال نسخة منها إلى الملك.

. إذن ما الذي فقد؟

. متون «الچيتانا».

. الچيتانا؟

أجاب كاي:

. سيرة البلاد ما قبل الأسرات الحاكمة، نشأة وتكوين مملكة الچيبتيين ومتون الحكماء الأقدمين مرورًا بزمن الرعاة، جمعها الفقيد من ألواح الأوستراكا والبرديات المتفرقة في معابد البلاد، ثم ترجمها إلى اليونانية استعدادًا لإيداعها

رفوف المكتبة.

. كم نسخة تم صنعها من الجبتانا؟

التفت نائب الكاهن إلى كاي.

. كاي كان يساعد الكاهن في الكتابة.

أردف كاي.

. نعم كان يمليني، عدا أجزاء خص الكاهن نفسه بكتابتها.

. أين البرديات التي نسختها؟

. بغرفتي.

. ائتني بها، وأعدّ نفسك لمرافقتي إلى الإسكندرية أيها الكاهن النبيل.

تبدّلت معالم نائب الكاهن.

. لكن خروج كاهن مجنّح من معبده ليس بالأمر السديد...

قاطعه مردخاي.

. سيّدي النائب، لن أجد لمساعدتي خيرًا من مقتفي أثر بارع كان أول من اكتشف الجريمة.

شرد نائب الكاهن للحظات ثم أشار لكاي.

. أعدّ نفسك للسفر.

انحنى كاي في خضوع فاتجه مردخاي إلى مكان سقوط الكاهن، جثا على الأرض مدققًا، تمشّى بأنامله على موضع

علامات الدم الممسوحة ثم التفت لكاي

. كانت هناك علامات مكتوبة!

كتم كاي أنفاسه واشتعلت أفكاره كنار في قش «بالأمس دنّست قدس الأقداس بقدمي، واليوم أفصح عن سر من أسرار الكاهن! ثقل لا تتحمله أكتاف الثيران، لكن «قتل كاهن والعبث ببردياته» أثقل وطأة، فهي آخر كتابات المعلم الأكبر، جمعها لأعوام من المعابد المتهالكة وصدور الكهنة الذين أشرفوا على الموت، وأفضى لي في مرّة أن الچبتانا هي تاريخ إيچيبت الأصلي، التاريخ الباقي، لا سبيل للاستهانة بمعرفة الفاعل».

أفاق كاي بعد شرود:

. الكاهن كتب بدمائه على الأرض ثلاث علامات يونانية: «ΨΛΕ».

. تقصد سبعمائة وخمسًا وثلاثين؟

هزّ كاي رأسه مؤكدًا فأردف مُردخاي:

. أمر غريب! لو تعرّف الكاهن وجه قاتله لكان الأولى أن يكتب اسمه. هذه الأرقام لا بد تعني شيئًا أقيم من معرفة اسم القاتل. لكن، لم طمستها؟

. خشيت أن يكون القاتل من بيننا وأردت تفويت الفرصة عليه كي لا يتنبه بما أراد الكاهن.

. هل للأرقام دلالة معروفة في معبدكم؟

. لا تعني شيئًا في حدود معرفتي.

من المسموح له بدخول الهيكل؟

يسأل مُردخاي نائب الكاهن.

أجاب النائب:

. لا يدخل قدس الأقداس إلا الملك إذا حضر والكاهن الأكبر. وأنا من بعد إذنه.

. وأنت يا كاي؟

. لا أدخل إلا بإذن الكاهن ليُملي عليّ المتون.

هز مُردخاي رأسه:

. حسنًا يا كاي. سيكون في رحلتنا إلى الإسكندرية متّسع من الوقت لأسمع منك مزيدًا من التفاصيل.

انحنى كاي في خشوع حتى خرجا. ما إن خفت وقع أقدامهما ورنّ الصّمت حتى اقترب من تمثال المعظّم إدريس. لامس قدميه الحجريتين مُتمتمًا:

. سيدي، لا تتركني.

قبل الغروب كان الهواء لافحًا، حبّات الرّمل تتطاير كشهب السّماء لتحرق الوجه والصدر، والأرض تصرخ تحت وطأة العجلات الضارية، كانت المرّة الأولى الّتي يركب فيها كاي عربة ملكية تجرّها أحصنة، طالما رآها منحوتة على جدران المعبد لكنه لم يحلم يومًا باعتلائها. تشبثت يداه بجدارها المصقول محاولا الاتزان، يلتفت وراءه كل بضع دقائق ليتأمل أسوار المعبد الذي لم يغادره منذ سنين، وأشجار المدينة التي لم يعرف غيرها. سمنّود، من يصدق أن تلك الأرض المهملة كانت يومًا مقرًا لحكم آخر ملوك الجيبتيين قبل اجتياح الفرس ثم الإغريق، قبل النهاية المشئومة في أقل من مائة عام صارت بقعة على الهامش لا يميّزها سوى المعبد العتيق وذكريات أجداده عن مجد ولّى في أطلال كانت يومًا قلاعًا وقصورًا، قبل أن يدنّسها لصوص القبور ليلا لينهلوا من كنوز الموتى المخبّأة في أرضها. تذكّر كاي حين كان يسير خلف أبيه مقلدًا مشيته وحركاته. يتابع طرف عصاه الخشبية الطويلة التي يشير بها لمواضع الأقدام على الرمال مقتفيًا لسارق قبور، قاطع طريق أو قاتل، حتّى يصل إلى مخبئه كثعلب حكيم. يقرأ في أثر الأقدام وضغطها على الرمال نوع الجاني ووزن ما يحمل وعلى أي كتف، عمره وحجمه، به عاهة أو سليم، أسمر البشرة أو أبيض، وإن كانت أنثى أدرك عذريتها من غور جوانب قدميها في الرمال، ومن رسم كاحلها يعرف إن كانت حبلى، ويعرف من شكل ومسلك خطوات الحيوان نوعه وحالته، ومن برازه المتخلف وراءه ما أكله ومن أين. كان أشهر مقتفٍ للأثر بسمنود، حتّى أقعده مرض تقيأ بسببه دماء سوداء، ثم مات في فجر هادئ. يذكر كاي ذلك اليوم كأنه الأمس، عمره لم يكن تعدّى الثانية عشرة. كتمت أمه صرختها وأرسلته ليخبر الأهل والأقارب فالتقط عصا أبيه التي لم تكن تفارقه، وقف على باب الدار ورفعها كما تعلّم منه، أغمض عينيه لحظات ليصفي ذهنه ثم حرّكها فوق الرمال في دوائر محفوظة، وقاوما

دمعًا ساخنًا أعاقه عن الرؤية، مسح وجهه ثم انحنى يتلمّس أثر سارق روح أبيه. كم تمنّى ألا تكون تلك أول مهام عمله، وتمنى يومها ألا يفشل، ظلّ يحدّق في الرمال حتّى اقترب ظل كبير، رفع كاي عينيه فميّز عمّه:

- مات أبي.

قالها كاي فأغمض العم عينيه في ألم واقترب من ابن أخيه فاحتضنه:

- وماذا تفعل يا كاي؟

- أقتفي أثر من سلب أبي روحه.

- وهل عرفته؟

- لم يترك أثرًا وراءه.

قالها بإيمان فأردف عمه:

- بل ترك.

نظر إليه كاي في أمل فبسط العم كفيه تحت ضياء الشمس.

- طالما أردت معرفة أين ذهبت روح أبيك، فعليك اتباع الطريق الصّحيح

لم يفهم كاي وقتها كلمات عمّه، ظل يرمق القرص المُلتهب حتى احترقت عيناه وتلاشت التفاصيل، دفن أبيه بحفرة صغيرة في ضفة الموتى بعدما لفه عمّه بجلد ثور كان يدّخره لنفسه، ووضع بجانبه تمثال إدريس وكيس شعير سقي بالمياه لتنبت براعمه، قبل أن يُهيلوا على جسده الرمال ويغرسوا سعف النخل فيها.

بعد أيام وضعت أمّ كاي على كتفه بُقجة من الكتان تحوي لباسًا أبيض نظيفًا، تحته بتّاو ونصف إوزة مشوية وبعض التين والحمير. حاولت التماسك وهي تخبره أنها ستودعه المعبد تخفيفًا لأحمال أثقلت كاهلها من إخوة أصغر سنًا، استقبل كاي الخبر بصمت وسكون ثم هزّ رأسه تفهمًا، مقاومًا الدموع بابتسامة مُطمئنة لم تمنع الأم من النّحيب،

قبل أن يركب حمارًا وراء عمه.

في معبد الأسوار السبعة أوصى العم الكهنة بابن أخيه قبل أن يغلق الباب الكبير. بات كاي ليلته الأولى خائفًا وسط رفاق من أعمار متقاربة، قبل أن يستدعى في اليوم التالي لساحة المذبح. وقف وسط صفين من الكهنة يتلون أذكارًا لم تعهدها أذناه، ثم صبوا عليه ماء فاترًا قرئت عليه التعويذات قبل أن يقدم إليه كوب فيه عسل. شربه كاي فأمره الكاهن بتعرية خصره. دهنوا عضوه بفرشاة من شعر الخيل غمست في مزيج من الخل. لحظات وسار الخدر في الطرف المنكمش. أمسكه كاهن ليحد من حركته قبل أن يقطع كاهن آخر غرلته بسكين من حجر الصوان في سرعة وهدوء، رفع الجلدة فرتل الواقفون كلمات منغمة قبل أن يلقيها فوق نار المذبح وسط ذهول كاي الذي فقد الوعي ما إن رأى الدخان يتصاعد من لحمه قربانًا إلى السماء.

هكذا رسم كاي كاهنًا «مطهرًا» يكنس المعبد من الفجر ويغسل حيطانه. يدهن الأعمدة بالزيوت ويطعم الطير الهابط إلى بهو الأعمدة. وينظف المذبح من رماد قرابين الإله. كان ذلك قبل أن يرى الكاهن الأعظم «مانيتون» لأول مرة. يتذكر الربتة المطمئنة على كتفيه، ثمرة التين التي وضعها في كفه، والوجه البشوش الذي غطاه قطر التحنيط منذ ساعات!

أفاق كاي من رحلته للماضي الجميل فقاوم شخوص عينيه في سراب مدينته التي اختفت. ونظر في النجوم الزاهية قبل أن يلتقط أنفه ملوحة المستنقعات الشمالية. أبطأت عربة مردخاي بعد صيحة للخيول. توقفت. على ضوء القمر رآه كاي يترجل من عربته ويداعب بنعله الفاخر نبات المستنقع فترجل واقترب في فضول.

. لم توقفنا يا سيدي؟ القمر مكتمل.

. أفراس النهر تكره الغرباء، تهاجم العربات المسرعة والخيول. سنبيت ليلتنا ونستأنف رحلتنا مع شروق الشمس.

ساد الصمت لحظات أغمض فيها مردخاي عينيه وسحب نفسًا باردًا إلى صدره قبل أن يستطرد:

. هل كان للكاهن أعداء يا كاي؟

- لا أذكر أني رأيت شخصًا يُضمر له حقدًا أو كراهية.

- هي إذن سرقة عادية؟

- بل الترصّد والنية المبيّتة، وإلا فلم لم ينتظر خلو الهيكل فيسرق؟

- لا أخفيك سرًا، يبهرني مقدرتك في التقصي والتقفي.

- موت أبي لم يمهلني أن أكمل ما بدأت في تعلمه.

- بل أنت موهوب بالفطرة، أرى ذلك في عينيك، حتّى إن الشكّ ساورني للحظات أن تكون أنت الفاعل.

- أنا!

- لم لا؟ فكّر معي، أنت قادر على دخول قدس الأقداس، ذُبح الكاهن في سُرعة لم تُمهله الصريخ باسم قاتله الذي بالتأكيد تعرّف وجهه، سرقت الخزانة، ثم محيت بيديك آخر ما كتب على الأرض قبل أن يلفظ أنفاسه، هلا كررت عليّ ما كتب؟

في ذهول حدق كاي في عيني رئيس القصر.

- كتب ثلاثة أرقام، سبعمائة وخمسًا وثلاثين.

- رجل مذبوح يكتب ثلاثة أرقام بيده وهو يُصارع الوقت! قد تكون الأحرف الثلاثة «ك، ا، ي» واختلط عليك الأمر؟

انقبض قلب كاي.

- سيدي، أنا لم أقتل الكاهن الأعظم.

- تبقى الأرقام مُحاولة جيدة لتشتيت الانتباه، أما ثالث ونصف من الذهب فتستحق المُخاطرة.

- أقسم باسم المُعلّم الأكبر إدريس إنني ما محيتها إلا خوفًا أن يكون القاتل من رجال المعبد، وقد أفضيت بها إليك

سيدي.

. أتقسم أن نسخة متون الچبتانا التي كانت بحوزتك هي النسخة الوحيدة والكاملة بحلاف التي سُرقت؟

. أقسم بإله الوجود الواحد، خالق نفسه بنفسه أن تلك هي النسخة الوحيدة من متون الچبتانا ولا نسخة بعدها.

نظر إليه مُردخاي ثم ابتسم قبل أن يضحك:

. لقد نلت منك يا كاي.

رمقه كاي في ذهول محاولًا استيعاب الموقف قبل أن تهدأ أنفاسه ويبتسم باضطراب حين أردف مُردخاي:

. لحَسن حظك أنني أستطيع تمييز الصادق بين ستين كاذبًا.

قالها وأغمد النَّصل في بطن كاي!

تلقى الأخير الطَعنة فتقلَّصت ملامحه وانثنت قامته في صدمة. بذهول تأمل دماءه السَّاخنة تتدفق حول السكِّين الغائر في لحمه، السكِّين الذي ذبح الكاهن الأعظم مُنذ ليلتين! ثم نظر في وجه مُردخاي الذي رمقه بهدوء قبل أن يوكز صدره ليسقط كاي في مياه المُستنقع الخضراء. وأشار لحارسه:

. أجهز عليه.

تلقى الحارس الأمر فرفع حربة، وزنها في قبضته وتأمل كاي يضرب المياه المزدحمة بالطحالب مُحاولًا الطفو، مُصارعًا الوهن ورئة تغرق، يراقب قاتله بعينين جاحظتين حتى أيقن الذاهب في عينيه فثقل جسده واتخذ طريقه للقاع. كان ذلك حين أرسل الحارس حربته. شقت المياه في سلاسة واخترقت هدفها. لحظات وعلت المياه دماء سوَّدها نور القمر. غاصت الحربة بصاحبها وانتظر مُردخاي وحارساه دقائق حتى يئست الموجات وسكنت ثم تحرك كائن جائع من فوق الشجرة، فاعتلوا العربات ومشقوا أرداف الخيل بالسياط.

☥

☥

☥

الإسكندرية:

صوت سنابك الخيل على البلاطات المحدّبة كان له وقع مريح في أذن مُردخاي. شدّ اللجام منذ وطأ محيط حيّ القصور فأبطأ فرسه وانتظمت خطواته في تناغم مُسكر دغدغ أعصابه فأرخى عينيه انتشاءً. مرّ بجمنازيوم الأمراء وقصر المحظيات ذي الستائر الحمراء ثم وصل إلى الباب الشرقي للقصر. سأل عن الملك فعلم أنه يتمشّى مع ابنته «برنيكي» قُرب البحيرة. اخترق البهو ونزل إلى الحدائق. مشى بحذاء المياه المغطاة بالزنابق حتّى وصل إلى المتاهة الكُبرى. بوّابة حجرية هائلة منحوت فيها وجه الإله سيرابيس محاط بجناحين مبسوطين، وراءها مساحات شاسعة من الحوائط الشّجرية تصنع فيما بينها طرقًا مُلتوية تفضي في المنتصف إلى شجرة بلوط نادرة. من وصل إليها من الضيوف والأمراء في الاحتفالات الماجنة فأتى بورقة من أغصانها يحظى بزيارة إلى قصر المحظيات، ينتقي من تروقه من الفتيات ليتخذها جارية لا تُرد. هذا في حالة ما خرج من التيه دون أن يبكي لساعات أو يصرخ في جُنون حتى يلتقط استغاثته أحد الحراس فيستأذن الملك في إخراجه فيوافق، أو يتركه لساعة أو ساعتين استهزاءً.

حين اقترب مُردخاي كان وجه برنيكي عابسًا. قطع الملك حديثهما المُحتدم حين لمحه.

- اقترب يا مُردخاي. ما الأخبار؟

دنا فانحنى إجلالاً:

ـ الأخبار تستطيع الانتظار، سأعاود زيارة جلالتكم قبل الغروب.

ـ انتظر، أريد مشورتك في مسألة طارئة.

رمت برنيكي أباها بنظرة نارية فتجاهلها واستطرد:

ـ جاءني رسول من «أنطيوخوس الثاني» يطلب يد الأميرة برنيكي، مقابل صداق كبير من الأراضي لن يُطالب السلوقيون باسترداد ملكيته في أراضي سورية.

أردفت برنيكي بحدّة:

ـ لن أترك جسدي لسفّاح السلوقيين من أجل تهليل العامة بانتصاراتك في الإسكندرية.

أردف الملك:

ـ تلك الزيجة ستكون بداية نهاية الصراع، أرى ذلك في كلمات الرسالة. ما رأيك يا مُردخاي؟

صاحت برنيكي في غضب:

ـ ذلك كل ما يعنيك! معركة أقودها أنا في سرير ببلد غريب بدلًا من أسطولك.

نظر مُردخاي للملك والأميرة برنيكي بابتسامة ثم قال في هدوء:

ـ أنطيوخوس الثاني رجل في العقد الخامس، قوي البنية سليمها، وله ولدان من لاوديس، زوجته الفاتنة ذات الأصل الفارسي المقدوني. ثم نظر للأميرة بابتسامة. هي ليست في جمال أميرتنا برنيكي بالطبع، لكن المقارنة بين فرصة زوجة أولى مُتمكّنة من وراثة العرش، وزوجة ثانية، ليست عادلة.

حدجت برنيكي أباها في ظفر:

ـ ها هو رئيس قصرك قد حسم الجدال.

عاجلها مُردخاي:

- إلا إذا وضعنا شروطًا تضمن لنا ولاية العهد!

رمقته باستنكار:

- عن أي شروط تتحدث؟

- أن يتخلى أنطيوخوس عن زوجته الأولى، وأن تصير أميرتنا العزيزة هي الزوجة الرسمية. يصبح أبناؤك الذكور ورثة شرعيين. تُصك العملات بصورتك، وتسمّى مدينة كبيرة باسمك: مدينة برنيكي، وأن يُضاف إلى الصداق جزر الشمال، نجعلها حامية لنا تضمن دفاعًا متقدمًا إذا تجدّدت الحرب.

ابتسم الملك فصاحت الأميرة بغيظ:

- أنت مثل بروميثيوس، تسرق النار من زيوس لتُعطيها للبشر، وستلقى عذابًا أبديًا كعذابه.

احتد الملك:

- برنيكي!

ضحك مُردخاي

- لا بأس يا سيدي، إذا صار النهام كبدي بمنقار نسر ضخمة كل يوم جزاء أن يُصبح مُلك أميرتنا الأثيرة برنيكي ممتدًا من بلاد سُورية إلى مملكة الماوريين في الشرق، فأنا مُرحّب.

انحنى مُردخاي في احترام فلم تَخف برنيكي غضبًا ممزوجًا بقلة حيلة، قبل أن تقلب شفتيها غيظًا:

- لن أتزوّج.

ابتعدت الأميرة فنظر الملك لمُردخاي وزفر بابتسامة:

ـ منذ صغرها تظن أن الاقتناع ضعفٌ، فطالع برجها «ثور» يحمل بين قرنيه العناد، لكنها في النهاية دائمًا تُوافق، هيًا، لنتمشَ.

التقط من فوق المائدة كأسي نبيذ ثم دلفا المتاهة، دار الملك بممراتها في سلاسة حتى وقف أمام تمثال نصفي لأبيه «بطلميوس الأول» فوق حوض لنبات اللوتس، انحنى مردخاي احتراما وجلس الملك على أريكة مواجهة:

ـ ماذا حدث في معبد الأسوار السبعة؟

ـ ذُبح الكاهن مانيتون أمام تمثال إدريس بالهيكل.

انتفض الملك:

ـ اللعنة! انتقام أم سرقة؟

ـ بل طموح.

ـ شخص من داخل المعبد؟

ـ الكهنة الچيبتيون يأكلون بزهد يجنب أبدانهم المرض، يعمّرون حتى يتخطوا المائة فيسدّوا الأبواب خلفهم لكل من أراد الارتقاء في المكانة. القاتل يُدعى خاي؛ كاهنًا بالمعبد، مسموحًا له بزيارة الهيكل، ويعرف مكان الخزينة. الطمع تسرب إلى روحه فذبح معلّمه وسرق ثالث ونصفًا من الذهب، وقبل أن يلفظ الكاهن أنفاسه كتب على الأرض ثلاث علامات محاها الكاهن، ثلاثة أحرف تمثل اسم قاتله: خاي.

ـ يا للخسة!

ـ لا عجب، إن شعب ذلك البلد لهم جفنة من القاذورات والفضلات وأرواحهم الداخلية ما هي إلا رسوم من سموم الثعابين والتماسيح التي تعج بها بلادهم. فاسدو العقول لا همّ لهم إلا مضمار الخيل والزعيق في الأسواق.

ـ هل هو وحده من أتم الجريمة؟

ـ لم أرَ في عينيّ نائب الكاهن قاتلًا أو مُدبّرًا. عجوز قنوع يلتمس نهاية سعيدة.

ـ هل سرق ذلك الفتى برديات خزينة الهيكل؟

ـ نعم، والكتاب الأخير للكاهن كان في غرفته.

قدم مردخاي للملك إضمامة برديات ملفوفة بالجلد:

ـ الچبتانا. قصص مُسلّية عن نشأة مملكة الچيبتيين.

التقطها الملك وفك الحزام وبدأ يُطالع الكلمات ثم التفت لمُردخاي:

ـ هل الكتاب كامل؟

ـ أظنه كذلك.

ـ أين ذلك الكاهن؟

ـ حاول الهرب أثناء نقله، قتله حارسي قُرب المُستنقعات الشمالية.

زفر الملك في هم:

ـ أشكرك يا مردخاي.

انسحب رئيس القصر في خشوع تاركًا الملك، يقرأ كلمات مانيتون، في قلب المتاهة.

☥

☥

☥

بعد حشرجة عنيفة استيقظ كاي، سعل بوهن فصرخ ألمًا. قاوم ضعفًا خلخل كيانه لينزع العصاب الذي غطى عينيه، شعاع الشمس يداعبه من بين أغصان متشابكة. وحبل يشده إلى جذع شجرة عريض ارتفع عن الأرض بضع أذرع، بطنه وكتفه اليسرى ملفوفة بخيش برزت من تحته أوراق جميز، على صدره رسم لعين حورس الحامية وفي فمه مرارة مستنقع آسن. بصعوبة بالغة نظر أسفل منه، حشائش ممتدة فوق أرض رطبة وحطب محترق وبقايا سمكة، حاول استرجاع آخر ما رأت عيناه فتداعت التفاصيل؛ طعنة نافذة في معدته من رئيس القصر، ماء لزج يسحبه لأسفل، رئتاه تمتلئان، حارس يصوّب حربة، يقذفها، تخترق الكتف في سكونة، فوق نخور يأس يتوغل، طحالب وأغصان تمسح صدغه وصدره قبل أن يحتضن جسده قاع المستنقع، ظلام

التقط كاي خطوات تقترب خلف الشجرة فتحفزت أنفاسه، حاول بجزع فك الحبل المحيط بخصره فصرخ جرحه، كان ذلك حين برز عجوز أصلع نحيف البنية، يستر جسده بألياف النخيل ويمسك في يده سكينًا مدببًا، رمق كاي الذي بعثر أوراق الشجر حوله فتسلق الشجرة في خفة لا تليق بعمره، صرخ كاي في جزع حين رفع الرجل سكينه، قبل أن يقطع الحبل ويمد كفه مساعدة، لم يستجب كاي

- جسدك ضعيف، لن يتحمل سقوطًا من فوق شجرتي.

- لم أوثقتني؟

قال العجوز بصوت خافت: كي تسمن فأطعمك لتماسيحي.

نظر إليه كاي في هلع فضحك العجوز بثلاث أسنان متفرقة:

. إنما خشيت عليك دواب الأرض فرفعتك عنها. لو أردت إطعام تماسيحي لانتقيت كاهنًا بدينًا.

استسلم كاي للكف الخشنة. نزل متكئًا عليها يتأوه في ألم. مقاومًا أسراب بعوض تضرب وجهه وعنقه. وضعه العجوز فوق عشب المستنقع الرطب ثم نزع الخيش الملفوف على بطنه وأوراق الجميز فانكشف الشق الذي حفره السكين. مضمومة حافتاه بخيوط من الأمعاء.

. جرح غائر. سيندمل بعد دورة قمر.

. كيف وجدتني؟

. شاهدت ما حدث من فوق شجرتي فنزلت. ظنني قاتلوك زاحفًا يسعى لفريسة فرحلوا مطمئنين. غطست فضولًا فلمست بقايا الحياة فيك. انتشلتك. ضربت صدرك حتى أخرجت نصف مياه المستنقع ثم عالجت جروحك. أن تصيبك حربة بمثل هذا الوزن ولا تمزق إلا كتفك هي معجزة.

تحسس كاي كتفه فأردف العجوز:

. حشوت الجرح عسلًا وكسوته بيرقات ذباب. ستستطيع تحريكه بعد أيام.

امتعض كاي فناوله العجوز قطعة سمك كانت فوق الحطب: أنا لا آكل السمك.

. لا أطعمك إلا سمكًا منذ ثلاثة أيام.

. أأنت ساحر؟

. طبيب.

. طبيب في مُستنقع!

. كائنات هذا المُستنقع أرحم من بني الإنسان، اسمي عزيز، كنت أعمل طبيبًا بحي راقودة في الإسكندرية، ملكت يومًا منزلًا وزوجة، وابنة، قبل أن أفر إلى هنا.

. ارتكبت جريمة؟

قام عزيز من مكانه، التقط من الشجرة جرّة مملوءة بالماء، شرب منها بحرص ثم التفت:

. قتلتُ شخصًا.

جحظت عينا كاي قبل أن يُكمل عزيز:

. الضرائب المُجحفة التي مُنينا بها أفقرت أهل راقودة وأحنت ظهورهم، العلاج بات مُكلفًا حتى بعد أن تنازلت عن نصف أجري، ولم أستطع يومًا صد وجه يستغيث أو يتألم، حتى حاصرني الخنازير، جُباة الضرائب، يقتطعون من لحمي الحي ضريبة قدرها أربعمائة دراخما سنويًا، ضاقت حالي حتى اضطررت للاقتراض من مُرابي حي دلتا بفائدة قدرها ستة وأربعون على كل مائة، غمرتني الفوائد كالرمال المُتحركة، كلّما حاولت تسديدها ازددت فيها انغماسًا.

. الديون جُنون.

. بل الجُنون أن تعيش في الإسكندرية وأنت من أبناء حي راقودة، نحن الجيبتيين لا ثمن لنا هُناك، ويد المُرابي الممدودة إلى العُنق أحد من أسنان التماسيح

. وجريمتك؟

. أتى الوغد إلى بيتي يومًا يُطالبني بما له، قبل أن يُساومني على ابنتي، أرادها أن تعمل عاهرة تحت إمرته تسديدًا لديوني، لم أدر بنفسي إلا وأنا أدير سكّينًا في صدره، سقط كخنزير يخور ثم خمدت أنفاسه، أسقط في يدي وهلعت صغيرتي، لمّا تمالكت نفسي حملت جثته وألقيتها في ناصية مُظلمة فلاحقني أشخاص لا أعرفهم، ففرت في مركب

[illegible]

قالها ثم صمت فزاغت عيناه في الفراغ:

. وتلك كانت آخر مرّة أرى فيها ابنتي.

لحظات وأفاق فاستطرد:

. هيا أكمل طعامك، أنت لا تعرف متى سيتاح لك مرة أخرى.

مدّ كاي يده والتقم السمكة، اعتاد طعمها ثم استساغها. تابعه العجوز حتى ظن فيه الشبع قبل أن يسأله عمّا أتى به إلى المُستنقع.

. اتُّهمت في جُرم قتل أنا بريء منه.

. كل من ابتلعتهم المُستنقعات قالوا ذلك قبل مصرعهم.

. أنا لا أكذب. أنا كاهن بمعبد الأسوار السبعة.

. أدركت ذلك من إزارك الكتاني، رغم أن صدرك عريض وبنيتك عضلية جافة لا توحي بذلك. أأنت من تلاميذ مانيتون؟

أطرق كاي برأسه إلى الأرض.

. وهو من رُميت بقتله؟

في وجوم قام العجوز من مكانه، غرس قدميه الباينتين في طين المُستنقع مُغمضًا عينيه في ألم. ثم تكلَّم:

لذلك طعنك مُردخاي؟

. أتعرفه؟

. من في الإسكندرية لا يعرف رئيس قصر الملك. اقصص عليّ ما حدث.

- قتل الكاهن الأعظم أمر لا يقدر عليه إلا قلب لا ينبض.

- ساعود إلى معبدي، اقصص ما حدث فابرئ ساحتي واحتمي بالأسوار.

- أنت ميت لا محالة.

ثم لمس عزير في وجهه التشبث والعناد فاستطرد:

- لتنتظر حتى تندمل جروحك ثم قرر مصيرك.

☥

☥

☥

في الأيام التالية تابع كاي يرقات الذباب تتحرك في جُرحه، فرزت هلامًا لزجًا دغدغ الجلد لكنّه ساعد على الالتئام. أكل سمكة وأرنبًا وبومة، ورفض أكل خنزير صاده الطبيب عزيز بفخ. طال شعره ونبت ذقنه لأول مرة منذ عقد، كتفه تحركت ببُطء وكفّت معدته عن النبض المؤلم. تولت الشمس تجفيف الخربشات التي تركتها طحالب وأشواك المستنقع على جلده، واستعاد وجهه شيئًا من النضارة بعد شحوب. غسله الطبيب بماء مالح ودهن جلده بزيت استخرجه من لحاء شجرة وقرأ عليه كلمات سارعت في شفائه، ثم بدّد نقيق البوم وقباع الخنازير في الليالي المظلمة بحكايات عن الإسكندرية، المدينة التي لم يزرها كاي يومًا. عن زرقة البحر وروعة الفنار. الشوارع المقسّمة كرقعة الشطرنج، الرخام الأبيض الذي يكسو المباني والستائر الخضراء الموحّدة التي يحرّكها الهواء، الجمنازيوم الفخم والمكتبة العملاقة وضريح الإسكندر المبهر وكفنه الذهبي. طريق الهيبتاستاديوم الذي يربط الفنار بالثغر، مكاتب المرابين التي تملأ الأسواق ومضمار الخيل. عن حي راقودة المخصص للجيبتيين، وعن الثورة التي تضطرم في الصدور بسبب الضرائب الباهظة التي يجبيها يهود حي «دلتا» نيابة عن الملك. حكى بحماس تبدّل أسى عن مدينة عاش فيها طفولته ليُغادرها مجبرًا رغم عشقه، وعن فلذة كبد انقطعت بينهما الأسباب. تحشرج صوته شيئًا فشيئًا حتى قام يرتعش، التقط من الطين ضفادع وحشرات وأوراق شجر دسّها في ملابسه. ثم هدأ، خمد، كنار اختنقت بلا هواء.

بعد أيام لم يُحصها قرر كاي العودة إلى المعبد، رغم تحذير عزيز الذي يئس من إقناعه بالعدول. لمس العناد فزوّده بطعام يكفيه رحلة العودة وسكين مشحوذة تقيه شر الضواري من الإنس والحيوان، ووصية أملاها إليه حالة العدول

عن وجهته.

خرج كاي من المستنقع إلى الخلاء متخذا طريقه نحو سمنّود، متدثرا بثوب من الخيش وممسكا بعصا كانت جذعا خففت عنه وطأة خطواته على الجروح. لمّا بلغ بلدته تحاشى الناس حتى وصل بيته، كمّم فم أمّه حتّى لا تصرخ انفعالا فبكت في صدره ثم حكت عن زيارة نائب الكاهن ورئيس الشرطة إلى بيتها واجبارها على الكتمان، حذّرته من الظهور فوعدها أن يُبرئ ساحته واسم أبيه، قبل أن يُقبل يدها ويرحل.

لمّا حاذى كاي سور المعبد، غطّى رأسه وطأطأه ثم دلف من البوابة الكبيرة، وقف في طابور زوار يحملون بين أيديهم الإوز والبطّ وخيرات مما تنبت الأرض، يقدمونها للكهنة القائمين على المذبح قربانا وعرفانا، يرفعونها فوق المذبح ويرتلون الصلوات ثم توضع فوق مائدة الرب عطيّة للفقراء والكهنة.

تحرّك الطابور ببطء حتى لمح كاي نائب الكاهن يخرج من باب قدس الأقداس ويجثو في تضرّع أمام متون القدرة الإلهية بالجدار الشرقي. لم يعرفه زملاؤه من الكهنة حين خرج عن الطابور متجها للكاهن، جلس على ركبتيه في خشوع ثم همس:

- مثلت أمامك أيها الواحد العظيم بعد أن طهّرت نفسي، أنا كاهن هذا المعبد وخادمه، وكل ما أحمل من شر ألقي به إلى الأرض.

التفت نائب الكاهن فاضطربت أطرافه، همس كاي:

- سيدي، لا تفزع، أنا كاي.

قام الكاهن من ركوعه والروع في ملامحه حين أردف كاي:

- لقد حاول رئيس القصر قتلي، ألقاني في المستنقع بعد طعني، بقيت هناك حتّى التحمت جروحي فرجعت.

ابتعد الكاهن خطوتين وعيناه لا تفارقان كاي الذي قام مستندا إلى عصاته.

بتر كاي كلامه لمّا اصطدم ظهر الكاهن بالجدار. استشعر الكهنة أمرًا مريبًا فاقتربوا يتأملون الزائر الغريب:

. أرى الاقتناع في قلبك يا سيدي!

نظر نائب الكاهن في عينَي كاي للحظات ثم صاح في الكهنة:

. ها هو قاتل معلّمكم، ها هو الملعون.

بوغت كاي حين تكتّل الكهنة في دائرة حوله. كشف غطاء رأسه فعلت الهمْهمات. أذهلتهم هيئته المزرية والشعر النابت على رأسه. أردف كاي:

. بحق من يرعانا في سمائه لم تمس يداي معلّمنا بسوء.

صرخ الكاهن:

. لا تذكر الرب في فمك فأنت لعنة تمشي على ساقين. لقد أرسل رئيس القصر بردية بخبر هربك لمّا انكشف أمرك.

. أنا لم أهرب.

قال كاهن:

. كنّا نظنّك أخًا لنا.

وقال آخر:

. كيف جرؤت أن تعود بقدميك إلى هنا؟

صرخ نائب الكاهن:

. لم تطوّعت لدخول قدس الأقداس وحدك؟ ولم محوت اسمك المكتوب بالدم؟

. كاذب، أمسكوا به.

صاح بها الكاهن فرمق كاي وجوه زملائه تتوعّد. أحاطوا به ككلب تسلّل إلى محراب فوجب قتله.

. ماذا أنتم فاعلون!

جزع فرجع للوراء خطوات، نادى المقرّبين إليه بأسمائهم فلمح في الأعين عمى وعلى القلوب أقفالًا. نسوا يوم استقبلهم ولقّنهم المبادئ عن الرّب في السماوات العلى. نسوا يوم غسل رءوسهم في البّحيرة المقدسة خلف المعبد وردد أسفار التطهير، ويوم حرق البخور من أجل أرواحهم في صلوات الرحمة.

فجأة اقترب منه كاهن كان يومًا أقرب الأصدقاء. ناداه كاي باسمه استعطافًا وتذكيرًا فهوى على وجهه بعصا شجت خدّه. لم يسع كاي سوى استلال سكين عزيز المخفي تحت لباسه. رجع الكهنة خطوة فصاح «متري» الذي تقهقر خلفهم:

. أرأيتم. ها هي روح «ست» تتجسّد أمامكم في جسد صاحبكم، يرفع سكّين الغدر في المعبد. ويتسلل لموضع فعلته كضبع خسيس يُكمل جريمته.

. أنتم مُضللون. أنصتوا إلى عقولكم.

صاح كاي فلمس آذانًا مسدودة. لوّح بسكّينه في الوجوه قبل أن يركض قدر طاقته نحو قدس الأقداس. ركضوا خلفه فطوّح سكينه فيهم مُبطئًا تقدمهم. دفع الباب بقبضته ودخل فأغلق المزلاج. تكتل الكهنة خلف الباب ثم ساد صمت يعرفه جيدًا. صمت انتظار الإذن. رجع بظهره حتى تمثال إدريس الكبير. لمس حجره في خشوع حين التقط صوت الكاهن من الخارج:

. اكسروا الباب. مأذون لكم دُخول قدس الأقداس.

التقط كاي الكلمة قبل أن يسمع أول ضربة على الباب. لم يكن المزلاج ليتحمّل عشرين كتفًا. توقّف عقل كاي عن التفكير واستشعر نارًا تسري في كتفه. انفتح الجرح ونضح دمًا. نظر لوجه إدريس يسأله: أتكون ميتتي بين قدميك

كما قُتل الكاهن الأعظم؟ ثم نظر لفتحة السّقف التي عبر منها ضياء الراعي فابتهل أن تضيء الحقيقة وجهه أمام الناس في اللحظة التي تشقق فيها مزلاج الباب وتخلخلت دعامته. أغمض كاي عينيه واستغفر. ثم تسلّق في سرعة التمثال الكبير. لوّث بالعرق والدم أحجاره واستمسك بالتاج حين أوشك على السقوط. نظر في عيني إدريس الحجريتين للحظة قطعها صريخ مصراعي الباب يُنذران بانهيار تحت وطأة الضربات. الصرخات ازدادت حدّة وتوحشًا. وقف كاي بقدميه على كتفي إدريس. خرجت الأيدي من فرجة الباب تطلب طرف المزلاج. وعَلق المارق لتدقّه. تحامل كاي على عضلات بطنه فنزف جُرحه على كتف إدريس. قفز ليطول فتحة السّقف فصرخ ألمًا قبل أن تقبض أصابعه على الأطراف. في اللحظة التي طال أحدهم فيها المزلاج. أزاحه فانفتح الباب بغتة ليسقط الكهنة فوق بعضهم متدافعين. كان ذلك حين اعتلى كاي سطح قدس الأقداس. نظر يمينه ويساره قبل أن يلحظ حبلًا مشبوكًا بخطّاف يتدلى إلى السور وراء قدس الأقداس. وآثار كف مُدماة. رمقها لثوانٍ كانت كافية ليُميّز أصابع غليظة قصيرة تُشير لأصل بدوي صاحبها شديد البأس غليظ الملامح. تسلّل من فتحة السّقف هربًا بعدما ترك باب الهيكل مُواربًا ليُوحي بأن القاتل من أبناء المعبد.

تزاحمت الاستنتاجات في رأسه قبل أن يركض بكل ما أوتي من قوة ليقفز في مياه البُحيرة المقدّسة. في اللحظة التي أشار أحد الكهنة إلى الدماء التي لطخت تمثال إدريس وتركت البصمات قرب فتحة السقف. انتشروا حول ضفاف البُحيرة. وهناك. لم يجدوا لكاي أثرًا.

☥

☥

☥

بعد خمسة أيام.

قاعة الباليسترا، الجمنازيوم الملكي، الإسكندرية.

رغم حرارة الجو لم يرفع نائب الكاهن فرو الفهد عن كتفه، جلس ساكنا يتعرق فوق أريكة تطل على ساحة المصارعة، يتأمل مُصارعين عاريين وسط دائرة من المُشجّعين، أحدهما أورجيتيس ابن الملك والآخر شاب مفتول في نفس سنه، تشبّكا الأيدي وضغطا الأكتاف بقبضات صلبة وعضلات متحفزة، الضربات أدمت أنف ابن الملك قبل أن يظفر بورك الشاب في حركة مُفاجئة ليرفعه عن الأرض فيختل توازنه ليهوي فوقه مُجهزًا. ضرب المعلم ذو الرداء القاني عصاه على الأرض فانفك الاشتباك ليقوما ويتصافحا. مُردخاي كان يتابع المُباراة عن قرب، دنا من الحلبة فأفسح المُتابعون المجال، ربت على كتف الملك الصغير وهمس في أذنه بكلمات ضحك على أثرها قبل أن ينتبه لنائب الكاهن فاستأذنه أن يُكمل المُصارعة وصعد الدرجات:

- هل استمتعت بالمُصارعة؟

سأل مُردخاي نائب الكاهن.

- عيناي لا تهويان الدماء.

جلس مُردخاي:

. إذا اختبرت شعور الوقوف عاريًا أمام خصم ستغيِّر رأيك. ألا يشعرك جلد الفهد بالحرارة؟

. الحفاظ على مظهر الكاهن له أعباء.

ابتسم مردخاي للفتى الذي يُصارع الملك الصغير ورفع يده بتحية تشجيع قبل بدء جولة جديدة، ثم التفت إلى ضيفه هامسًا:

. أرى في وجهك مزاجًا مُضطربًا.

. جئت بخبر مزعج، الكاهن. زار المعبد أول أمس.

اعتدل رئيس القصر في جلسته

. أعد ما قلته.

حكى له نائب الكاهن ما كان من أمر كاي وظهوره الجريء في المعبد. أنصت مُردخاي دون مقاطعة حتى انتهى:

. لم لم تبعث بالحمام الزاجل؟

. خشيت أن تقع الرسالة في يد العامة فيظنوا بالكهنة الظنون.

. هل اقتفيتم خطواته؟

. الفتى يملك من العلم ما لا يملكه الكهنة. اختفت خطواته عند البحيرة.

. هل له عائلة؟

. قال أهل بيته والجيران إنه لم يظهر منذ الحادث.

- أعتقد أن الفتى ينوي انتقاما، منك.

اضطربت ملامح الكاهن.

- لا أظن أن كاي مصدر تهديد. فتيان المعبد ينشئون على الخضوع والطاعة.

- ألم تكن من فتيان المعبد يوما يا نائب الكاهن؟

- كنت.. حتى عاند مانيتون الآلهة.

- سأرسل معك حارسا شخصيًا، حتى إذا عاد الكاهن قتله.

هدأ القلق في عيني الكاهن فهمس مُردخاي.

- لقد أقنعت الملك برسمك كاهنًا أكبر بعد أن نواري جسد مانيتون. لا تنشر الخبر حتى لا تحدث جلبة. دعنا نغلق أبوابًا تأتينا بريح مُغبرة.

- هذا كرم بالغ.

استطرد مُردخاي.

- هناك أمر آخر. لقد أسرّ لي الملك أن متون الجيناتا ناقصة. هل كان كاي هو الوحيد القائم على كتابتها أم أن هناك من ساعده؟

- لم يكن مانيتون ليأمن إلا لكاي.

- البرديات مبتورة، ينقصها سفر أشار إليه مانيتون وسط الأسفار. ربما أخفاه في خبيئة خارج المعبد؟

- كاي لم يخرج من المعبد منذ بدأ الكاهن الأعظم إملاءه المتون. إن كان هناك أسفار ناقصة فإما هي بحوزتك أو كتبها مانيتون بنفسه ولم يُطلع عليها أحدا. لقد فتشنا غرفته وحجرات المعبد ولم نعثر على أي برديات.

شردت عينا مُردخاي في تفكير قطعه نائب الكاهن:

. جُل ما أخشاه أن ينتشر الخبر فيهتز إيمان الناس بكهنة المعبد.

. إن الشعب لا يُصدِّق، وإذا صدَّق فإنه ينسى، مثل طفل يبكي بحرقة ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، كأن شيئًا لم يكُن، لكن، إذا اتضح أن المتون المفقودة في سمنود فسيكون غضب الملك غير محمود، على المدينة بأسرها.

. بالي لن يهدأ حتى أجدها.

. كم تبلغ مساحة الأراضي المملوكة للمعبد الآن؟

ضرب القلق ملامح الكاهن ثانية، فاقتطاع أراضي المعبد أمر ينتهجه الملك تحجيمًا لسطوة الكهنة في نفوس العامة:

. حوالي مائة وعشرين أرورا من الأراضي.

. يا لها من مساحات، أجميعها مزروعة؟

أجاب الكاهن في وجوم:

. مُعظمها.

قام مُردخاي مُنهيًا المقابلة:

. قبل أن أنسى، لقد ذكرت أثناء حديثك فقدان ثالث ونصف من الذهب من خبيئة الهيكل، أثق أنك لن تنساها حين تزور الإسكندرية في المرة القادمة، عودة سالمة لسمنود، سنلتقي بعد دورتي قمر، يوم الجنازة.

رحل نائب الكاهن وفي صدره خوف يخمش صدراً غطاه فرو فهد، ووعد، خوف من غدر رئيس القصر إذا أوعز إلى الملك اقتطاع أراضٍ من ممتلكات المعبد، ذلك السوط المُسلَّط على رقاب الكهنة منذ رست مراكب الإغريق على شواطئ الإسكندرية وأدرك الإسكندر يومها أن شعب الجيبتيين هُم أكثر شعوب الأرض توقيرًا للدين، أما الوعد فلقب طال انتظاره، «الكاهن الأعظم»، مكانة ما كان ليتمنى نيلها بتسليم رقبة معلمه، لكن، العقد السابع أوشك على الانقضاء،

ومقبرته انتهى نقشها ورسمها واستقر التابوت المرين فيها. إنها سنّة الحياة القاسية، حين تتأخر الطبيعة، على الإنسان أن يتحرك، أما أكبر المخاوف فكان وقع الخبر في نفوس العامة إذا علموا أن خادمًا للرب قتل مُعلمه، سيهتز الإيمان ويفقد زيّ الكهانة هيبته فتشح النذور وتتقوض أركان المعبد. ارتعد من الفكرة لكنه ردد في نفسه: «إن الشعب لا يصدّق، وإذا صدّق فإنه ينسى، مثل طفل يبكي بحرقة ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، كأن شيئًا لم يكن».

أما مُردخاي فنزل الدرجات وأشار لحارسه الذي قذف حربته منذ أيام في صدر كاي، اقترب وانحنى بالقرب من فم سيده:

. فقدت القدرة على التصويب أم ضعفت ذراعك؟

. ماذا حدث يا سيّدي؟

. فأر المُستنقع حيٌ يمشي على قدمين، عاد إلى المعبد وهدّد الكهنة.

اضطربت معالم الحارس:

. لكن الضربة كانت...

قاطعه مُردخاي:

. ليس الآن وقت حساب، أرسل مع الكاهن من يقوم على حراسته، لا أريد أن يطوله انتقام، وأرسل إلى رئيس الشرطة بأوصاف الكاهن الذي أفلت من حربتك الخائبة، ليُطلق عيونه في كل مكان حتى يأتينا بخبر عنه.

انسحب الحارس ليتابع مُردخاي الأمير والفتى الذي يُصارعه.

المدخل الجنوبي للإسكندرية.

ضرب يَود البحر أنوف القادمين تجاه بوابة المدينة. مَزارعين يسوقون حميرًا وبغالا تحمل الغلات. عمَّال الصيانة وبحَّارة السفن، ووافدين جُددًا يحلمون بمكان في جنة الإسكندر تحت رعاية الرَّب الإغريقي. أما الميسورون فيركبون عربات مزيَّنة تجرها الأحصنة في طابور طويل يضيق بهم عند عنق البوابة. يمرون أمام أعيُن الحراس وعصيِّهم التي يخزّون بها البضائع المربوطة فوق الدواب كي لا يخترق المدينة غير مرغوب فيه. ثم تُقدّر الضريبة على أصحاب الغلّات بحسب نوعها ووزنها، وهويَّة من سيحملها إلى «أجورا»، سُوق المدينة المُطل على المرفأ الغربي. مساحة شاسعة من الأرض تفصل حيّ راقودة الخاص بالجيبتيين عن البَحر. يجري فيه الشيالون كالفئران بين الناس. يرفعون السلع إلى بطون السفن المُغادرة إلى البحر، وينقلونها بين الباعة الذين يرصونها في تشكيل مُبهر للأعين.

عند البوابة اقترب رجل غطّى وجهه بقماشة. أوقفه الحارس بإشارة من يده:

- من أنت؟

أجاب دون أن يرفع القماشة عن وجهه:

- مينا بانياس. شارع الستاديوم المنزل التاسع. راقودة.

نظر الرجل في سجل معلّق بجانب البوابة، مشت عيناه في سرعة بين السطور والأرقام حتى عثرت على رقم تسعة، تأكد أن شخصًا بنفس الاسم يعيش في نفس المنزل ثم سأل:

. اذكر اسم جار لك في البيت.

أجابه الرجل:

. طبيب يدعى عزيز.

راجع حارس البوابة البردية حتى عثر على اسم الجار فأشار للرجل بالمرور قبل أن يستوقفه:

. لم تغطي وجهك؟

كشف كاي القماشة عن وجهه فظهر شج عميق في الخد:

. قاطع طريق حاول سرقتي.

تركه الحارس يمرّ فغطى وجهه ثم ذاب في الزحام. كلّما توغّل في المدينة ارتفع إيقاع الطبول وصخب الناس. اليوم كان عيد «باستت» قطّة مدينة «بوباستيس» الشهيرة بالوجه البحري ورمزها، تقدّس عرفانًا بجميلها في بث المرح والأنس في البيوت، ولشراستها في اصطياد الفئران من الصوامع. يمثلونها على هيئة امرأة ممشوقة القوام لها رأس قطّة، تمسك في يدها شخشيخة ذهبية. يضعون تمثالها المزيّن بالذهب والأحجار على رأس موكب مبهر يلف الشوارع والناس من ورائه سائرون في جماعات. يحتسون الجعة في مرح ويرش بعضهم بعضًا بها، واضعين وجه قطة مصبوغًا بالنيلة الزرقاء فوق وجوههم ويهزون الشخاشخ وهم يرقصون.

مشى كاي بينهم يتأمل وجوه قطط على أجسام بشر. تخبطه السكارى ونفخوا المزامير في أذنيه حتى صاحت فيه امرأة منتشية عارية الصدر: لم لا ترتدي وجه باستت أيها الوسيم؟ قبل أن تلصق وجه قطّة بوجهه وتقبل خدّه بعنف. صار واحدًا من المحتفلين فمشى يلتمس بالسؤال طريقًا إلى منزل طبيب المستنقع عزيز الذي أعطاه عنوان بيته واسم جار يساعده في المرور من البوابة، وأوصاه أن يأتيه بخبر عن «ناديا» ابنته التي تركها يومًا لينجو بحياته. في آخر

مكان يخطر ببال كاي أن يطرق أبوابه: الإسكندرية.

قبل أيام، وحين عبر كاي بُحيرة المعبد المُقدّسة بخد مشقوق من كاهن زميل وجروح تفتّقت، كان يدرك أن رئيس القصر لن يَخفى عليه أمر بقائه على قيد الحياة، سيقلب البلاد رأسًا على عقب حتى يجده، فنائب الكاهن لن يحتاج نصيحة ليُبلغ أمر زيارة القاتل للمَعبد، كما كان يدرك أن التمساح الذي يقطن البُحيرة لن يطول صبره حتى يظفر به رغم العشرة، خرج من الماء فالصق سعفتي نخيل بباطن قدميه لإخفاء آثاره عن زملائه السابقين من الكهنة، ثم ركض حتى طوته الأحراش، استقر في ظل شجرة داوى تحتها جُرحه بورق الجميز ثم غلبه النعاس للحظات رأى فيها الكاهن الأعظم في قُدس الأقداس، أمام تمثال الرسول إدريس، اقترب منه ثم جثا على الأرض،

. سيدي، أنت حي!

التفت الكاهن إليه بوجه يملؤه القلق ثم لامس بيده شرخًا في قدم التمثال،

. انظر! إن تمثال الرسول ينشق.

نظر كاي للشرخ الذي يتّسع فأردف،

. سيدي ابتعد، ستسقط الأحجار.

. الوقت ينفد، اذهب إلى الإسكندرية، ستجد هناك ما تُصلح به التمثال.

وانتفض كاي فجأة، لمح قوس الشّمس ينحدر والطيور في جماعات تحط على الأغصان، التقطت أذناه أصواتًا تقترب فأدرك أنه متبوع من كهنة المعبد، زملاء الأمس، وأعداء اليوم، تسلّق شجرة تخفّى في أغصانها حتى عبر زملاؤه، قبل أن يتقهقروا في خيبة من إدراكه، لبث ليلته بعينين لم ترمشا حتى أدرك أول ضوء فاتخذ طريقه بوحي من كلمات مُعلمه، نحو الإسكندرية

☥

☥

☥

حين وصل كاي أمام بيت عزيز خلع وجه القطة وطرق الباب، التقط صوت خطوات تقترب قبل أن ينفتح الباب عن عجوز ضيقت عينيها حتى تراه:

- من أنت؟

اضطربت كلمات كاي:

- كان هناك طبيب يعيش هنا، يدعى..

عبث وجه المرأة:

- يدعى اللعين، ماذا تريد؟ أأنت من أقربائه؟

تدارك كاي:

- بل أقرضته المال يومًا ولم يردّه.

- اغرب، لا أموال لك عندي، هذا اللعين قتل زوجي من أجل دينه.

أغلقت المرأة بابها فأعاقه كاي بقدمه، نظرت إليه شذرًا فاستدركها:

. أمهليني يا سيدتي، أليس للرجل أبناء أقتص منهم؟

قالت المرأة بصبر نافد وعينين لمعتا من الفكرة:

. كانت له ابنة، ابحث عنها في حوارق إليوسيس.

قالتها وأغلقت الباب في وجهه. تلفّت حوله فسأل عابرا عن حيّ إليوسيس أين يقع، ابتسم الرجل ثم أشار للشرق:

. اعبر الحي الملكي إلى الشرق ثم انحدر جنوبًا. لكن افهم، إن ساكنات هذا الحي لا يستيقظن صباحا.

. لم؟

. لأنهن العاهرات.

قالها الرجل وابتعد فأسدل كاي القماشة فوق شج خدّه ثم ابتعد، غربا.

☥

☥

☥

في الأيام التالية توارى كاي في ظلال المدينة الكبيرة، مترقبًا خائفًا وسط أمواج الصخب والجنون، يعيش تحت سيف من القوانين الصارمة، الچيبتي فيها هو الأقل حظًا، لا مكان لعاطل أو مشاغب في الإسكندرية، لا مكان لغريب ضعيف لا يقدر على الحياة، حتى العميان والخصيان وأصحاب العاهات يعملون، وإلا تتخبطهم المدينة الكبيرة الثائرة وتدير رءوسهم، ثم تلفظهم كما يلفظ البحر جثث الغرقى.

بعد يومين من المبيت على شاطئ البحر تحاشى كاي خلالهما الغرباء وعيون القصر بقلنسوة أخفت نصف ملامحه ولسان شحيح الكلمات، وجد كاي مأوى للمشردين يقع وسط حواري السوق المزدحم في شمال راقودة، ينظف المكان ويشترك في توزيع الطعام، ويساعد العجائز في قضاء حوائجهم نظير وجبة ومبيت، ثم يقضي ليلته محملقًا في السماء بحثًا عن طريق الأيام القادمة، الكاهن الأعظم قال له يومًا إن النجوم تحوي الإجابات، كما قال في الرؤية التي أتته حين خرج من البحيرة إنه في الإسكندرية سيجد ما يصلح به تمثال الرسول إدريس! لم يكن ذلك كافيًا ليهتدي به، وخارج المعبد حياة شائكة لا يقدر عليها كاهن لم يغادر الأسوار منذ وعى، كمون الجعران في الرمال انتظارًا لإشارة حياة كان أمرًا لا مناص منه، حتى يضيء راعي السماوات والأرض مسارًا يسترشد به، أو يقضي عليه الموت كما قضى على أبيه يومًا، يقاوم يأسًا يسحبه إلى بئر مظلمة، كلما أخذته سنة من النوم شاهد الرسول إدريس يرمقه في صمت، عيناه الصامتتان تستغيثان وشفتاه تنفتحان ببطء كأنه ينوي قول شيء، لا يخرج صوته، ثم يرى نقوش الحوائط تتبدل وأعمدة المعبد تتداعى، ويدًا تمتد لتحز عنق الكاهن بسكين!

ترتعد أطراف كاي فيبكي وهو يرتّل متن الرّحمات فتهدأ هواجسه ويصبغه الصّبر. ثم يذكر أباه حين كان يهيئ روحه وجسده قبل اقتفاء آثار المجرمين. يجثو على الرمال ويُغمض عينيه. يُفرغ الأفكار من رأسه حتّى يستمع لأنفاسه فقط. يتلاشى العالم من حوله إلى ظلام قبل أن يرى بقعة نور تكبر وتكبر. حتى تغمر كيانه. ثم تظهر فكرة واحدة. تكون هي بداية الطريق.

أو ربما رقمًا

٧٨٤.

تنبهت حواس كاي دفعة واحدة كأنما لسعته نحلة. كيف نسي الرقم الدموي في خضم الهرب من الموت؟

ما الذي قد يكتبه كاهن تخطّى العقد الثامن من العمر والدم ينزف من رقبته؟

إن لم يضيّع لحظاته الأخيرة في كتابة اسم القاتل فما كتبه هو أقيم من حياته.

أفكاره؟ بردياته؟

لكن أي برديات يقصد وكلها منسوخة ومتاحة؟

سفر لم يُمله على أحد؟

بردية لم تظهر للنور بعد؟

بردية برقم ٧٨٤؟

«الوقت ينفد. اذهب إلى الإسكندرية. ستجد هناك ما تصلح به التمثال»

انتفض كاي قائمًا. سأل زميلًا في الملجأ عن المكتبة الكبيرة فأرشده. سار في شوارع المدينة الصّاخبة قبل أن يقف مشدوهًا أمام الأبنية البيضاء الهائلة والعمود الضخم الذي يعلوه تمثال لبطلميوس الأول مزين بالأحجار. صعد كاي على السلالم اللانهائية حتّى قابله حارس سأله عن هويّته فأجاب: «محب للقراءة وأبغي الاطلاع». مسح الحارس هيئته

ثم ضيّق عينيه: «المكتبة لا تستقبل المشرّدين». رجاه ألا يسرع في الحكم عليه وأسرّ له بأنه حافظ لمتون الأقدمين فأجابه: «لا ينال شرف الدخول إلا عالم أو متبرع بكتاب. هيا ابتعد». رجع كاي خطوات قبل أن يتّخذ طريقه مبتعدا، سار محاذيًا الشاطئ متأملا مشهداً لم يعهده، المياه الخضراء وأمواجها تضرب الأحجار بهدير هزّ روحه، توقف شاردا متيبسًا قبل أن تحدثه نفسه: «أنت لم تنجُ لتستسلم أو تموت، لقد نجوت لحكمة لا يعلمها إلا راعي السماء. لا تخذل معلّمك الأكبر، لا تخذل الرسول».

لا يعرف كم من الوقت مرّ قبل أن ينسحب راجعًا. في طريقه مرّ بالترسانة الحربية ثم الميناء الغربي المزدحم. تأمل حركة الشيالين في الإفراغ والتحميل قبل أن تلتقط عيناه ربّانا فوق سفينته، يخرج إضمامات برديات من صندوق كبير ويرص بعضها فوق بعض. لم يتخذ التفكير منه لحظات، نزل درجًا أوصله إلى رصيف السفن. في غفلة من رئيس العمال اندمج في تفريغ جوالات من باطن المركب قبل أن يصعد سلّمًا أوصله إلى سطح المركب. تصنّع الانشغال بتنظيف السّطح حتى ابتعد الربّان عن البرديات. التقط إضمامة مربوطة بحزام جلدي سميك واتجه للسلّم فلمح زي ربّان معلّق في باب الغرفة. لفّه حول إضمامة البرديات وانتعل حذاءً ثم قفز السلّم. دسّ سرقته في جوال وخرج وسط الشيالين. ابتعد حتى اطمأن فسلت إضمامة البرديات المخفية واختفى.

في اليوم التالي اتجه كربّان سفينة إلى مكتبة الإسكندرية. التمس بابًا وقف عليه حارس غير حارس أمس. أشار للبرديّات قائلًا:

.جئت لأسلم هذا الكتاب نيابة عن صاحبه

نظر الحارس في وجهه ثم أفسح الطريق فعبر كاي البوابة إلى بهو أعمدة مستدير مليء بالحركة، طلبة يمشون خلف معلميهم وموظفون يشرفون على النظام. اقترب من أحدهم فسأله أين يطّلع على الكتب للقراءة فأشار إلى مبنى يقع بعد حديقة واسعة. نزل إلى طريق مبلّط مشى فيه. كل عشرين ذراعًا يرى معلّمًا يجلس على حجر وأمامه عدد من التلاميذ في نصف دائرة يتلقون العلوم المختلفة. قبل أن يمرّ بأقفاص ضخمة تحوي حيوانات وطيورا لم ير لها مثيلا في حياته. ثم وصل إلى مبنى الكتب. دلف من الباب إلى بهو دائري مرفوع سقفه بأعمدة زيّنتها تيجان ملونة. يفضي إلى ثماني قاعات ضخمة. حيطانها مكسوة بخزانات خشبية تصل للسقف ولكل منها مصراعان. تحوي برديات ملفوفة

ومُرقّمة بنظام دقيق، اقترب منه موظف:

- أستطيع أن أساعدك.

- معي إضمامة برديات لكتاب أوصى صاحبه بإيداعه رفوف المكتبة.

قالها كاي ووضع البرديات بين يدي الموظف الذي تأمل عنوانها ثم أردف:

- سأسجّل بياناتها وستعرض على سيدي «ديميتريوس فاليروس» أمين المكتبة، إن وافق عليها، ولا أعدك، ستوضع في الرفوف.

- لا بأس، أود أن أعرف نظام الاطلاع.

- يُمكنك طلب اسم كتاب بعينه أو موضوع تبحث فيه فأساعدك.

- ماذا إن كُنت أملك رقمًا؟

- رقم الرف سيختصر وقتك.

- ثلاثمائة وخمسة وسبعون.

التقط الموظف لوحًا دُوِّنت فيه بيانات الرفوف، نظر فيه للحظات ثم رفع رأسه بابتسامة:

- اتبعني.

في القاعة الثالثة مشى الموظف بعينيه على الخزانات المُرقّمة، حتّى وصل أمام واحدة فوقها لوحة نحاسية نُقش عليها الرقم، وضع سلّمًا صغيرًا وفحص أرقام البرديات ثم التفت لكاي الذي وقف مُترقبًا:

- هُناك من استعار تلك البرديات، دعني أراجع الألواح.

أسرعت عيناه على الألواح حتّى استقرّتا:

- البرديات التي سألت عنها استعارها رئيس الخاصة الملكية.

انقبض قلب كاي:

- مُردخاي!

- نعم، رجل واسع الاطلاع، للأسف لا أملك ميعاد استرجاع. هل أستطيع مُساعدتك بشيء آخر؟

تمالك كاي نفسه:

- أشكرك، سأتجول في الأروقة لعلّي أجد ما يُفيدني.

- هناك قاعات مفروشة بالأبسطة والوسائد الفارسية، ستجد راحتك هناك.

ابتعد الموظف فزفر كاي ألمًا، نظر إلى السماء من خلال زجاج السقف الملون قبل أن يستدرك الموظف:

- سيدي انتظر، ما عنوان البردية التي كانت في الكوّة؟

رفع الموظف ألواحه قبل أن يُجيب:

- إضمامة برديات كتاب «أبيقور» عن السعادة.

قالها قبل أن تلتقط أذناه جلبة وهمهمات فاستأذنه بابتسامة ودودة ورحل. تطلّب الأمر من كاي لحظات ليستوعب المُستنقع الذي ظن أنه خرج منه. الطحالب التي التفّت حول ساقيه والتمساح الذي فغر فاه واقترب «إن كان مُعلمي قد ترك خيطًا قبل أن يرحل فقد انقطع. سينزل جسده إلى القبر ومعه سرّه. وخذلان سأراه في عينيه حين يزور أحلامي. لكن! أبيقور! لماذا كتب المُعلّم إشارة لبرديات أبيقور عن السعادة لحظة خُروج روحه؟ ولماذا يخفيها؟ أكان يعني ما كتب؟ سكرات الموت أذهبت عقله أم أن الظلام أعماني فلم أقرأ جيدًا؟ أم أن الأرقام...؟

مكتوبة كما نكتب أرقامنا تحت الجبيتين، لا بطريقة الإغريق. من اليمين لليسار

رفع كاي عينيه للوحة نحاسية تعلو باب القاعة، مكتوب فوقها القاعة الثالثة. مر بعينيه على أرقام الخزانات فوجدها تبدأ بترقيم ثلاثمائة. علت الجلبة فتحرك مُبتعداً إلى القاعة الرابعة ثم دلف إلى الخامسة بعينين تمسحان أرقام الخزانات في الحيطان، حتى وقعت عيناه على خزانة تحمل مقلوب الأرقام؛ خمسمائة وثلاث وسبعون. وضع السلّم وصعد، ارتفعت الجلبة مقتربة. فتح مصراعي الخزانة حين التقط وقع أقدام تركض، ثم سمع صوتًا يعرفه يصرخ في الحرس: «حاصروه، أريده حيًا». سقط قلب كاي بين قدميه. إنه مردخاي! التقط إضمامة البرديات قبل أن يدخل حارس من الباب رافعًا خنجرًا متحفزًا: «لا تتحرك». صرخ بها فركض كاي بأقصى سرعته. خرج إلى القاعة السادسة ثم السابعة والحرّاس يزدادون صراخًا وحصارًا. ألقيت عليه الخناجر قبل أن يدخل إلى القاعة الأخيرة ليجد رئيس القصر في انتظاره بين حارسين:

- توقّف ولن يمسّك سوء.

اندفع الحرّاس من ورائه محاصرين فلوّح كاي بسكينه في توتر:

- لم أقتل الكاهن الأعظم.

- كاي، أنت في الإسكندرية، تحمل سكينًا في وجه رئيس القصر، ساعد نفسك، أعطني البرديات ودعنا نتحدث.

- أي حديث بعد أن طعنتني وألقيتني في مستنقع؟

- نائب الكاهن أكد ارتكابك الجريمة.

ضرب الذهول وجهه:

- لماذا يفعل ذلك؟

- أعطني البرديات وأعدك أن نذهب إلى المعبد فنعيد البحث عن القاتل الحقيقي.

نظر كاي في عيني مردخاي. قرأ الغدر فانطلق فجأة نحو أحد الحراس. تحفّز الأخير في رعب قبل أن يحتضنه كاي ليقفز

في أسلحتهم الثقيلة وكاي أمامهم بجسد خفيف يحتضن إضمامة البرديات ويطلق ساقيه فوق العُشب حتى التحم بالأشجار فدخلوا خلفه.

كان على مردخاي أن ينتظر ساعة قبل أن يعود حارس من الثلاثة ليقص عليه ما جرى ومن ورائه رئيس الشرطة ومساعدوه:

. انطلقنا وراءه حتى قفز سور المكتبة، اتجه إلى الميناء الغربي ثم جنوبًا إلى سوق الأجورا قبل أن يذوب في زحام الباعة، لكن أحد المواطنين تعرفه، قال إنه مشرد يعيش في ملجأ خلف السوق، اتجهنا إلى هناك فأكد المشرف أنه يأوي شخصًا بتلك الأوصاف منذ أيام، فتشنا الملجأ ولم نجده فتركت زميليّ هناك وجئت لأبلغك سيدي.

سحب مردخاي نفسًا إلى صدره ثم حكّ ذقنه قبل أن يومئ إلى رئيس الشرطة بإشارة، خرج وراءه، مشيا في صمت عبر القاعات قبل أن يضع مردخاي يده على كتفه:

. لا أخفيك سرًا، لو علم الملك بما حدث فسيكون غضبه عظيمًا، إن الذي اقتحم المكتبة هو كاهن سمنود الذي ذبح الكاهن الأعظم.

اضطربت معالم رئيس الشرطة:

. ألم يقتله حراسك في المستنقع؟

. كهنة إيجيبت لهم في السحر باع قديم، يبدو أنه نجا بطريقة ما، لا تنس أنه من تلاميذ مانيتون قبل أن ينقلب عليه، كما أنه قاصّ أثر يجيد إخفاء خطواته.

. سأزيد عدد رجالي في الموانئ وعند بوابات المدينة، لن يستطيع الخروج برًا أو بحرًا ولن يطيق الحصار.

. أخشى أن يخفيه أهل راقودة بينهم، الجيبتيون شعب يقدّس رجال الإله ويجلونهم، سيحيك لهم قصة يبدو فيها مظلومًا، وسيبهرهم بسحر يتقنونه في المعابد.

. أريده حيًا. أمَّا البرديات التي بحوزته فالملك حريص عليها أشد الحرص.

. كل اليقظة والتدبير يا سيدي.

قالها رئيس الشرطة ثم انسحب تاركًا مُردخاي في القاعة الخامسة أمام خزانة فوقها لوحة نحاسية تحمل رقمًا مقلوبًا، قرأها من اليمين لليسار، مثل الچيبتيين، بضروس تطحن نفسها، قبل أن ينسحب بغضب.

☥

☥

☥

حين هدأت أنفاسه وعادت ضربات القلب لإيقاعها التقليدي كفّ عن الالتفات وراءه اتقاء لحَرس رئيس القصر. طوى البرديات بحرص ودسّها في ردائه مَسرعًا خَطاه دُون وجهة يقصدها. هائم على وجهه مُضطرب النّفس يتلفّت ذُعرًا مع نداء بائع أو طقطقة حوافر خيل على الأرض. ارتوى لساعات لم يَحصها في ظل معبد. تناول سمكة أسكتت معدته ولم يجرؤ على النظر في البرديات من وخز نظرات الكهنة إليه. رتّل متون الاستغاثة بصوت خفيض حتى انحسرت الشّمس فاستأنف طريقه شرقًا. عبر حيّ دلتا وتوغّل في أزقّة إيبوسيس. حيّ محمي بقانون سَنّ لمنع الشباب من إغواء الزّوجات المهملات بعدما تفشّى حب الغلمان في قلوب الرجال. تتناثر البغايا من كل الألوان فيه. يفترشن عتبات معلّقًا على أبوابها منحوتات لأعضاء ذكورة مصبوغة بالأحمر. حاسرات الصدور والأوراك يُغنين رزقًا بنداءات معسولة تأسر الرجال بسحر حوريات البحر. يُطلقون عليهن فتيات «الدكترياديس». ماجنات مائعات يُجدن الرّقص المثير والمعاشرة. يخدمن البحّارة المقيمين مؤقتًا في موانئ المدينة. تعلوهن بدرجة فئة تسمّى «الأولترايدس». عازفات الناي. فتيات رقيقات مُعطّرات يحضرن الاحتفالات الخاصة عاريات أو متدثرات بالديافانوس الشفاف. يعزفن ويُغنين بصوت يسلب العقول ويلهون بالنيران في وُجوه الضيوف الذين أثقلهم النبيذ. يتسابقن على أفضل عجيزة وأجمل استدارة صدر حتى يفقد الحاضرون رزانتهم ويأخذوا في القفز على الأرائك وراءهن كالأطفال. ثم يُعقد المزاد. مزاد على أسعار الفتيات في الليلة، أو شرائهن لاتخاذهن محظيات، لسنوات تمتد أو تقصر. حسب قدرة الفتاة على الاحتفاظ برقبة سيدها، بين ساقيها.

ثم تأتي طبقة «هتيرا»، أو المضيفات، وهنَّ غاية تصبو إليها كل فتاة مسحت ببطنها حانات إليوسيس، نساء على قدر من الذكاء والنفوذ والجمال مما يعطيهن الحق في فتح منازل خاصة لعشاق يختارونهن بعناية ليعاشروهن باختيارهن، يُهيمنَّ على المسارح والنوادي الخاصة، ويدرن سهرات شباب الجمنازيوم وأدباء المكتبة ورجال القصر والحاشية، على رأسهم الملك الذي اتخذ من بينهن «بليستيش» محظيّته المفضّلة.

في أزقة إليوسيس أجواء مسحورة وحكايات لا حدود لشططها، روائح مختلطة وأبدان ملونة تتزاحم كمخلوقات المستنقع، مع فارق كبير، إليوسيس أشد خطرًا من المستنقعات.

على قلوب الرجال!

حين انسدل الليل بدأ كاي البحث عن مأوى، غريب يخفي رداؤه قلبًا منهكًا وبرديات ملطخة بدماء كاهن، استدعى مظهره الرث ضحكات النسوة والمخنثين، استبعد معبدًا يحوم رجال الشرطة من حوله، وملجأ مكتظًا بأعين لقطاء دون حوار، حتى اقترب من ناصية وقفت عليها سيدة لها ثديان كريمان وشعر أحمر هائم، تأملت مظهره فابتسمت نصف ابتسامة ثم حركت لسانها غنجًا فاقترب:

- هلا تدلينني على مبيت ليلتي؟

- دعني أذيقك مضاجعة لن تنساها.

- أبحث عن فتاة بعينها.

- أستطيع أن أكون لك خيرًا منها.

- لا، أنا...

مطّت شفتيها:

- مم، عاشق يعاني حرقة الهوى؟

- بل قريب لها، قادم من سفر.

- ما اسمها؟

- ناديا.

بصقت المرأة شيئاً كانت تمضغه ثم أردفت:

- جواري إليوسيس تشبه متاهة الحديقة الملكيّة.

ثم أشارت إلى الوادي المحفور بين ثدييها وابتسمت:

- لكنني أحفظها هنا. ما كنيتها؟ فكل فتاة تترك اسمها على عتبات إليوسيس قبل أن تدخل.

- ناديا، بنت عزيز.

امتقع وجه السيّدة وغاب الغنج في صوتها:

- حانة «نيلوس» بجانب الحمّام الكبير.

شكرها كاي وابتعد حين صاحت مُسمِعة فالتفت:

- احترس من الكلب أيها الوسيم.

بلغ كاي الحانة فمرّ بين خيول وحمير مربوطة. دلف مُستطلعاً. شاهد نسوة يرقصن ورجالاً. سُقاة يطوفون بكئوس النبيذ والعنب يسكبون الجنون في الحلوق، وفتيات في ركن يعزفن الناي بحرقة تميل الحيطان. اقترب كاي من السّاقي العجوز:

- ألتمس مبيت ليلة أعمل بأجرها. أجيد التنظيف.

نظر إليه الساقي بلا تعبير:

. ليس لديّ مكان شاغر. اغسل الكئوس واقض ليلتك على مقعد.

. أتعرف فتاة تدعى ناديا؟ ناديا عزيز.

نظر إليه الساقي بلا تعبير:

. أنت غريب عن إليوسيس أليس كذلك؟

أجاب كاي بعد تردد:

. نعم.

. هل هي أخت لك؟

. لا. إنها..

قاطعه الساقي:

. إذن انس أمرها ولا تذكر اسمها هنا. دلو الغسيل وراء براميل النبيذ. نظف الكئوس واقض ليلتك في سلام.

قالها الساقي وانشغل مع روّاد الحانة فدسّ كاي البرديات بين براميل النبيذ والجعة والتقط الكئوس. دسّها في الدلو مُستدعيًا لحظات كان يغسل فيها كئوس وأواني قدس الأقداس في مياه البُحيرة المقدّسة خلف المعبد. لا يُصدّق أن كاهن الأمس يختبئ اليوم في حيٍّ عاهرات لينجو بفعلة لم يقترفها. احتقن أنفه وتهدّجت أنفاسه قبل أن يدخل الحانة شاب غزير الشَعر قوي البنية مكتحل العينين. يقبض بيده على عُنق كلب مولوسي ضخم. حيّاه الرِّجال وتهامست الفتيات. أمر كلبه المُزمجر بالجلوس فخضع في ركن ثم توسّط الحانة مُستعرضًا قوّة ذراعه في الربت على أكتاف أصدقائه. لحظات وتصاعد صوت الناي. حزين كنُواح في بئر. اتسعت الدائرة وسكنت الحركة. أغمض الشاب عينيه تاركًا الموسيقى تنساب إلى رأسه. ثم صاح صيحة كالعواء. فلمس الساقي سؤالًا في قلب كاي. أجابه:

. هذا آرام. تاجر الكِلاب المُولوسية. يقولون إن مرآة الفنار ستسقط في البحر إذا خرجت من إليوسيس فتاة لم يطأها

ذلك الفتى، وهو بالمناسبة عشيق ناديا.

التفت كاي للفتى الذي صاح نشوة ثم رجع للساقي:

. عشيقها؟ أهي عاهرة من عاهرات إليوسيس؟

. بل عازفة ناي، وراقصة، وطأت أرض إليوسيس صغيرة وتنقلت بين عشيقين أنضجا ثمرها، ثم شاهدها آرام ترقص، وله بها وذهب عقله، اشتراها من سيدة يهودية باعتها لتسديد دين عليها، باع نصف كلابه ومقبرته حتى يظفر بها، مزّق من أجلها رجالًا وخاض معارك حتى خلصت له وعرف سكان إليوسيس أنها نصفه الآخر.

ابتلع كاي ريقه وهو يتابعه ثم سأل:

. وأين هي، ناديا؟

. ها هي، تعزف الناي.

نظر كاي إلى حيث أومأ الساقي فرآها، تجلس إلى كرسي قصير في رداء عسلي شفاف كشف عن فخذين قويتين، لم يتبيّن ملامحها المخفية بين الخصلات المموجة الثائرة حول رأسها، خصلات تخيف الليل من سوادها، وضع الكئوس المتسخة ومسح يديه المبللتين في طرف ردائه واقترب، تابع أصابعها المنمقة تتراقص على فتحات الناي، تصدر نغمة ساحرة تتوغل في الروح، على ضوء السراج المرتعش تمشّت عيناه على جلدها الخمري وزغب الذهب الذي يجري عليه، اقترب خطوات حتى وضحت ملامحها، فم واسع يفترّ عن أسنان بيضاء، وشقان غائران في وجنتين عاليتين أضفيا عليها سحرًا لم يخف شجنًا، رموشها طويلة ظللت روّاد الحانة، وعيناها شديدتا السواد، التقت بعينيه للحظة أرجعته للوراء خطوة فاصطدم بالساقي:

. إن لم تكن لك بها حاجة فابتعد، فعاشقها كلب لا يُستأنس.

ثم قامت ناديا، رفعت ذراعيها وضمت أناملها الرقيقة وبدأت ترقص، وقف كاي على أطراف أصابعه ليتابعها من بين الرءوس، أغمضت عينيها وضمت شفتين تنزه من شقهما، رفعت ساقيها المتناسقتين، نضح منها عرق زادها لمعة،

تهافت شعرها في توحش حولها، تمايلت حتى دارت رءوس الحاضرين في نشوة، رقصت على قلوبهم وصدورهم قبل أن تنتهي وقد قتلت العشرات. جاهد كاي في إغلاق فمه وتصارعت الحناجر في الثناء عليها والعيون في نهشها. ثم اقترب آرام، التقط يدها فقبلها ثم اتخذا ركنًا فأجلسها على ساقيه رامقًا البحارة بنظرة أرجعتهم إلى كراسيهم، طلب كأس نبيذ وداعب عنق كلبه. تابع كاي «ناديا» تلتقط أنفاسها، تُرخي ذراعيها بجانبها وشعرها فوق وجهها، مسح العشيق عرقها ولعقه. ابتسمت فقبّل كتفها. انتظر كاي حتى هدأت أنفاسهما فاقترب بابتسامة ودودة كان يستقبل بها زوار المعبد يومًا:

. أحمل رسالة.

رمقه آرام بلا تعبير.

. رسالة؟ ممن؟

. رسالة للسيِّدة.

رفعت ناديا عينيها إليه في فضول، فيما احتقن وجه آرام فأزاح ناديا من فوق ساقيه برفق وقام مقتربًا من كاي:

. رسالة للسيِّدة هي رسالة لي.

اضطربت ملامح كاي:

. من الأفضل أن نتحدث بعيدًا عن الأعين.

خارج الحانة كان الليل قد تمكّن، حمل الهواء أصداء الموسيقى من كل اتجاه وتناثرت العاهرات بين المارة يُنافسن باعة السمك والحلوى الجائلين في ترويج بضاعتهن. خرج كاي بشعر مُتلبّد وقلب غائر في صدره، زمجر الكلب فرجع خطوتين وشدّد آرام قبضته على جنزير العنق، أما ناديا فوقفت خلف عاشقها الذي مسح كاي بعينيه:

- هيًا، تحدّث.

- أحمل رسالة من والد ناديا.

خفق قلب ناديا:

- ماذا تقول؟

- قابلتُ أباك، الطبيب عزيز. أرادك أن تعرفي أنه على قيد الحياة.

زمجر آرام:

- لتتحدث معي أنا، أين وجدته؟

يعيش في المستنقعات.

ذهلت ناديا:

- يا إلهي.

- ويطلب منك أن تتهيئي للقائه خارج الإسكندرية.

قبض آرام على تلابيب كاي:

- لولا هيأتك الرثة لتركت كلبي سيربيروس ينهشك، أي تخاريف تحكي أيها الأبرص؟

أمسكت ناديا برسغ آرام تستمهله:

- انتظر، ثم نظرت لكاي:

- صف وجه أبي.

- نحيل، له لونك، حكى لي عن عشقك للرقص منذ ولدت وعزفك الناي، وعن مرض شديد ألمّ بك وكاد يُهلكك وأنت صغيرة، وعن والدتك التي هجرت البيت وراء رجل آخر.

التفتت ناديا إلى آرام:

- إنه يتحدّث عن أبي.

أقلت كاي بعد لحظات طالت والتفت لناديا:

- أبوك القاتل؟ أبوك الذي تركك صغيرة حتى باعتك امرأة المُرابي لتسديد ديونه؟

ترقرقت عينا ناديا بهدوء فأكمل:

- تخليه عنك بعد أمك العاهرة اضطرك إلى فتح ساقيك.

خديها العالبين، تحدث كاي بصوت خفيض.

. إن أباك يتألم في مكان يعج بالتماسيح، أيامه الباقية قليلة، ولقاؤك هو كل ما تبقى له من أمل.

التفت إليه آرام.

. قد أبلغت رسالتك أيها الأشعث، الآن اغرب عن وجهنا.

انسحب كاي في هدوء، بصرته ناديا حتى دخل الحانة قبل أن يسحبها آرام مع كلبه ويبتعدا.

☥

☥

☥

نفس الليلة

حي دلتا، الإسكندرية.

رائحة لحم العترة ملأت هواء الباحة الخلفية للبيت الكبير، محملة بنكهات الفلفل والثوم وقطع البندورة المقشرة،

أشعل شاءول شمعدانًا فوق المائدة ثم رصَّ الأطباق حين التقطت أذناه طرقًا بالباب. هشَّ الأفراخ والماعز بعصا ثم

اقترب وفتح ثلمة تعرَّف منها وجهًا مألوفًا ففتح

. سيدي،

دلف مُردخاي واضعًا يديه خلف ظهره مُبتسمًا في ود.

. كيف حال مُصارع الأمير؟

. حريص على ما علمتني، النهايات السعيدة لصالحه مهما بلغت قسوة القتال

. هذا هو تلميذي، أين جدتك؟

. لديها مريض، سأخبرها بحضورك.

دخل الشاب من الباب فدلف مُردخاي وراءه. يتأمل البيت الذي قضى الطفولة بين أركانه. والجدارية التي طالما أجبرته على الوقوف أمامها لساعات. جدارية مرسوم فيها سفينة خشبية ضخمة تمخر وسط الأمواج العاتية. على جوانبها فتحات خرجت منها رءوس حيوانات مختلفة. وعلى متنها وقف النبي «نوح» بلحية بيضاء طويلة. رافعًا يديه للسماء تضرعًا والمطر ينهمر. لم ينس يومًا تعبير الوجه المرسوم. فم مفتوح على صرخة خوف وأمل. دائمًا ما تساءل عن المغزى من الحدث الجليل. أن يُغرق الرّب الأرض بمن فيها حتى يقضي على حفنة من البشر! ودائمًا كان يتلقى نفس الجواب من سيّدة الدار: «حين غضب الرّب على عوام الخلق بسبب أفعالهم. قرّر أن يفنيهم كي تتطهر الأرض وتتهيأ لاستقبال نسل من أبنائه المقرّبين. نسل سيقود البشرية ويتمكّن فيها. فكان سام بن نوح ومن بعده إبراهيم وإسحاق. ثم يعقوب الذي لُقّب بإسرائيل. لترضخ الأمم لهم وتذعن». طالما كان هذا الجواب يُثير بداخله شعورين متضاربين. فخرًا بالنسب. ومسئولية فادحة أمام بني جنسه المكرّمين من بين الخلق. فمنذ أخضع بطلميوس الأول بلدته أورشليم في حربه ضد السلوقيين بعد حصار لم يطل. هاجر مُردخاي إلى الإسكندرية بين جموع الفارين. استوطن حي دلتا الذي خصّصه الملك لليهود قبل أن يشق طريقه بمعرفة الكتابة وقوة البلاغة وبمساندة أبناء عمومته الذين أرادوا أن يكون لهم مندوب دائم يمثلهم في بلاط الملك المنتصر. الملك الذي مال إليه بدوره وقرّبه ليضمن من اليهود حلفاء مدبّرين وأصحاب خبرة في إدارة الأموال وجبايتها. يقفون في صفّه أمام أبناء البلد المشاغبين. جدارًا عازلًا يقيه التعامل المباشر معهم ويوفّر عليه غضبهم المكبوت في الصدور. ليترقى مُردخاي في المكانة حتى يملك مفاتيح القصر وأسراره بعدما أثبت حنكة وأمانة. وأدار الخاصة الملكية باقتدار ظهرت آثاره.

ثم توفي الملك المحارب. ليأتي من بعده فيلادلفيوس؛ ملك ركبته شياطين الموسيقى والفن. والنساء. استقبله مُردخاي بعناية فدعم ارتخاء جسده حتى أسلم إليه مقاليد القصر وتفرغ للأمور الكبرى من صراعات خارجية وتجديد وبناء لعاصمته الأثيرة. الإسكندرية.

أفاق مُردخاي من لوحة نوح على صوت أنين واهن أتى من الغرفة الكبيرة التي خرج منها شاءول:

- جدّتي ستنتهي بعد دقائق قليلة. سأرفع اللحم من فوق النار.

قالها وخرج فاقترب مُردخاي بهدوء من الغرفة التي يصدر منها الأنين. نظر من فرجة الباب فرأى عودها المحني

وشعرها الأبيض والتجاعيد التي تفترش جلدها، واقفة أمام رجل مسن راقد، وبين أصابعها المرتعشة مبضع مسنون شقت به منذ لحظات خرّاجا في مؤخرته، ضغطت على جوانب الجرح حتّى طردت القيح، ثم تفجر الدم فلامسته بأناملها وقربتها إلى أنفها، اشتمّته وفركته ثم أخرجت برطمانا صغيرا من حزامها العريض، دسّت فيه سبّابتها وغرفت مرهما داكنا أغلقت به الجرح ثم ضمّدته وربتت على مؤخرة المريض الذي قام يمسح عرقه:

- لا تأكل الدهون حتّى آذن لك.

هزّ المسن رأسه في ألم ثم ستر مؤخرته وقبّل يد السيدة:

- ليباركك يهوه يا أمّنا.

- أرسل تحياتي لزوجتك الثرثارة.

تلك كانت «راعوث» طبيبة الحي الذي يذكر أغلب معمريه أنها لاعبتهم يوما صغارا، بيتها مفتوح لأبناء الجالية في كل وقت، عدا السبت المقدّس، تجبر الكسور وتشقّ الخراريج وتضع المراهم على التقيحات، تحكي أحداثا تجاوزت الألف عام كأنها عاشتها بالأمس، وتملك عقل رجل ناضج، ودهاء مراب عتيد.

توارى مردخاي حتّى رحل المريض ثم تابعها وهي تنظف المبضع بفصوص الليمون وتغسل يديها اليابستين في إناء قبل أن تلتقط عصاها الخشبية وتخرج بخطوات لا صوت لها من خفة العظام فيها، وقف احتراما يتأمل الظل الضئيل الذي يقترب ببطء حتى رآته:

- مردخاي.

- أمي.

- أقابلت السيد يورام؟

- رأيتك تربتين على مؤخرته.

- دماؤه مملوءة بالدهون كالخنزير.

ابتسم مردخاي والتقط يدها اليابسة ثم خرجا للباحة الخلفية، أجلسها إلى المائدة وجلس بجانبها:

- ضاق صدرك بحنينا يا مردخاي.

قبّل يدها:

- سامحيني يا أمي، إدارة أمور القصر تشبه تنظيم خليّة نحل.

- الشّجرة التي تقصر جذورها يسهل قطعها.

- لن أخيب ظنّك ما حييت.

ثم اقترب شاءول ووضع الصّحن السّاخن على المائدة وقطّع اللّحم حتّى أعفاه مردخاي من التخديم بنظرة فانسحب، انتقى جزء طريًا ليضعه في فم أمّه العجوز باسطًا راحته في حنّو تحت ذقنها المشعر، لاكتها قبل أن ترفع يدها اكتفاء حين أراد أن يزيد، ابتلعت ثم تكلمت:

- منذ أيام عرفت أن شاءول يراود فتاة يونانية، ابنة خالك رآته في السوق يداعب خصرها، كذلك بنيامين ابن سيرينا، والكثير من أبناء الحي.

- اليونانيات تجدن الغنج، ولهن بشرة ملساء شفافة.

- نهانا يهوه عن لحم الأنجاس، ذلك مذكور في الكتب التي سترتها الأتربة، لا أخشى على الأحفاد بعد موتي إلا مغبّة التيه الجديد، أن يموتوا بين يديْ خير لهم من أن يندمجوا في الأمميين.

- سيعود الأحفاد لحظائرهم وسيقرءون كتبهم، لقد بارك الملك الأسفار الخمسة الأولى وتم إيداعها المكتبة، ويجرى الآن نسخها لإرسالها مع السفن إلى أرجاء المعمورة.

- باليونانية؟

- في الترجمة فرصة لمواكبة تغيرات الزمن.

- نعم، لا يأتي كل يوم ملك يعني اسمه جده بلغتنا أرتيا.

- لأجل الزهر تسقي حشائش العليق.

- وماذا عن الكاهن؟

- انتهى أمره. لكن اللعين أطلق من الجحيم سهمًا أحاول جاهدًا تفاديه.

تسلق القلق ملامحها:

- أترك أوراقًا غير قوائم أسماء ملوكهم؟

- قوائم الجيبتيكا يمكن التعامل معها، فهي أسماء وتواريخ لأسرات حاكمة يسهل الطعن فيها، لكن آخر ما كتبه كان شيئًا مختلفًا، شيئًا مخيفًا.

تنبهت حواس العجوز فجحظت عيناها رغم الضعف، أكمل مردخاي:

- الجيتانا، سيرة البلاد فيما قبل الأسرات الحاكمة، نشأة الخلق وتكوين مملكة الجيبتيين، قصة نبيهم إدريس ومتون الحكماء الأقدمين، مرورًا بقصص رسل السماء، وزمن الجنود.

- موسى؟

- ذلك الجزء الأخير مفقود من الجيتانا، كتبه بنفسه ولم يمله على أحد، ثم أودعه خزينة من خزائن المكتبة الكبيرة.

- كيف عرفت أنه كتب ما كتب؟

برديات الجيتانا بدت مبتورة الترقيم، وبين الكلمات إشارة لسفر يسمى «التصحيح»، لم أجده بعد الفحص، كما أن لي في المعبد أعينًا مترصدة أخبرتني أن مانيتون كان يسافر ليودع بعض كتاباته رفوف المكتبة.

. قل إنك عثرت على تلك البرديات.

. البرديات لم تعد في المكتبة.

امتقع وجه راعوث فأعطى مردخاي الفرصة لأنفاسها أن تنتظم:

. هناك كاهن بمعبد الأسوار السبعة، اقتحم المكتبة وسرق البرديات.

زاغت عيناها فاستطرد مطمئنًا:

. أغلقت منافذ المدينة جميعها، لن يستطيع مني هربًا.

. هل عرف الملك بأمر الجزء المفقود من تلك الجبتانا؟

. لا تصل بردية إلى يد الملك قبل أن تمر بين يدي.

. أهل البلاد إذا امتلكوا نسخًا من أحفاد مانيتون فسيتداولونها وسينشرونها كالنار في الهشيم.

. من يتقن القراءة منهم قليلون، والخط هيراطيقي، ولن يعبئوا بحكايات بائدة عن نبي لا يعرفونه؟

تحاملت العجوز وقامت، مد يده إليها مساعدة فأعفته، اقتربت من ماعز صغير يرقد في ضعف، فحصته بحثًا عن علته:

. الكهنة يحملون لنا من الكراهية أضعاف أهل ذلك البلد.

. سأدرك الفأر ولو في القبر.

. آه، ها هي..

وجدت العجوز شوكة صغيرة في القائمة الخلفية للماعز فأخرجتها بأظافرها ثم دفعته فقام، أردفت:

. إذا عرف ذلك الكاهن القراءة والكتابة، واقتحم المكتبة، فليس بكاهن عادي.

- حرّاسي يسعون خلفه في...

قاطعته:

- كما لم يكن مانيتون كاهنًا عاديًا. لم أرَ في حياتي المديدة من هو أكثر جرأة. لن أنسى يوم قرع هذا الباب ووقف أمامي بكل تكبّر يصرخ بأنني أحمل روح «ست» في جوفي، وأنني ألفت سمومي في بلده المزعوم. أوشك شاءول أن يطعنه لولا وجود شهود من أهل البلد. منذ تلك اللحظة وأنا أعلم أن ثعبان المعبد يريد أن يستبق ضربة يُجهض بها تاريخنا وملاحمنا التي تكبدنا العرق والدم من أجل تدوينها.

- ما أمره إلا كناسة عهد ولّى.

- لينبش قبره ويدنّس جسده ولينكح امرأته حمارٌ من بعده.

هز رأسه مؤمِّنًا ثم دس الشوكة في اللحم وأردف:

- ستدفن أفكاره في إناء أمعائه. هيًا تناولي طعامك.

أشاحت بوجهها:

- اللحم نيء.

ابتسم مُردخاي ثم أجلسها:

- استريحي. سأذهب لأخبر شاءول.

في المطبخ انهمك شاءول في تنظيف الأواني حين دلف مردخاي. التفت فمسح يديه في ملابسه تجفيفًا وأحنى رأسه احترامًا.

- اللحم نيء. كان بحاجة لدقائق إضافية فوق النار يا ابن شقيقتي.

. اغفر لي يا سيدي، سأشوي قطعة أخرى.

خرج مُردخاي فرجع الفتى لأوانيه، لحظات واندفع ناحيته كسهم فارق قوسه، كمّم فم شاءول بيساره ورشق الشّوكة في يمينه، صرخ الفتى فجثم مُردخاي فوق ظهره بعدما أسقطه أرضا، اقترب من أذنه وهمس:

. أتعلم يا شاءول، لحم الكهنة لا يختلف عن لحم الماعز، يحتاج وقتا كافيا لكي ينضج.

من بين الأصابع حاول شاءول أن يصرخ، أردف مُردخاي:

. تترك ذبيحًا يخط بدمائه الكلمات على الأرض كطفل يلهو، ثم تأتيني ببرديات ناقصة؟ الآن عليّ مطاردة فأر نجح في قراءة ما كتبه الكاهن ولم تلاحظه، أي إخفاق أرى في حفيد سيّدة الحيّ! اصطفيتك على شباب الإسكندرية لتصارع الملك القادم، أردت أن يكون لك شأن يا أحمق، لو علمت جدتك بتقصيرك لقتلتك بيديها، الزم البيت ولا تتحدث لمخلوق حتى أقرر أمرك.

قالها مُردخاي ثم أدار الشّوكة بين العظام.

☥

☥

☥

قُرب الفجر هَدأ الصّخب في حانة بيلوس، ترنّح البحّارة مُغادرين وتلاشت الفتيات بعد أن تركن وراءهن عرقًا وعُطورًا وبقايا ضحكات، لملم السّاقي كئوسه ليضعها أمام خاي. غسلها بهمّة ثم انزوى في ركن، استلقى للحظات حتى سكنت أطرافه وانتظمت ضربات قلبه. أشعل شَمعة ثم سحب البرديات من وراء البرميل وفضّها، تعرّف خط سيّده مع أول كلمة، له صفة مميزة في ليّ أطراف الحَروف كأنها ذيول القردة. استخدم عودًا رفيعًا من الغاب وحبرًا أسود. «سِفر التصحيح» ذلك كان العنوان، مكتوب بالهيراطيقية، وليس باليونانية كبقية الجِبتانا. اللغة الكهنوتية القديمة التي لا يحفظها إلا كَتبة المَعبد ويتوارثونها، آخر ما تبقّى من العُهود البائدة.

ابتلع خاي ريقه وقرّب الشّمعة حتّى لمع الحِبر في الصّفحة قبل أن يبدأ في فك الخط:

«عشت أنا مانيتون في مَعبد سمنود ذي الأسوار السبعة. تعلّمت وعلّمت وأتقنت لغات كثيرة. صرت كاهنًا أكبر وأنا ابن ثمان وعشرين، ولم أذق سمكًا في حياتي ولا لحم خِنزير. تعلّمت وعلّمت في معابد الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها. أتقنت الخطوط الجِبتية، كما أتقنت الإغريقية والفينيقية والآرامية والعِبرية. وطوّفت على معابد الإغريق والأدوميين، ومعابد فينيقيا وبيلوس وهاران. اطّلعت على كتابات وألواح الكثير من الشعوب وعلى كافة المتون التي أرسلها الإله فدوّنت على الأحجار المقدسة والجدران والبرديات.

هاأنذا أعيش أيامي الأخيرة ما بين الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها ومعبدها، وبين سمنود ومعبدها الهادئ:

ذي الأسوار السبعة، أكتب الچبتانا ملتزمًا بتوجيهات إدريس الذي أتاني في رؤيا وأمرني بتسجيل أسفار التكوين والخلق الچيبتية من قبل توحيد المملكة.

أنا مانيتون أقر بأن الچبتانا هي التاريخ الحقيقي للسلالة الچيبتية، كما أقر أن ذلك السفر الذي أسميته بـ «التصحيح» ربما يكون آخر الأسفار التي سأكتبها، وأشدها خطرًا على حياتي»

سرت رعدة في جلد كاي ونشع العرق في جبينه فاعتدل، لقد تنبأ الكاهن الأعظم بنهاية حياته! قام من مكانه وتفقد الحانة، وجدها نائمة فعاد إلى الركن مكملًا القراءة على ضوء الشمعة.

«اليوم أدركت أفول نجم إيجيبت، إلى وقت غير معلوم، فقد ظللت روح «ست» الشريرة عرش الملك، متمثلة في جسد مردخاي اليهودي؛ رئيس الخاصة الملكية، استطاع سليل الأفاعي بدهائه ودعم شيوخ حي «دلتا» إقناع الملك بترجمة أسفار التوراة من العبرية إلى اليونانية. التوراة التي تناولت تاريخنا نحن الچيبتيين بالتمزيق والتشويه المتعمد، بغرض تحميل إيجيبت ذنبًا شنيعًا لم تقترفه، ناشرين المرض في أرضنا ليهلكوا ما تبقى من مجدنا فتسقط بأحقادهم أعمدتنا العتيقة وتطمس آثارنا تحت الرمال، لذا، وبعد أن تلقيت إنذارًا بالقتل في رسالة مليئة بعظام الفئران، قررت أن أكتب الحقيقة لأفند الإفك الذي سينتشر من بعد تلك الترجمة، معتمدًا على البردية التي عثرت عليها بمعبد الملك «أحمس»، المنسوخة من البردية الأصلية التي دفنت في مقبرة الملك الصغير بالوادي الغربي، عن حقيقة الأرض التي أرست قواعد الحياة وأقامت دعائمها، الأرض التي صارت جسدًا بلا روح، معبدًا كبيرًا بلا إله، مرتعًا لحشود أسرى من الرعاة الشرقيين لا ملة لهم إلا نسخ الأمم ونهب أفكارها، أتوا إلينا في ذلة ومسكنة، حاملين على ظهورهم ذكرى بطش مزعوم في بابل، وحكايات ملفقة جمعوها من أساطير الأمم البائدة التي توغلوا في أرضها. تلونوا بألوان الناس فيها حتى تمكنوا، ثم انغرسوا في الجسد المنهك كدود المستنقعات، امتصوا الذهب والعقول واصطبغوا بهيئة من أواهم ليكرسوا لفكرة ملعونة تهدم العقول وتخل بكفتي ميزان العدالة في سماء الراعي، فكرة استولوا فيها على بركات السماء دون غيرهم، فكرة تقول إنهم «شعب الإله المختار» وإن من دونهم أغيار، لا روح فيهم، ولا حياة يستحقونها، إلا عبيدًا في أراضيهم وتابعين.

لقد اطّلعت على كتب أخبارهم الخمسة في معبد لهم بسورية، ثم علمت بنيّة ترجمتها إلى اليونانية السائدة، وإني لأشهد الجيبتيين. إذا كتب لسفري هذا أن يظهر إلى حيز الوجود. أن بني إسرائيل قرزوا سير رسل السماء الأقدمين واستحوذوا على نسل آدم، أول من ملك اللغة من سلالة البشر. ثم نسل نوح، استأثروا به واستبعدوا كل من عداهم من البشر. سفّهوا أصولهم ولطخوا سيرتهم واستولوا على بركة إلههم المزعوم يهوه الذي ادعوا أنه أغرق الأرض كلها في حين لم يطل الغرق سوى قوم نوح، فكيف يُغرق الراعي الأرض بمن عليها من أجل حفنة من العصاة؟ وما ذنب الذين لم تأتهم الرسالة؟ وما ذنب الجيبتيين الذين اتبعوا إدريس؟ لم لم يغرقوا وتغرق أرضهم ومعابدهم القائمة؟ وكيف لمركب ما صُنع قبلها مركب، أن يحمل دواب الأرض كافة؟

ولم يكتفوا بذلك، بل استأثروا بنسل «سام» من بين أبناء نوح وادعوا نسبه، ولعنوا أخاه «حام»، واستعبدوا سلالته فأورثوها الخزي والعار. وسوّد ربهم يهوه بشرة بعضهم وهم ساكنو جنوب الأرض المعمورة ليسهل استعبادهم وتسخيرهم دون ندم. ثم استبعدوا إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم وهاجر، طمسوا ذكره رغم بكوريته ومجّدوا اسم أخيه إسحاق، ثم باركوا ابنه يعقوب الذي دعوه زورًا في قصصهم بإسرائيل لينسبوا أنفسهم إلى نسل رسل السماء.

إن التوراة لم يكتبها نبيهم موسى، إنما كتبها «عزرا» حاخام عاش بعد موسى بثمانمائة عام، كتبها أثناء غزو البابليين الذي اجتاح المشرق قبل أن يحررهم الملك الفارسي «قورش الأكبر». روى خلالها أخبار الأمم البائدة فأسهب في الحكي عن ممالك صغيرة لم يعد لها وجود، أو لم توجد من الأصل، بينما أتت أخباره ضحلة ضئيلة حين حكى عن بلد عريق مثل إجيبت الذي لم يدخله يومًا. فلا يسعه التفرقة بين رعمسيس وتحتمس، أو الملكة حتشبسوت وملكة سبأ، يروج الافتراءات لابتداع تاريخ مزيف عريق لقومه الهائمين بحثًا عن وطن. بألواح تحوي عبارات لا يمكن أن تصدر عن نبيهم موسى. ففي الآية السادسة من الإصحاح الرابع سفر «التثنية» يتحدث موسى عن نفسه قائلًا: «لا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا». وفي الآية العاشرة من نفس الإصحاح قال أيضًا: «ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه «يهوه» وجهًا لوجه». وفي الآية الثالثة من الإصحاح الثاني عشر من سفر «العدد» قال: «فأما الرجل موسى فكان حليمًا جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض».

إنني مانيتون السمنودي، في السنة الخامسة والثلاثين من حكم ثاني الملوك بعد الإسكندر بن فيليب، أشهد الأجيال الآتية أن اليهود قد نقلوا إلى توراتهم حكم وتعاليم المتون المقدسة التي نزلت على المعظم ثلاثا «إدريس» بإيجيبت، بعدما أنكروا أصلها ونسبوها لأنفسهم، ثم أضافوا وحذفوا منها ما شاءوا، غير مستحين الخلط بين دين الإله وبين أحقاد صدورهم، بين التاريخ الحقيقي وبين ملاحم منهوبة من الأمم البائدة، يلوون عنق الأخبار لتتماشى مع ما يقولون، ثم يتحاكونها فيما بينهم ليرفعوا من همم شعبهم بعد هزائم متلاحقة بسبب ضعف إيمانهم وخياناتهم المتتالية للأمم الحاضنة لهم وللراعي في السماء، وليغزوا إيجيبت ثانية، كما غزوها من قبل مع غزاة الشرق من الرعاة.

وقد نويت بعد تدبر وتفكير أن أسرد في سفر «التصحيح» القصة الأصلية التي لم يدونوها في توراتهم، القصة التي تشين شيوخهم وتفند قبح ماضيهم، القصة التي حفظها الملك «أحمس» في معبد أبيدوس قبل وفاته، وأمر بدفنها في مقابر الملوك من بعده، قصة رجل ولد في أرض إيجيبت المحتلة من الرعاة.

رجل اسمه موسى.

انتهت أول بردية فشخص كاي ببصره في السقف القريب، لم يكن قد زار الإسكندرية يوما، إلا أنه يعرف جيدا حظوة اليهود فيها، يعرف أنهم الثعابين تحت عرش الملك، ديدان الربى التي تمتص الذهب والفضة، ويعرف أن قتل كل نفس عداهم هو حجر في طريقهم مشروع إزالته، أو تحطيمه إذا لزم الأمر، لقد ذبح معلمه في قدس الأقداس قربانا لإلههم، ما كتبه عنهم يحوي حقيقة استلزمت أن تدفن في بئر سحيقة، الغريب أنه لم يسمع من قبل عن ذلك الرجل المدعو موسى، لم يقرأ بردية عن قصته أو رأى نقشا بجدار في معبد يحكي عنه، أما الرعاة فما هم إلا بدو غزوا إيجيبت محتلين، استقروا في الشمال لمائة سنة أو يزيد قبل أن يحاربهم الملك «أحمس» فيطردهم، لم يهتم الكاهن الأعظم بنسخ تلك القصة؟

. تعرف القراءة؟

بتر الصوت تدفق أفكاره فانتفض، ناديا كانت تقف خلف براميل النبيذ، طوى إضمامة البرديات بالحزام فاقتربت منه

. أعرف القراءة والكتابة.

ابتسمت:

. وتخشى الكلاب.

. في بلدتي نعرف لغة التماسيح، أما الكلاب الإغريقية فتتحدث لسانًا آخر.

ابتسمت:

. أتعمل في أملاك أحد الأثرياء؟

سكت لحظات قبل أن يجيب:

. بل كنت يومًا كاهنًا في معبد.

. هيئتك لا توحي بكاهن!

. غائب عن معبدي منذ وقت طويل.

. ماذا تفعل في إليوسيس؟ أرض العسل واللبن والقاذورات.

. أبحث عنك.

ضيّقت عينيها:

. كاهن يخوض أزقة إليوسيس ليبحث عن فتاة لا يعرفها؟

. عاهدت أباك أن افعل بعدما أنقذ حياتي.

. في المُستنقع؟

. إنها الحقيقة.

. لم أكن أعرف أن الكهنة يكذبون!

. أنا لا أكذب؟

. أنت هارب من شيء ما.

. ربما أبغي عزلة.

انحنت ففتحت صُنبور برميل النبيذ فتدفق السائل القاني إلى فمها. رشفت رشفة ثم تأملت البردية المدسوسة وأردفت:

. ماذا عن تلك البرديات؟

. ابتهالات للرب.

. لم تُخفيها؟

. إنها النُسخة الوحيدة المتبقية من أوراق كاهن غادر عالمنا.

تأمل وجهها في زرقة الفجر التي تسربت إلى المكان ثم استطرد:

. تشبهين أمك كثيرا.

. كيف تقول ذلك ولم تعرفها؟

. ليس في أبيك وجنتاك العاليتان وشفتاك المُمتلئتان، سمات لا تورّثها إلا أنثى لأنثى.

دار الألم في قسماتها:

كاد كاي أن يتلعثم:

.أبي كان قاصًا للأثر وعالمًا بفراسة الوجوه والأجساد، يستطيع معرفة نصف حياتك من خطوط كفّيك ومن عينيك:

.لن يسعده النظر فيها، سيرى ما لا يسرّه.

.حزن دفين!

..لا تدقق النظر فإنه معدٍ، فما اقترفته أمي لا تقترفه الخنازير.

.تركتْ أباك من أجل رجل آخر؟

.تركت أبي من أجل كل الرجال.

أغمض كاي عينيه في ألم:

.هل تنوين لقاء أبيك؟

.هل حكى لك لماذا تركني؟ وكم كان عمري؟

.لقد ارتكب فعلته من أجلك، إن عاد لكان مصيره الموت لا محالة.

.أن يموت من أجلي خير لي من أن أعيش عمري لا أعرف ما حل به. لم يفكّر فيّ لحظة.

.بل يُفكّر فيك كل لحظة.

.وبسهولة يطلب لقائي؟

.ما تبقّى من عمره يشفع له.

غمرها الصّمت للحظات:

- خروجي ليس بالأمر الهيّن.

- ليصحبك أرام إن أراد.

- لن يترك مكتبته الأثيرة في الأرض الشرقية، ولا حانات إليوسيس التي قضى فيها عمره.

- أهو يملكُك؟

- عشقي فيه ضارب للجذور، يخاف عليّ أوراق الشجر وأمواج البحر، وأعين الرجال. لولا أرام لصرت عاهرة من عاهرات الدكترياديس حتى أملك قوت يومي.

- تتكلمين عن عشقه ولم تذكري حبّك له.

- أنا أحب أرام.

- لِمَ لم يتزوّجك؟

- تقاليد صارمة؛ فاليهود لا يتزوجون الجينتيات

- لكن مضاجعتهن مباحة؟

نظرت إليه في غضب:

- أنت وقح.

- لم أقصد إساءة.

- وماذا يعرف كاهن خصيّ عن حب النساء؟

- عِشق الإله لا يقل عن عشق النساء.

إلهك لا يعرف عشقا، إلهك ظالم

ابتسم كاي

. تبدين غاضبة منه.

. سيّد فوق السحاب يتسلّى برؤية عبيده يتعذبون.

. إنه اختبار القلوب.

. ولِم لم يختبرك كما اختبرني؟

فلتت من كاي ضحكة.

. أنت لا تعرفين قصّتي، بل ولا تعرفين اسمي.

اهتزّت قدماها في عصبية.

. أنت أذكى من أن تكون كاهنا بمعبد، وأضعف من أن تفهم قسوة الحياة.

. تحملين ضغينة نحو الربّ، وتنسين أنك واحدة من أبنائه

. لست ابنة أحد، أنا ناديا، أبرع راقصة وعازفة ناي في إليوسيس، الرجال كالطيور تتساقط أمامي، وأجمل نساء الإسكندرية يحسدنني.

. وأنا كاي، كاهن بمعبد

نظرت إليه للحظات قبل أن تضيّق عينيها.

. قد أفكّر في لقاء أبي، بشرط: عليك أن تقنع آرام.

. في كل حا...

ـ ولكن...

قاطعته:

ـ تخافه؟

ـ قلبي لا يعرف الخوف إلا من الآثام.

ـ حسنًا، تستطيع ردّ جميل أبي ببعض المجهود.

سحب كاي نفسًا إلى صدره ثم هز رأسه.

ـ موافق، ولكن على شرط.

ـ ...؟

ـ أريد، برديّات، ومحبرة وبوصة للكتابة.

ـ ما تطلبه أسهل بكثير من إقناع آرام.

ـ للكهنة سحر يؤثر.

ـ حسنًا أيها المتحذلق، أمر أخير، لتحتفظ بأمر زيارتي لك سرًا، فآرام يغار من كلابه عليّ.

قالتها ثم رحلت، بغضبها وغرورها وشعرها الهائم حولها، رقد مكانه يحكّ جبهته وفروة رأسه التي لم يعتد طول الشّعر فيها، يجتر حديث ناديا وانفعالات وجهها، روح نارية مضطربة، ثائرة كعاصفة تحرق الوجه وتسلخ الصدر، مغرورة، ولها كل الحق، فعيناه لا تتذكران أنْ لفحها يومًا لون في لون جلدها، أو شفتان كشفتيها، أو قوام نحت الرّقص انحناءاته وأبدع، كقوامها.

مهلًا.

قالها لنفسه ثم ابتهل استغفاراً وهي تتمايل مبتعدة. تذكر أنه ولأول مرة لا يخفض عينيه عن جسد أنثى. ثم باغته وجه عشيقها وهو يزمجر فيه تهديداً ومن ورائه كلبه. تصارعت الشفقة والعجب مع اشمئزاز من الرضوخ والإذعان الذي يكنّه صدرها ناحية هذا العشيق الغاشم. لم يكن ينقصه الاحتكاك بمثل تلك الأرواح المضطربة لتزيد عقله تخبطاً وإرهاقاً. فتسارع الأحداث يكاد يعصف به رغم ضبط نفس مارسه لسنين أمام شموع المعبد. لأول مرة يشعر بعتمة الساعات المقبلة. بعد أن كانت أحداث أيامه تكاد تدوّن على جدران المعبد من فرط التكرار. كابوس هو التحرر من استيقاظه المبكر. السقاية. التنظيف واستقبال حاملي القرابين. الصلاة من أجلهم. ثم نسخ المتون المقدّسة حتى هبوط الليل. قبل أن يخلو بنفسه لساعة التأمل. تلك الساعة التي يلتقط فيها همس الملائكة: رع وآمون وتحوت وبتاح. ساعة يتحد فيها جسده مع الحصى تحت قدميه. وأبعد نجم تراه عيناه. ساعة لم يعد يملك ترف العودة إليها. علا صوت أفكاره حتى كاد يوقظ ساقي الحانة. فانخرط في صلاة طويلة نظم فيها أنفاسه وكنس هواجسه حتى هدأت روحه واستسلمت جفونه لإغفاءة إجبارية احتضن فيها البرديات.

☥

☥

☥

ترنّح شاطئ الإسكندرية ابتعاداً حتى تلاشت القصور البيضاء والفنار. يوم ونصف يوم في عرض البحر قبل أن تلوح «بيبلوس» في الأفق، مدينة ساحلية تناثرت فوق تلالها أشجار الأرز وعلى مياهها مراكب الصّيادين. بأمر الرّبان رفع البحّارة الأشرعة وألقوا مرساة عملاقة طمأنت السّفينة فوق المياه. في الغرفة العليا جلس مردخاي فوق أريكة مريحة بجانب النافذة، ساكناً يراقب شاطئ المدينة التي تؤمّن لإيجيبت الأخشاب لبناء السفن والمعابد، مقابل الأواني والحلي الذهبية ولفائف البردي ونسيج الكتان.

بعد دقائق برزت في الأفق سفينة تحمل شارة بطلميوس الثاني، ضربت بمجاديفها الموج حتى أصبحت على بعد أذرع فمدّ البحّارة جسراً خشبياً مرّ فوقه «إليعازر» رئيس كهنة أورشليم، رجل تخطّى العقد السابع، على رأسه شال مخطط وفي يده عصا عاجية المقبض. استقبله مردخاي بحفاوة وإجلال ثم أجلسه إلى مائدة، تناولا غداءهما قبل أن يصرف الخدم، ثم أشار مردخاي إلى خزانة خشبية كبيرة بجانب قدميه وهمس:

في هذه الخزانة عشرون تالنت من الفضّة وتالنت ونصف من الذهب، جمعتها جالية الإسكندرية.

- كل تقدير لأهلنا في حي دلتا ولابن أورشليم البار.

- سفينة المترجمين ستصل مرفأ بيبلوس غداً، تلقّى كل مترجم خمسة آلاف دراخما وهدية. أرجو أن يكون ذلك كافياً كي لا تتناثر الحكايات حول فترة إقامتهم بالإسكندرية لترجمة كتبنا. لا أخفيك خبراً فإن كرش رأوبين لا تبدو من النوع

الذي يمتلئ، أنا لا أثق في رجل نهم.

ضحك إليعازر:

- رأوبين تمساح وديع، عاشق للطعام، لكنه صموت.

ساد الصمت لحظات فاستطرد إليعازر:

- لقد وردني خبر مقتل الكاهن الچيبتي في المعبد.

- حادث مؤلم.

- كيف استقبله الچيبتيون؟

- ستكون جنازة حارة ثم ينسون أمره، الچيبتيون مشغولون باللهاث وراء حلم المواطنة بالإسكندرية؛ مدينة الأحلام.

- الچيبتيون قلوبهم سوداء، لا أظنهم سيتقبلون يومًا قربنا من العرش.

- الشيوخ فيهم ينسوا، أما شبابهم الذين لا يزورون حي العاهرات فإنهم يسعون إلى حتف محتوم بأيديهم الغشيمة.

- أتقصد... ثورة؟

ابتسم مُردخاي:

- حين تصطاد السَمك ضع الطُعم في الخُطاف واقذفه إلى المياه. دقائق وتنجذب السَمكة إلى الرائحة والحركة. تبتلع الطُعم وينغرس الخطّاف في حلقها فتستشعر مقاومة في الخيط. اجذبه برفق. تقاوم السمكة وتبتعد. اترك لها الخيط حتى تظن أنها أفلتت، ثم اجذب الخيط برفق فتعود للمُقاومة. ثم اترك الخيط. ثم اجذبه واستمسك بالمسافة. مع كل حركة مُقاومة منها ينغرس الخطاف في حلقها أكثر فأكثر. حتى تُصبح على بعد أذرع منك وقد خارت قواها. في تلك اللحظة الفارقة. تقبضها إليك.

. تترك الجيبتيين ينشدون حرية لن ينالوها.

. بل سيختنقون أنفسهم بها خنقًا. هؤلاء الرعاع لن يردعهم عنّا سوى طموح غشيم يسلبهم كل أمل. طموح يُسمّى الحرية الكاملة.

. الحرية الكاملة هي الفوضى العارمة.

. الآن فهمت.

ثم ازداد همس مُردخاي همسًا:

. مُنذ سنوات ورجال حيّ دلتا لا ينامون. يعيشون بين الجيبتيين في الحانات والشوارع كأنهم منهم. يزكون فيهم المساواة والعدالة. ويعظّمون أحلامهم في الاستقلال. مع الوقت تأجّجت بداخلهم الخصومة مع الإغريق. وما إن يستنشق الرعاع بصيص الحرية..

أردف إليعازر مُكملًا:

. حتى يمسخوها فوضى.

. سيصبحون كحيوانات مخمورة تترنح في شوارع المدينة. قبل أن تشتعل بينهم وبين إحدى الجاليات حرب.

. لكن الحرب قد تكون مع جاليتنا!

. إذا أردنا أن تكون لنا قدم في العالم الجديد فإن علينا أن نبذل الأنفس.

. والملك..؟

. لن يملك وقتها إلا التنكيل بهم كي لا تتقوض دعائم العرش. هُم في النهاية العدو بلا مراء. وهو لن يخسر يهود الإمبراطورية.

. لكن الچيبتيين ذوو بأس وعدد.

. كلاب تنبح بين قدمي فيل، سيسحقهم ولن تقوم لهم قومة بعدها. سيدخلون جحورهم في راقودة ويشكرون ربهم على ترف الحياة.

. بعدها نحصل على المواطنة الكاملة؟

. بعدها ستحكم تالنتات الذهب المقدسة في حي دلتا، وسيحكم الملك من سفينة سنكون نحن بحارتها الوحيدين، ستخضع إيچيبت، وتركع سورية، وتسجد بابل.

قام مردخاي والتقط من فوق منضدة قريبة إضمامة بردي، وضعها بين يدي اليعازر:

. تلك توراتنا الجديدة، مترجمة إلى اليونانية، احرص على نسخها ونشرها بين الأمم، ولا تلتفت لما فيها من إصلاحات، فلكل عصر قواعده، وهي السبيل إلى استمرار قدمي يهوه فوق هذه الأرض.

ابتسم الحاخام وربت على كتف مردخاي:

. كلما نظرت في عينيك رأيت وجه أبيك، لو كان على قيد الحياة لأصبح فخورًا بابنه.

. يكفيني فخرًا خدمة أبناء عمومتي.

ودع مردخاي كاهن أورشليم قبل أن يلمح شاءول ابن أخته، جالسًا القرفصاء في ركن السفينة ينظر إليه في رجاء، رمقه للحظات ثم أشار إليه أن يتبعه، في الغرفة أمره بالجلوس بعد غلق الباب، نظر إلى يده المضمدة ثم تكلم:

. كيف حال أمنا؟

. بخير حال.

صب مردخاي لنفسه كأس نبيذ، تجرعه ثم تكلم:

. منذ أيام سرق كاهن من معبد سمنود بردية من رفوف المكتبة، رئيس الشرطة أغلق منافذ الخروج من المدينة ويمسح الآن حيّ راقودة، بيتًا بيتًا، يظنها أيامًا حتى يُخطئ الفتى ويتّخذ طريقه في البر أو البحر هربًا، إلا أنني لا أعتقد ذلك، ولا أظنه سيحاول الخروج من المدينة، فالفتى قاصٌ أثر، ذو فراسة، وكاهن مقطوع للعبادة، منذور لخدمة رب لا يراه، لا أظنه سيختبئ في راقودة وسط الجيبتيين، أو يلجأ لمعبد يسكن إليه، أظنه سيتّجه شرقًا إلى حيث لن نفكر.

. إليوسيس؟

. أرض مزدحمة تنتهي بالمستنقعات، ملجأ يحلو لكل هارب ينشد الاختفاء.

. لمَ اخترتني لمُهمة أخرى بعد أن أخفقت؟

. عليك أن تنظف فوضاك في معبد الأسوار السبعة، واحذر، فصدري لا يتسع لخطأ ثانٍ، حتى وإن كنت ابن شقيقتي.

سحب شاءول نفسًا لم يُخرجه، فأردف مُردخاي بعد صمت:

. خاي اسمه، في كتفه جرح من نصل حربة، وآخر في معدته من سكينك الخائب الذي تركته في المعبد، أحضر لي البرديات، ورأسه، أمامك ثلاثة أيام، واحذر، فهو وإن كان كاهنًا لا يقوى على المصارعة، إلا أنه سريع الحركة شديد الذكاء.

هزّ شاءول رأسه في تصميم واقترشت الجدّية ملامحه فانسحب تاركًا مُردخاي يرنو ببصره إلى بحر لا نهاية له.

☥

☥

☥

«استيقظ».

سمعها كاي بصوت الكاهن الأعظم فانتفض واقفًا وسط براميل النبيذ. تلفت حوله، اتخذ دقيقة حتّى تذكّر ما الذي أتى به لذلك القبو، ودقيقة أخرى ليسترجع ما حدث في الأيام الماضية. اطمأن على البرديات في مكانها ثم قام يتفقد الحانة التي اقتحمتها الشّمس من كل اتجاه. السّاقي كان مشغولًا بمسح المناضد تحضيرًا ليوم صاخب، دون أن ينظر إلى كاي تكلم:

- يقولون إن النوم وسط براميل النبيذ يجلب أحلامًا وردية.

- اسمح لي بمساعدتك.

لم ينتظر كاي جوابًا، التقط ممسحة ودلوًا وانحنى ليمسح الأرضية. تأمله الساقي للحظات

- ما قصّتك؟

- لا قصة لي.

- أكره أصحاب الأسرار.

- رجل فقير ضاق به الحال في بلدته فجاء إلى درّة التاج يبتغي رزقا.

- الهوام تقترب من النار ظنّا منها أنها جسد الإله، حتّى تحترق.

- لا أنشد إلا الكفاف.

- فمك يتكلم كالكهنة.

ابتسم كاي في أسى:

- يا ليتني.

- كلهم يقولون ذلك في البداية، حتى تتخم بطونهم بالشراب وصدورهم بالعشق، فتنطلق الأماني ويرتفع سقف الأحلام.

- لا وقت عندي لعشق أو خمر.

- أما الخمر فهناك من الناس من لا يألفه، لكن العشق لا يستأذن في الولوج إلى الصدور، إنه يقتحمها.

- إنه لعار أن يمتلئ الصدر بشيء غير العلم.

أردف الساقي ساخرا:

- وأين ستبتغي العلم أيها الجيبتي؟

- ربما في «أون»؟

ضحك الساقي:

- أون؟ لم لا؟ طموح يُحمد بالنظر إلى هيئتك المزرية.

تمايل كاي في

. ألا أعمل عندك فتأجرني وجبتي ومبيت الليل في غرفة؟

. أوافق، إن وعدتني بتجنب فتيات الحانة؟

. أعدك باسم الإله. أين سأبيت؟

. في غرفة الحزين بالدور العلوي.

ثم ابتسم الساقي.

. لا تبدو لي من مُحبي الرجال.

. لا رجال ولا نساء.

. وماذا عن ناديا؟

. كنت أحمل رسالة لها وانتهى الأمر.

ابتسم الساقي فعقّب كاي.

. وهي ليست من النوع الذي يروق لي بأي حال من الأحوال.

. لم لا تقول له السبب الحقيقي لثقتك في وعدك؟ أيها الكاهن!

التفت كاي فوجد ناديا وراءه، اقتربت والتحدي في عينيها. وضعت دواة حبر في راحته وقلماً من البوص وأوراق بردي قبل أن تبتعد.

. انتظري.

قالها كاي فتوقفت. اقترب منها هامساً.

لم تمهله:

. أيًا كان ما تفعله احرص على ألا يعطلك عن وعدك الذي وعدتني، فالرب ورجاله هم أكثر من خذلوا ابتهالاتي.

غمزته بعينيها ثم رمته برمش اخترق صدره.

استغرق كاي في التنظيف ساعة، وساعات حتى ينسى عينيها وابتسامة السخرية في جوانب فمها. انهمك في حمل براميل النبيذ والبيرة وتحضير الفطائر الخفيفة حتى هبط المساء وبدأت الفتيات يتوافدن ألوانًا. تناثرن في الأركان واعتلت بعضهن منصّة نفخن فوقها النايات في نغمات أسرة نادت البحارة من كل صوب. اقتحموا الحانة في وفود حتى صخب المكان. انهمك كاي في الخدمة بأعين لا تواجه ولا تصطدم. نهره البعض في فورة سُكر وجازاه البعض بدراخمات معدودات دسّها في ملابسه وعيناه تترددان على باب الحانة في انتظار، متجنبًا سؤال نفسه عن سبب الترقب، وتلك السخونة التي خلّفتها ناديا في صدره. حتى خلت القاعة وهدأ الصخب فاقترب من الساقي، أخرج ما جمعه من نقود ووضعها أمامه. نظر إليه مُندهشًا:

. أنت مخبول، أو كما قالت ناديا، كاهن!

. هذا حق الحانة، وقد اتفقنا على المبيت والطعام فقط ولم نتفق على الإكراميات.

هزّ الساقي رأسه ثم سحب النقود. ابتعد كاي قبل أن يرجع:

. ألن تأتي ناديا اليوم؟

. إن لم تر آرام فلن ترى ناديا. سمعتَ أنك تعرف أباها.

. بلى، تقابلنا.

. في المستنقعات؟

نظر إليه كاي بدهشة فأردف:

. عند الساقي تنصبُ الهموم والحكايات، أتنوي أن تُتيح لناديا رؤيته؟

. هكذا وعدته.

ابتسم الساقي:

. أيها الغريب، روحك تشبه الكحول: سريعة التبخر، أنصحك بالنزول على الأرض، فآرام طفل طيب رغم المظهر، له نصف عقل، وأمه مخبولة، عقلها بين أصابع الرب، يحبسها في بيتها كي لا تتعرى أمام الناس. ليس له في الحياة إلا الكلاب وتلك الفتاة، إن بلّغت رسالتك فلتصمت، أو ترحل. فالجيبتيون لا دية لهم في تلك المدينة.

نظر إليه كاو ولم يُعقّب.

☥

☥

☥

أيتها الكتب المقدسة التي كتبتها يداي، فلتبقي محفوظة من آثار الزمن ومن عبث العابثين، ولتبقي خفية عن أعين من لا يستحقك، ولتبقي بعيدة المنال، إلى أن يأتي الوقت الذي تظهر فيه أجيال جديرة بهذا العلم.

من كلمات المعظم ثلاث مرات

«إدريس»

☥

☥

☥

في غرفة الخزين بالدور العلوي للحانة خلع كاي نعله فتدفق النبض. اغتسل من إناء ثم أشعل شمعة جثا أمامها، تأمل فتيلتها حتّى تلاشى الكون حوله، ثم رتّل متون الخلاص وسبّح بأسماء الرب السبعة والخمسين فصفا ذهنه واستقرّت عيناه ورعشة أصابعه قبل أن يستخرج الدواة والبوصة. بسط برديات مُعلمه وشرع في ترجمة ما قرأ ليلة أمس من الهيراطيقية إلى الخط الجيبتي المتداول، بدقة. إذا أراد لكلمات مُعلمه أن تصمد للزمن وللأعداء؛ فإن عليه أن يترجمها ويستنسخها بلغة مقروءة، فاللغة وعاء العلم، إن نخرتها الثقوب تساقط منها تاريخ الأمم وأحلامها. دسّ كاي البوصة في الحبر وأنهى أول صفحة من الترجمة قبل أن يبدأ في فكّ أحرف الصفحة الثانية.

«منذ ما يزيد على ألف سنة، وفي عهد الملك السابع والثلاثين من ملوك الأسرة الثالثة عشرة «توتيمايوس»، دبّت في الشّرق مجاعة كبيرة، تصحّرت الأرض بسببها ونفقت البهائم فتسلل أصحابها إلينا في جماعات صغيرة، أقوام من البدو يُطلقون على أنفسهم «العماليق»، «عامو» وتعني البدو، و«ليق» وتعني الجُند؛ أي جُنود البدو بلُغتهم. قوم شرقيون يرفعون فوق أعناقهم إلهًا يدعونه رب الجنود، وهُم نسل قبيلة من العرب البائدة تُدعى «ثمود»، عاشوا بمدينة تُدعى «الصّخر» بوادي «فاران» قبائل مُتفرقة تهيم بحثًا عن المياه وترعى الماشية، توغلت بمسكنة في جماعات قليلة العدد على مر السنين إلى أرض إيجيبت التي لا ترفض ضعيفًا. أكلوا من خيرها وشربوا من نهرها الكريم وامتلأت بطونهم فاستقروا، ثم قويت شوكتهم بسبب ضعف يد حُكّام المدن الشمالية وتصارعهم على النفوذ، لتنهمر جيوش البدو أحلافًا عبر أرضنا، استولوا على مناجم الفيروز

والحاميات حتّى بلغوا «يم سوف»: خليج واسع ضحل تجتمع فيه المياه المالحة الآتية من بحر البوص ⓘ جنوبًا، والمياه العذبة الآتية من فرع النيل البيلوزي الذي يمتد لأرض الفيروز. حصّنوا مدينة دعوها «هوارة» أو «هواريس» بإضافة الياء والسين اليونانيتين، وتعني بلغتهم «المدينة».

ما إن استقر الأمر بالقبائل البدوية حتّى نصّبوا «ساليتيس» ملكًا عليهم. أقام الحاميات العسكرية وحصّن مدينته بحصون عالية عجيبة البنيان من الطين المحروق. قبل أن يعبر غربًا مشعلًا المدن وهادمًا للمعابد الچيبتية ترويعًا وبطشًا. ساق الرجال إلى المذابح وقاد النساء والأطفال إلى الأسواق. نقمة من الإله أصابتنا وملك چيبتي ضعيف ما لبث أن قتل في أول نزال معهم. فأقواس الهكسوس ترمي بأسهم أبعد من أسهمنا، وأحصنتهم رشيقة البطن سريعة العدو، تمرق بين صفوفنا جارّة وراءها عربات شيطانية مزّقت جندنا وشتّتتهم، لتنهار القلاع والتحصينات تباعًا في قبضتهم الخشنة. مدّوا سلطانهم حتّى شمال «واست» ⓘ، ثم فرضوا جزية على الأقاليم من سبائك وغلّات، وخضوع في نسل الملوك الچيبتيين الذين كفّوا عن القتال لضعف قوّتهم وخوار عزيمتهم. ثم بدأ جيران هؤلاء الرعاة يتوافدون حين اطمئنوا. قبائل تجمعها اللغة الكنعانية ذات اللكنة الآرامية، توغّلوا شمالًا تحت إمرة «ساليتيس» الذي توفي ليخلفه «خيان». في عهد هذا الملك ضرب الهزال فرع النّهر الواصل لمدينة هوّارة. كادت القبائل أن تموت جوعًا لولا صوامع القمح التي أقامها ثاني أهم رجل في هوّارة من بعد الملك؛ وزير الخزانة، يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم النبي، متّبع الملّة الحنيفية الإدريسية. كدّس يوسف القمح لسبع سنين قبل الجدب ليخرج ما خزّنه وقت الشدّة. حاز يوسف ثقة الملك فجلب قبيلة أبيه من الشّرق، سبعون رجلًا استوطنوا «جاسان»، أرض خصبة قريبة من هوّارة، بعدما أكرمهم الملك وأغدق عليهم من الخيرات كرامة ليوسف.

عاش بنو يعقوب في تلك الأرض الخصبة أعوام رغد ورخاء، تجاورهم فيها قبيلة بني إسرائيل، الرعاة الذين احترفوا تجارة الحلي، يتقربون منهم ويصاهرونهم حتى اختلطت الأنساب والأسماء، متبركين بنسل الأنبياء وحظوتهم في القصر. حتّى اعتلى عرش المدينة سادس الملوك الرعاة وقائد أحلاف قبائل البدو، رجل غليظ القلب يُدعى «فرعون»، أتى من بريّة «فاران» منبت العماليق وما لبث أن تصادم ببني «إسرائيل» دونًا عن القبائل التي يحكمها بسبب نفوذهم وحظوتهم لدى الملوك السابقين، وكثرة عددهم واستئثارهم بمقاليد التجارة.

ثم زاد الطين بلة حين أتته رؤيا في المنام، فقال العرافون من حوله: «إن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك ويبدل دينك». ففزع الملك فرعون وأمر بسجن ذوي الشأن من بني إسرائيل ليبقي على أبنائهم ونسائهم عبيداً يباعون في الأسواق، ثم قرر قتل كل رضيع ولد في ليلة الحلم المشئومة بالمدينة، لينزل حراسه ومعهم قابلتا «موارة» إلى الشوارع، اقتحموا كل منزل ولد فيه طفل، نزعوه من حضن أمه وألقوا به إلى تماسيح النهر. في ذلك اليوم ولد لعمران حفيد يوسف، وحاجب مجلس الملك «فرعون»، ولد له طفل ذكر خمري اللون واسع العينين، أخفى عمران الخبر برشوة القابلة التي جذبته من بطن أمه، ثم سقاه منقوع اليانسون فخضع الوليد لسبات عميق حتى مطلع الفجر. في الأيام التالية تحايلت أم الوليد في إخفاء وليدها الذي لم تسمه بعد عن الجيران والعابرين، مستعينة بالأعشاب المهدئة وخيمة محكمة، تسجيه فيها داخل الغرفة التي تطل على فرع النهر، مستعينة بصوت المياه وساقية قريبة تطغى على صراخه حين يتضور جوعاً. أما الأب؛ حاجب باب فرعون وصاحب الثقة، فيسترق السمع حين يجتمع الملأ من رءوس القبائل، علّه يلتقط خبر عفو عن مواليد ليلة الحلم المشئوم، أو يستفرق خطراً يتلافى وقوعه، محاولاً السيطرة على خوفه بابتسامة ودود وطاعة ظاهرة.

مرت ثلاثة أشهر كبر فيها الرضيع حتى اشتدت حنجرته وعلا صوته، ولم يطلق عليه أبواه اسماً بعد، تشاؤماً من أن يجده الجنود فيقتلوه. لكن كتمان أمره بات مستحيلاً وسط بيوت القلائل الذين يعيشون داخل أسوار قصر «فرعون» وينعمون بخدمته. ضاق صدر أبيه قلقاً ويبس جسده، أما أمه فتقضي أيامها شاردة ذاهلة ينقبض صدرها مع كل صيحة في الجوار، يحدوهما الأمل أن يصدر من الملك عفو تنتهي به اللعنة التي نزلت ببني إسرائيل وطالت مواليد باقي المستضعفين تحسباً، أو يذوب الوليد بين أقرانه من الصبية فلا يعرف له مولد.

حتى أتى يوم وبوغت الحاجب عمران بثورة سيده، أطاح بكل ما أمامه من أثاث وتماثيل وخدم، ثم أرسل في طلب قارون، صاحب مناجم أرض الفيروز ورئيس قبيلة بني إسرائيل، وجليسه المعين. هاج وماج وقص عليه أن الحلم المشئوم قد تكرر. طفل من قبيلة بني إسرائيل سيكون سبباً في نهايته. طمأنه قارون بكلمات ثم أرسل في طلب الجنود، أمرهم بتمشيط بيوت بني إسرائيل بيتاً بيتاً وقتل كل رضيع يجدونه. سمع عمران الأمر فضرب الدوار رأسه، قاوم رعبه وهو يتابع الجنود من شرفة القصر يبتعدون، تجاه بيته.

في أطراف أراضي القصر، عند بيوت العمال والخدم لمحت أمُّ الوليد القابلة التي ولّدتها من خصاص الشباك، تجري مضطربة بين أيدي الجنود، يسوقونها أمامهم لتدلهم على مواضع من خرجوا للحياة بين يديها، فسلّت أم الوليد ثديها من فم الرضيع في هلع ونظرت حولها جزعة لا تدري ما تفعل، حتّى وقع النداء في صدرها، ذلك الصوت الذي بات يغشى قلبها منذ ولد طفلها: «أرضعي صغيرك حتّى الشبع وترقّبي، أمر ما سيحدث». الآن نفس الصوت يأمرها «ضعيه في السَّبت». وقع الأقدام العنيف على الأرض لم يُمهلها التفكير، وضعت رضيعها في السَّبت وغطّته حين سمعت طرقًا بالباب، سقط قلبها فدخلت الغرفة التي تطل على النهر. «ألقيه في اليم». صرخ الصوت ففتحت الثلمة التي يستسقي منها أهل البيت، قبّلت رضيعها بأنفاس تحترق ثم أسلمته للمياه الجارية وتركت عقلها وقلبها معه.

السَّبت مصنوع من البردي ومطلي بالزفت، عليه أن يطفو مثل السفن، لكنه لن يصمد أمام فكوك التماسيح! كادت تولول لولا أن انفتح الباب، دخل الجنود ومن خلفهم عمران الحاجب يلهث، وقف أمامهم باسطًا ذراعيه:

- ماذا أنتم فاعلون؟

- بأمر من الملك نبحث عن رضيع عمره ثلاثة أقمار.

- هذا بيتي وأنا حاجب الملك.

- لا يُستثنى بيت من بيوت بني إسرائيل.

- لسنا من بني إسرائيل، إنما نحن من بيت يعقوب، عشيرة يوسف.

- قارون هو سيد عشيرة يوسف الآن، وهو من أمر بتمشيط البيوت دون استثناء، أهؤلاء هم كل أبنائك؟

أشار عمران لطفل لم يبلغ الرابعة وفتاة ناهدة:

- هذا هارون وتلك مريم.

- سيفتش الغرف

جاس الجنود خلال الدار بحثًا. نظر عمران لزوجته التي زاغت عيناها وابتهل أن تكون ميتة رضيعه سريعة رحيمة. لحظات ورحل الجنود فهرع إلى غرفة الرضيع. قلب الخيمة ولم يجده.

ـ أين الولد؟

سأل أمّه.

بأنفاس تقطعت وقلب انفطر أشارت للثلمة التي يستسقون منها:

ـ وضعته في سبت، وألقيته في النهر.

نظر إليها عمران غير مستوعب قبل أن يلقي بجسده على الأرض ويفتح الثلمة لينظر. النهر كان يجري ولا أثر للسبت فوقه.

ـ ماذا فعلت؟ أي جنون أصابك يا امرأة؟

قالها عمران وهمّ بضربها قبل أن ينطلق بوق القصر يستنفر العاملين للحضور. انطفأ كشمعة طالها اليأس ثم قام بحزن يجرّ ساقيه وخرج يمسح دموعه فخرجت الأم ومن ورائها مريم. أبصرتا السبت الصغير من ضفة النهر يمُر خلف أكوام البوص. تتبعتاه يتمايل فوق المياه راجيتي الربّ أن تتجنبه التماسيح قبل أن تحتبس الأنفاس في صدريهما حين سحبه التيار تجاه البحر. مشى بحذاء الساحل حتى اقترب من المرفأ الملكي. كاد يمر من أمامه لولا اصطدامه بحزمة بوص بدلت اتجاهه ليدلف من البوابة. اقترب السبت ببطء من المرسى فلحظه حارس. مدّ عصا طويلة فالتقطه. سقطت أم الرضيع على ركبتيها حين رفع الحارس صغيرها من قدميه كصغير حيوان رأسه للأسفل. نحب المسكين فنادى الحارس زميلًا له. حاوره فكتمت أم الرضيع صرختها بأصابعها. لحظات وهزّ الحارس رأسه طاعة، ثم غمس رأس الرضيع في المياه فعضّت أم موسى أناملها حتى أدمتها. قبل أن تخفي عيني مريم الملتاعتين في صدرها كي لا ترى المياه المالحة تسلب روح أخيها. انكتمت صرخات الرضيع ووهنت ضربات يديه في الهواء حين التفت الحارس فجأة إثر نداء أتاه من خلفه. رفع الرضيع من الماء ووقف في إجلال. دققت أم الرضيع النظر فلمحت زوجة الملك تقترب، ومن ورائها ابنتها البرصاء «راحيل»

تحت الكتان الأبيض، تخفي جلدها عن الأعين. تحدثت الملكة مع الحارس بكلمات انحنى الحارس بعدها على الأرض باسطا راحتيه بالطفل الحمري، التقطته المرأة وربتت على ظهره حتى بصقت رئتاه المياه فانخرط في بُكاء وارتجاف، نظرت لفتاتها مهقاء البشرة، حدثتها بكلمات، ثم عادتا به إلى القصر مُسرعتين.

انكفأت أم موسى على العُشب بُكاءً وكادت من الفرح أن تصرخ، لولا أن تداركتها ابنتها فكتمت ضحكتها:

- مريم، اذهبي إلى القصر فتقصّي خبر أخيك.

ثم نظرت للقصر وأردفت:

- لعل مَن نجّاك من الماء أن يُحييك يا ابن بطني.

دلفت مريم إلى القصر واخترقت الأبواب التي تعبرها يوميًا، مُحاولة الحفاظ على هدوئها المُعتاد، وإخفاء أثر الطين الرّطب الذي لوّث ساقيها أثناء الركض قُرب السّاحل مع أمّها. صعدت إلى جناح الملكة واقتربت من الباب الكبير، لم تجرؤ على استراق السمع لكنها ميّزت نحيب أخيها. ذهبت وجاءت مرات ومرات متصنّعة تنظيف الأثاث حتى انفتح الباب وخرجت سيدتها الصغيرة، اقتربت ببشرتها المهقاء التي تشوبها بقايا بشرة داكنة كانت يومًا لونها الأصلي:

- مريم! اجلبي مناشف ووعاءً فيه ماء فاتر.

ركضت مريم فأتت بما طُلب منها قبل أن تدلف إلى جناح الملكة، بصرت أخاها منفطرا قلبه من البكاء، أمرتها الملكة بتنظيفه ثم دسّت سبّابتها في فمه مُحاولة تهدئته بترنيمة. غسلت مريم جسد أخيها قبل أن يدخل الملك من الباب، بشعره الطويل المجعد ولحيته المُضفّرة بحلقات النحاس وذلك العقد الذي ينتهي بنابي خنزير بري كبيرين. انتصب شعر مريم واحتبست أنفاسها لكنها لم تملك ترف النظر إليه. فآخر خادمة نظرت في عينيه غرس الأوتاد في يديها ورجليها وتركها مُعلقة لثلاثة أيام تنكيلًا. اقترب فرعون بهدوء، تأمّل الرّضيع للحظات ثم نظر لابنته ولزوجته التي اضطربت ملامحها:

- أهذا هو الرضيع الذي جلبه البحر إلى مرسى القصر؟

- ربّما ماتت أمه أو أثقلتها معيشته.

نظر الملك إلى الرضيع ثم التقطه ورفعه في الهواء يتأمّل ملامحه العابسة ثم ابتسم:

- حقيق على الأسماك أن تأبى التهامه.

اقتربت الملكة من زوجها:

- جميل أليس كذلك؟

ابتسم الملك:

- ماذا ستسمينه؟

تهلّل وجه الملكة:

- سأسميه.. موسى.

- موسى، اسم جميل، لولا أن البحر لا يطرح إلا السمك الفاسد.

لاح الاضطراب في وجه الملكة:

- عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.

- حين أريد الإنجاب فلن يكون وجه وليدي كوجوه العبيد. انظري، إنه يشبه تلك الأمة الساجدة.

وأشار لمريم التي تقاوم رعشتها ثم أردف:

- أراهنك أنّه ابن بطن زانية من خرائب الإسرائيليين.

واتجه إلى النافذة ينوي إلقاءه فاستمسكت الملكة برسغه وحفرت مريم الأرض بجبهتها متضرعة حين صرخت راحيل:

. أبي...

ثم قالت مقاومة أنفاسها المتهدجة:

. أتوسل إليك أن لا تفعل. ليلة أمس رأيت في المنام أن شفاء بشرتي سيكون في لعاب رضيع، وها هو النهر يقذفه بين أيدينا. إنها علامة من السماء.

. السماء! لا تنفكين تتبعين النجوم!

تضرّعت الملكة:

. أسترحمك أن تتركه حيًا.

نظر فرعون في عيني ابنته ثم للرضيع الذي سال لعابه بكاء:

. حسنًا. ليحيَ طريح البحر يومًا آخر. لكن لا تبكيه حين أقتله إذا مرض مثل حصانك الذي بكيته شهورًا.

ثم تركه فرعون بين يدي زوجته وخرج. زفرت راحيل وقامت مريم من سجدتها بوجه هربت الدماء منه فنظرت الملكة إلى الرضيع:

. لا أعرف يا صغيري إن كان الرب قد ابتاع لك عمرًا جديدًا، أم كتب عليك العذاب بين يدي قاتل الأطفال مفرّق القبائل. على أي حال ستعيش في كنفي. أرعاك ما امتد بي العمر وليتولاك الرب من بعدي.

ثم التفتت لراحيل:

. موسى يبغي ثديًا.

يأمر الملكة جيء بثلاث مرضعات إلى القصر فلفظ الرضيع أثداءهن، اشتد صراخه حتى خشيت أن يتملك الجنون من الملك ثانية فيقتله. كان ذلك حين تجرأت مريم وقالت:

. قد كان لي أخ، مات يوم ولد. وثدي أمي منتفخ، ألا آتي بها فترضعه؟

وافقت الملكة فأتت أم موسى في وجل ترتجف. التقطت رضيعها بيد مرتعشة محاولة إخفاء فرحتها. سكن بين يديها حين رآها. رضع حتى شبع ثم نام في يسر.

. كاااااي!

بصوت عالٍ نادى صاحب الحانة. فبحارة الفجر الذين يشتهون الجعة اشتهاء النساء بدءوا في التهافت. رفع كاي بوصته وسدَّ فم المحبرة ثم أخفى بردياته ونزل إلى الحانة. حمل البراميل وغسل الأكواب ثم جلس في رُكن يرى منه الواردين، مخفيًا ملامحه في الظل. شاردًا في قصّة موسى. رجل الرعاة المنتشل من الماء. قصّة من تراث يرجع لألف وثلاثمائة عام مضت. «قصّة لا تستحق أن يقتل معلّمي بسببها. لا تستحق أن أطرد من جنّة الإله بسببها. أي لعنة تحوي تلك البرديات؟ وأي مصير ينتظرني؟». سأل نفسه فتلقى إجابة بعثت في نفسه القشعريرة. أغمض عينيه محاولًا الهرب إلى عالمه المفضّل. بين أعمدة المعبد. ظلالها التي تبث فيه الطمأنينة بضخامتها. وأسواره العالية التي تحجب عنه الضوضاء والريح. لا يقطعه عن تخيّلها سوى هواجسه تجاه كل غريب يدخل الحانة. وطيف ابنة الطبيب الهارب التي أشعلت في أسفل رئتيه كومة قشّ طالما حرص عمره على عدم اقترابها من النّار. يبللها كل يوم بذكر الرّاعي والتسبيح باسمه الذي نسي من أجله اسمه. فالجسد زاهد. والقلب خاشع. واللسان ساكن لا يحركه إلا ترتيل كلمات الإله. لا أمس. لا غد. لا كاهن. ولا كاي.

ليبتهل الكاهن الأعظم في برزخه حتى أجد ما أصلح به تمثال إدريس.

أو يلعنني فيبتلعني البحر.

هل ترجع كلمات عن رجل من الرعاة ولّى زمنه هيبة المعظم ثلاثًا إدريس؟

أو تأتي بقاتل الكاهن؟

وماذا بعد الترجمة؟

ذلك الفعل اللاإرادي، ذلك العجز واليأس.

تكلّم أيها القتيل، زر أحلامي، أرشدني إلى معنى لمقتلك، معنى لخروجي مدموما مدحورا من معبدي الأثير!

أو مغزى للقائي تلك الأنثى في ذلك الوقت!

ما الذي تحرك بداخلي؟

لم تخترق صدري بلا مقاومة كرمح حاد يعرف طريقه؟

بحّة صوتها أم رموش عينيها؟

أم رائحة تتطاير عن جلدها لتأسر عقلي فتسلبه التعقل؟

نار لا أستطيع العيش بجانبها، إما أطفئها، وإما أحترق بها.

لأقنعن صاحبها بالخروج معنا، من أجل فصل أبيها.

ومن أجل يوم آخر بجوارها.

أو لتذهب إلى الجحيم وراءه.

فهي امرأة كاملة لا تنتظر من يهديها.

فلتت منه آخر الكلمات فالتفتت بعض الرءوس، قام فاتجه إلى الساقي.

. كيف أجد آرام؟

ابتسم الرجل،

- لا أنصحك الاقتراب من الكلاب، فصدره ضيق حرج ككلابه الهجينة.

- سأقول له قولا لينا لن يكرهه.

- اليوم يوم المصارعة، ستجده في ساحة ديونيسيوس قرب البحر.

---

(١) بحر البوص، هو البحر الأحمر حاليًا، وقد حدث الخطأ في الترجمة حين ترجمت كلمة «Reed» وتعني البوص إلى «Red».

(٢) «واست» الاسم القديم لمدينة «طيبة» التي أصبحت الأقصر.

☥

☥

☥

لم تكن ساحة «ديونيسيوس» بعيدة عن شاطئ البحر. ميدان يتّسع لعشر حلبات مسوّرة بألواح الخشب ومغطاة بالشّبك. تقام فيها مصارعات الكلاب كل يوم أحد. يكتظ المكان بمربيها وسماسرة الرهونات، والمرابين الذين يتيحون القروض نظير نسبة عالية من الرّبح. يطوف بينهم الطبّالون والزمّارون، عازفين نغمات صاخبة تلهب حماس المتنافسين وتهيّج كلابهم التي تقام المزادات لبيعها وتبادل الفائز منها، أمّا التي تنفق فتباع رءوسها للمحنّطين وتصنّع من جلودها الأحذية والملابس.

خاض كاي في الجموع بحثًا عن آرام، متمنيًا من قلبه ألا يجده. معها. مسح بعينيه الحلبات المشتعلة بالنباح والتمزيق وصراخ المشجّعين حتى لمحها في رداء كتّاني. واقفة خلف عاشق متيّم يتحدث إلى رجل، وفي قبضته كلبه الشّرس يقاوم جنزيرًا يحيط عنقه. تسمّر كاي في مكانه يتأملها. كعبًا يضرب الأرض على نغمات الطبول. خصرًا ينثني في ميوعة، وكفًا رقيقة تربت على شعر مموّج تحجيمًا لثورته. أمّا عيناها فتحملان نظرة شاهدها في أول لقاء بينهما، سحرًا وشرودًا، وغضبًا مكبوتًا. ثم لمحته. التقت الأعين للحظات لم تطل قبل أن تشيح بوجهها متصنّعة الانشغال، وازداد كعبها ضربًا على الأرض. اقترب كاي خطوات فلم تعره اهتمامًا. ثم نفخ البوق إيذانًا ببدء مباراة. سحب آرام كلبه وسط تهليل المشجّعين والمراهنين، أدخله الحلبة ثم انكفأ على عنقه يدلكه ويهمس في أذنه بكلمات زمجرت الكلب. ثم دخل منافس من نفس الفصيلة. فكّ الطوق عنهما وبدأت المباراة الدموية. صرخ آرام: «سيربيروس، سيربيروس». فردد المراهنون وراءه الاسم ورفعوا عملاتهم يزايدون فلمعت أعين المرابين وبدءوا ينادون بالقروض، أمّا

ناديا فوقفت على بُعد أذرع، مُشبكة يديها تشب على أطراف أصابعها لترى. كان ذلك حين اقترب كاي، وقف بجانبها لحظات تعمّدت فيها ألا تنتبه إلى وجوده حتّى تكلّم:

. يقولون إنّ الإنسان إذا التفت لاإراديًا ناحية من يرمقه، فهو يملك هالة نورانية من هالات الرب.

أجابت دون أن تنظر إليه:

. مُحاولة جيّدة لإصلاح ما أفسدت.

. صاحب الحانة رجل لا يكتم سرًا، وعاشقك غيور يقتل الرجال من أجلك.

. لا تقلق، فأنت لست من النّوع الذي يروقني، كما أن كل من أحبّوني غاروا مثله.

. رأسك يستمتع بالفكرة!

. لم لا؟ الرجال يعشقون الصراع على الأنثى.

. لم تعشقي أحدهم؟

. ما كنت تتكلم عن العشق أيها الكاهن!

. أتكلّم عمّا لا تعرفينه.

التفتت إليه:

. ماذا تقول؟

. أقول أنْ لا أحد قد شغف قلبك، إن كنت عشقت لتعلّمت الرحمة.

. أهذا ما تفعله في المعبد؟ تُوهم النّاس بأنّ الربّ قد كشف لأجلك أسرار النفوس فيصدّقون كل ما تقول.

. فراسة!

أشاحت بوجهها وهزّت ساقها على نغمات الطبول، تريده أن يُكمل دون أن تبدي اهتمامًا، فأدناها تهوى حديث العشق وإن جاء مع انتقاد، ثم نفد صبرها، بغتة:

. أكمل أيها الكاهن.

. عديني ألا تغضبي.

زمّت شفتيها:

. أعدك.

. وأن تعترفي إن أصبت.

زفرت في نفاد صبر فمد راحته فأرخت يُمناها، تأملها لدقائق طالت حتى هزت ساقيها استعجالا، ثم تكلم:

. لديك قلب ضعيف.

حاولت نادیا کتمان دهشتها:

. خفقان اعتدته، يُداهمني كلما تعكّرت مياهي.

. احذري الإجهاد.

. إن مت فأفضل الموت وأنا أرقص.

ثم لاحظ في التل الأوسط بين السبابة والوسطى خطين متقاطعين في شكل صليب، كتم انزعاجه فلاحظت:

. ماذا رأيت؟

.الرجال ينفرون من الأنثى التي تفكر

ابتسم كاي وهو يقلب كفها:

. روحك تحمل السكينة والجنون معًا. نارية المزاج يسوقك الجموح والعناد. أما عن خط القلب فينتهي عند السبابة، عاطفتك جامحة لا يحدها عقل.

. هراء. لم يذبلني العشق يومًا.

ضغط على أول عقلة في إبهامها وكانت كبيرة. لكنها انثنت في ليونة. أردف:

..لك إرادة لا يستهان بها. لكنها تداري للعجب هشاشة وضعفًا.

تيبست حدقتاها وانفرجت شفتاها قليلًا ثم انتبهت لنفسها فسحبت كفها ونظرت في عينيه متحدية:

. تعتد بنفسك وتختال، وبينك وبين الحقيقة جبال.

أردف كاي:

. سأحكي لك قصة خطواتك في قلوب الرجال. عاشقك يرى في عينيك عدم الرضا أو الاكتفاء. فيسأل: ما بال تلك الفتاة تنفر رغم عنايتي وتدليلي؟ لا يعرف أنه يعشق جميلة ملولة لا تكاد تنظر للشيء مرتين. تزداد نفسه اضطرابًا فيسعى جاهدًا لإرضائك. حتى لا يتحول الشك في قدراته إلى يقين. يقترب فتبتعدين. يزداد إقبالًا وتكالبًا عليك فتنفرين. يرتوي غرورك ويسبغ عليك ثوبًا من القسوة. يتوهم عاشقك أن جذوة قلبك قد خبت فتشتعل الغيرة في صدره ويضطرم الشك. كنار فوقها زيت. لعلها قابلت من أعجبها. من هو أوسم مني وأقوى. ليستحيل كل رجل في محيطك منافسًا له. يثير العاصفة الساخنة في صدره. وأنت سيدة كريمة. لا تردين ابتسامة ولا تلفظين عاشقًا. كالزهرة الفواحة. لا تتوقف عن جذب النحل إليها والاستمتاع بطوافه حولها.

باتت هزة ساقها أكثر عنفًا:

- ثم؟

- ثم تتحولين إلى عبدة مملوكة بعد أن كنت أميرة متوّجة، طائر ملوّن حبيس قفص، لا تقدرين على استنشاق الهواء إلا بإذنه، يقضي لكِ ما تأمرين طالما لا تنظرين إلا تجاهه، يمنحك الحياة، ويسلبها في آن واحد، فدون قصد، أو بقصد، كشفت ضعفه.

بطؤت هزّة ساقها:

- وبعد...؟

- ستنفرين منه وتصدّين، لكنك لن تملكي منه فرارًا بعد أن بات أعتى كوابيسه... أن يتخيلك في أحضان رجل غيره؛ إنه حب التملّك.

توقّفت هزّة ساقها وانتفخت فتحتا أنفها في شهيق بطيء، نظرت في عينيه لحظات ثم ابتسمت:

- لا أنشد قتل أحلامك لكن لك أن تعرف، فالسنوات التي عشتُها في اليوسيس علمتني قراءة الرِّجال، فأنتم لا تختلفون كثيرًا عن الأطفال، لولوج أنثى تفعلون الأفاعيل، إما تندفعون كالثيران في رغبة محمومة بلا عقل، وإما كالشعراء، تبثون السِّحر في الآذان حتى تسقط الأنثى في حبائلكم، تلك الطائفة يظنون فهمنا، وتجاربهم، حتى يستمتعوا بشهوة الصيد، وهم الصّيْد.

نظر في عينيها ثم شفتيها ومنع نفسه عن الكلام، لاحظت فابتسمت:

- هل لفراستك المزعومة قول في شفتي؟

أجابها بعد صمت:

- امتلاؤها ذكاء وكرم، وشهوتها متدفّقة.

احمر وجهها:

. ليس سيئًا بالنسبة لكاهن.

. لا أغازلك، إنّما سُئلتُ فأجبت.

كزّت على أسنانها غيظًا حين انطلق بوق فصاح آرام وأغلب المراهنين فرحًا بالفوز. دخل الحلبة وجرّ كلبه الجائم فوق منافسه، وضع الطّوق في العُنق وخرج بعينين تبحثان عن ناديا حتى وجدها، بجانب كاي. انقلبت سعادته غضبًا فاقترب:

. ماذا يريد؟

سأل ناديا.

أجاب كاي:

. صفقة رابحة.

لوى آرام شفتيه وهو يتأمّل هيئة كاي:

. ما يتناوله كلبي على العشاء يفوق ما تأكله أنت في شهر.

. أحدّثك عن الذّهب.

ضاقت عينا آرام:

. ومن أين لك به؟

. أن تلتقي ناديا بأبيها هو ثمن المعرفة.

ابتسم آرام ثم نظر لناديا التي انحبست أنفاسها:

. كنت أظنّك تثيرين البحّارة فقط، ها أنت تجذبين لصوصًا!

قالها آرام ثم استلَّ من حزامه سكينًا فتراجع كاي خطوة، وضع النَّصل فوق كبده ثم همس:

- ربُّ التّياب وتعدنّي الذهب! أي مخبول تظنني؟

- لقد ذقت مكر كاهن يجمع التبرعات للإله ويستأثر بها لنفسه، كنت أكذِّب عينيِّ حتى اتهمني زورًا وكدت ألقى حتفي، أعرف أين يخبئ الذهب وأريد أن ألقنه درسًا.

- ولم لم تسرق الذهب لنفسك؟

- أقسمت ألا أمسّ ذلك الذهب ما حييت، ملعون من الرب إن فعلت، إنما قررت أن أهبه لفعل الخير، وحين أنقذني والد ناديا رأيت أن أرد صنيعه في ابنته.

جذبت ناديا ذراع آرام وهمست في أذنه:

- الذهب نظير لقائي بأبي.

- أبوك لم يحفظك.

- دعني أقولها في وجهه.

وخز آرام جلد كاي بسكينه:

- لا أثق في لص.

أجابته ناديا:

- ستكون معي أينما حللت، وسأعود معك إلى الإسكندرية، فليس لي مكان إلا هنا.

نظر لناديا ثم لكاي، ودارت في عينيه شياطين البحر قبل أن يكبّل عضد ناديا بأصابعه الغليظة:

- تتهافتين على كلمات أشعث ربّ التّياب رائحة كلبي أزكى من رائحته. إن كان معه الذهب لأتى بأبيك إلى هنا يا خرقاء.

.أتوسل إليك يا آرام.

التفت آرام لكاي صارخا:

.إن اقتربت منها ثانية فسيتولى أمرك «سيربيروس»

قالها وأغمد سكينه في الجراب ثم جذب طوق الكلب بيد، وباليد الأخرى ناديا، تابعها كاي تبتعد قبل أن يأخذ طريقه راجعا إلى الحانة.

☥

☥

☥

قضى مُوسى طفولته في قصر المَلك «فرعون»، حتى صار فتى قويًا له جسد أبيه وعينا أمه، صموت ثابت العينين، مكظوم النّفس من جُحود في رب بيته وتجاهُل، فهو «طريح الماء» الذي عاش بفضل سيدة القصر، لا يُعرف له أب أو أم، مرهونة راحته بانصراف عيني فرعون عنه. فرعون الملهيّ برغبته المُستعرة في إنجاب ذكر يُورثه المُلك من بعده، يُرسل في أقاصي المُدن ليأتوه بأبكار القبائل عسى إحداهن أن تصير أمًا لولي العهد، ولم تحبل واحدة، ومن أنجبت جاء وليدها مُشوّه الخلقة قبل أن يُدركه الموت وهو ابن أيام.

تفاقم الغضب فيه واشتعل جنونه. فقبائل العماليق من تحته تتربص بعرشه، والجيبتيون تقوى شوكتهم تحت إمرة «سقنن راعي» حاكم «واست» في الجنوب، يتحيّنون لحظة ضعف ليجتاحوا الشّمال تحريرًا لأراضيهم.

وفي يوم، أرسل فرعون رسالة إلى حاكم الجيبتيين تقول:

«إن أصوات أفراس النهر في بُحيرات «واست» تصل إلى «هوارة» فتزعج منامي، من الأفضل لك أن يتم إسكاتها، أما ربُّ مدينتك، فـ «سوتخ» إلهنا المحبوب القوي لأولى من إلهك أن ترفع تماثيله ويُمجّد اسمه في معابدكم».

وفهم حاكم الجيبتيين الرسالة. المَلك فرعون علم بأمر التحالف المُقام بين مُدن الجنوب لاجتياح «هوارة»، أسماهم أفراس النهر في بُحيرات «واست»، وأما عن تخلي مُدن الجنوب عن إلهها فاختيار خضوع وولاء، واستقرار.

قبل أن يعود الرسول من «واست» إلى «هوارة» كان فرعون قد جمع الملأ من رءوس العشائر والقبائل في قاعة العرش، خرج عليهم بقناع من الذهب على هيئة رأس عجل وصولجان، جلس فوق عرشه وساوى بأنامله لحيته المضفّرة وحلقات النحاس المتدلّية منها ثم قال:

. سأخوض حربًا ضد الجيبتيين.

التزم الجميع صمتًا قطعه أحد رؤساء القبائل:

. ألا ننتظر حتى يأتونا؟

. بل سنذهب إليهم لنجهض أحلامهم، وسأكون على رأس الجيش.

قال آخر:

. وإن قُتلت؟ من سيرث جُعبة سهامك؟

. منذ متى ورب الجنود في حاجة إلى وريث؟

نظر الملأ إلى بعضهم بعضًا مُحاولين استيعاب ما تفوّه به الملك حين أردف:

. ما علمت لكم من إله غير رب الصحراء «سوتخ» العظيم، في جسدي تسكن روحه، ومن رأسي يخرج قرناه، وعلى لساني يجري قوله، وقد أسبغ عليّ الخلود، وأمر يديّ وقدميّ باستعادة ملكه المنهوب من نسل حاكم الجيبتيين «سقنن راعي»، حفيد «إدريس» الذي اغتصب عرش تلك الأرض قبل زمن العروش.

انطبق الصمت حتى كاد دبيب الحشرات أن يسمع، نظر رؤساء القبائل بعضهم إلى بعض في ذهول ثم تقدّم أحدهم:

. إن كانت روح الإله في جسدك فأتنا بآية؟

نظر إليه فرعون ثم ابتسم قبل أن يقوم من فوق عرشه ويتزل الدرجات:

- سآتيك بآية، ولكن، أتعرف مصير من لا يصدق بالآيات يا كبير «جرهم»؟

- آتنا بواحدة وستجدني وقبيلتي من المؤمنين.

- حسنا، استلق على بطنك.

تردد الرجل للحظات ثم استلقى على بطنه في قلق قبل أن يضع فرعون قدمه فوق ظهره فاستنحر:

- اثبت، فقد طلبت من الإله آية.

ثم نظر في وجوه رؤساء القبائل المترقبين وصاح في الراقد:

- لتكن أنت الآية.

قالها فرعون ثم استل خنجرا ذا مقبض على هيئة رأس حصان وأغمده في كف الرجل الممدودة بجانب رأسه حتى اخترق أرض المجلس. صرخ الرجل صرخة مروعة فاضطرب الجمع واستنكرت الأنفس وتأهب الحراس المحيطون فأردف فرعون:

- لا تتعجل واثبت، فالآية لم تأت بعد.

قالها ثم استل فأسه الذهبية مردفا:

- إن من ينكر حلول الرب في هذا الجسد...

وبعزم قوته نزل على اليد الثانية فبترها في ضربة فانفجرت الدماء. صرخ الرجل حتى تحشرج صوته فعلا صوت فرعون على صوته:

- تقطع يداه.

ثم رجع خطوة ورفع فأسه ثم نزل على الساق اليسرى فبترها وسط هلع رؤساء القبائل الذين تراجعوا خطوات:

ـ ورجلاه من خلاف، ويَصلَّب بالأوتاد في جذوع النّخل

ثم هوى على السّاق اليمنى فبترها في ضربتين فتخضّب وجهه بالدماء قبل أن يردف:

ـ أو أعلن الحرب على قبيلته فأبيد رجالها وأستحيي نساءها، واسألوا بني إسرائيل الذين ظنوا أنفسهم يومًا ملوك تلك الأرض.

قالها وهو يلهث من فرط الانفعال قبل أن يجثو على ركبتيه بجانب وجه رئيس القبيلة الذي زاغت عيناه وارتعشت روحه:

ـ أتمنى أن تكون تلك الآية كافية؟

ثم صرخ في الحرّاس:

ـ نظفوا الأرض وارفعوه على نخلة أراها من شرفتي حتى تأكل الطير رأسه.

فتقدّم «هامان» رئيس قبيلة «يهودا» وجثا:

ـ المُلك لفرعون، رب الجنود.

ثم تقدّم «قارون» رئيس قبيلة بني إسرائيل، جثا بجانب هامان:

ـ المُلك لفرعون، رب الجنود.

وتوالت الرءوس رُكوعًا وسُجودًا حتّى لم يعُد في القاعة رأسٌ قائم، إلا رأس فرعون، وانطلقت الحملة، جُند فرعون فوق عرباتهم في المُقدمة، وجُند قبيلة يهودا بقيادة هامان في الوسط، ومن ورائهم رجال قبيلة بني إسرائيل يحملون المؤن والحراب مترجلين، ثم باقي أحلاق القبائل في جماعات قتالية متفرقة، والتقت الجيوش، اجتاحت عربات الهكسوس عربات الجيبتيين البدائية قليلة العدد، هرست الأجساد وشتتت الجُموع، وانطلقت الأسهم المزدوجة طويلة المدى لتخترق الدروع والصدور، صمد الجيبتيون نهارًا كاملًا تحت وطأة موجات لا تنتهي من

الخيول والعربات الجامحة، حتى غربت الشمس، قبل آخر ضوء شقّت الصفوف المتشابكة موجة من العربات في تشكيل مثلث رأسه ناحية حاكم الجيبتيين الرابض على عربته، طوّح يديه في الأعناق والرءوس حتّى تكتلوا حوله ونجحوا في فتح ثغرة بين حرّاسه. تلقى بلطة في خدّه الأيمن كسرت عظام وجنته فسقط من فوق العربة لتهوي الفئوس والرماح على رأسه حتّى خرج مخّه من جبهته، توقف القتال للحظات قبل أن يصيح جُند البدو في فورة جلون ويرفعون راية، ما إن رآها فرعون حتّى ابتسم ظفرًا ورفع سيفه عاليًا ودار بعربته مبتعدًا.

في الأيام الثلاثة التالية أقام قصر فرعون احتفالات لم يسبق لها مثيل، دُعي الملأ من رءوس القبائل والعشائر وسال النبيذ أنهارًا فوق سلالم القصر إلى الأرض، احتفالات لم يحضرها الأمير المنبوذ موسى، كان يجلس بجانب سرير أمه التي ينهشها المرض منذ شهور، وبجانبه مرضعته التي صارت أمه الثانية، وأخته التي دائمًا ما ذكرته بأن لعابه رضيعًا كان السبب في شفاء جلدها من البرص، تابع موسى عينَي أمّه تخبوان حتّى فارقها بريق الحياة، قبّل يدها وجبينها وبكت أخته لهفًا فيما سجدت مرضعته العجوز في بثّ وكمد.

وسط مجون احتفالات النصر خرج موسى متجهًا إلى قاعة الملك، تخطّى الحاضرين حتى وقف بين يديه.

ـ ماتت أمّي؟

نظر إليه الملك للحظات ثم قام من رقدته واقترب منه.

ـ ومن هي أمّك؟

ـ أمي، الملكة.

ـ آسيا بنت مزاحم حفيدة الملك خيان هي أمّك؟

ثم اقترب من موسى وهمس في أذنه.

ـ لا بد أنني أبوك إذن؟

[illegible]

في الغرفة احتضن فرعون ابنته راحيل التي قطّعها النحيب، ضمّها وقبّل جبينها وهمس في أذنها بالصبر، ثم التفت لمربية موسى الساجدة على الأرض:

ـ خُذي راحيل إلى غرفتها لتستريح.

احتضنت المربّية راحيل وساعدتها على الخروج، اقترب فرعون من جسد الملكة المُسجّى فوق الفراش، نظر إليه للحظات ثم اقترب من الشرفة، نظر للبيوت البعيدة المضاءة بالشموع:

ـ تُرى في أي بيت من تلك البيوت رَنت أمّك؟

كظم موسى غيظه وأحنى رأسه فأردف فرعون:

ـ في يوم من الأيام، أحبتك تلك المرأة، بعد أن كدتُ ألقيك من الشرفة، وها أنت اليوم تقف أمام جسدها لتدّعي أنها أمّك!

ـ لو عرفتُ لي أمًا لذهبت إليها.

ـ ليس من العسير نسبك إلى خرائب المنبوذين، فملامحك تتطابق معهم.

ـ ألا يخرج نسب كل رعاة الشرق من أصل واحد؟

ـ بلى، ولكن القبائل درجات يا داكن البشرة: هناك آل فرعون، أسود برية فاران وورثة ثمود، وهناك الكلاب، مثل بني إسرائيل.

ـ ثمود لعنها الرّب ودمّرها.

ـ الضربة لم تُهلكنا، وها نحن نستعيد قوتنا لنرُد له الصّاع صاعين.

ـ ما منعك من قتلي حين استطعت؟

ـ كيف أقتلك وقد رأت راحيل في المنام أنك سبب شفائها، مثلما يشفي الروث بعض أنواع القيح.

ـ لماذا تكرهني لذلك الحد؟

ـ أنا لا أكرهك، ولا أحبك، أنا لا أراك، ليبق خبرُ وفاة الملكة تحت لسانك حتى تنتهي الاحتفالات، لا يقتل للجيبتيين ملك كل يوم.

قالها فرعون وخرج، فقبّل موسى جبين الملكة ثم اتجه للخلاء.

دبّت قدماه على الأرض حتّى كاد يُدميها؛ صحراء شاسعة تقع في الجانب الغربي خارج حدود المدينة، راغبا في بقعة تموت فيها الأصوات وتكف الأحزان عن الصراخ في قلبه. مشى حتّى علّقه الصّمت واحتضنته أحجار الجبال، ثم توقف فجأة. سقط جسده على الرمال وشخصت عيناه في النجوم. ساعات لم يُحصها حتّى استشعر خطوات تقترب. التفت فرأى بريق عيني ضبع يتربّص. يسير وحيدا دُون جماعته! جلس موسى على رُكبتيه حين اقترب الحيوان مكشرا عن أنيابه. نظر في عيني موسى للحظات ثم زمجر. رمقه موسى حتّى تمنّى أن ينهشه لينهي عذابه، ثم تمشت أنامله على الرمال حتى ميز صخرة. طوّحها على غرّة تجاه فك الحيوان فاصطدمت به مُهشمة أسنانه. عوى الضبع في ألم وفرّ هاربا فأتبعه موسى بصرخة مزقت الليل وحنجرته. ثم انكفأ على وجهه. بكى بحرقة ونحب ونشج حتى ابتلع الرمال، قبل أن يقوم لاهثا ويجر قدميه من فرط الإجهاد عائدا للمدينة.

قُرب سور القصر كانت واقفة في انتظاره تحت سدرة. هزيلة محنيًا ظهرها من الخدمة لسنين لم يُحصها، فمنذ وعى وتلك العجوز أمامه. تسعى لراحته وتتحمل نُصحه. اقترب منها يتأمل وجهها في وهج المشاعل. رفعت يدها اليابسة ولامست خدّه قبل أن تحتضنه. بكى على كتفها في صمت فربتت على صدره وهمست:

ـ يا بُني، الموت حق.

ـ لم اختارها الرب ولم يختره؟ لقد كان يُصليها بكلماته في غدواته وروحاته.

- لم يتزوّجها إلا لأنها سليلة بيت الملك خيان؛ الملك في عهد يوسف صاحب الخزائن.

- لا يؤلمني إلا عدم اكترائه. أبلغته الخبر فنظر إلى جسدها للحظة ثم رجع إلى مجونه غير آسف.

- لا تنتظر الرّحمة من أعرابي جلف يقتل النساء والأطفال.

- أن أعيش بين أهل المدينة ابن زنى خير لي من أن يربّيني هذا الجلف ويسبغ عليّ من فضله.

- لست ابن زنى وربّ السماوات...

- تقسمين بغيب لا تدركينه.

سكت لسانها عن الجواب فضاقت عينا موسى ومال رأسه.

- أنت تعرفين... أنت تعرفين من أنا؟

غاصت عيناها ولم تجبه فأمسك كتفيها برفق.

- عشت في القصر سنين قبل أن أدرك أني غريب مُنتشل من بحر ألقيتُ فيه. تحمّلت كراهية سفيه متكبّر وتجرعت شططه، وكابدت همس الخدم من ورائي، يقولون إني ابن زانية من بني إسرائيل. والآن، تقولين إنك تعرفين! انطقي يا امرأة.

- سامحني، فالأمر لم يكن يومًا بيديّ. لك أن تعرف يا بنيّ أنك لست لقيطًا، ولا ابن زنى، ولست من بني إسرائيل. أنت من أحفاد القتيل.

- يوسف؟

- الصِّدّيق المبارك. صاحب خزائن القمح الذي قتله بنو إسرائيل غيلة وطمعًا.

تعرّق وجه موسى وتلاحقت أنفاسه.

ـ من هو أبي؟

ـ عمران، حاجب إيوان الملك، وزوجي.

ووهنت فتيلة السّراج حتّى اكتسى الوهج بالزرقة.

اتّسعت حدقتا خاي مقاومة الإعتام قبل أن يقوم من جلسته بساق وخزها التّنميل، مدّ يده فرفع الفتيلة حين أنّت أخشاب الأرضية عند باب الغرفة تحت ثقل، أنصت حتّى سمع الطرق، فتح الباب فوجدها، تبيّس للحظات قبل أن يقطع الصمت:

ـ تفضّلي.

دخلت فجلست على الكرسي الوحيد. على ضوء السّراج لمح احمرارًا مختلطًا بزرقة بين عينيها وشفتيها فاقترب، جلس على ركبتيه في خشوع:

ـ ماذا حدث؟

ـ كما ترى.

وسالت دموعها في صمت، اضطربت أنفاس خاي فالتقط رداءه الكتاني وغمسه في إناء ماء ثم وضعه على وجنتها وحاجبها.

ـ ماذا حدث؟

ـ ضرب رأسي فلم أشعر بنفسي، حتّى تبولت في ثوبي.

ـ كلماتي هي السبب؟

ـ ربما، يظنّني أرغبك.

- لا أبغي تعكير صفو أيامك.

- هي مُتعكِّرة كمياهٍ آسنة.

- وما يُجبرك؟

- وماذا أملك؟

- تملكين الحرية.

- فتاة وحيدة في البوسيس، مطيّة للرجال، آرام انتشلني من عاشقين استباحا جسدي بلا عاطفة، قطفا زهرتي واستمتعا برحيقي قبل أن يهرعا خلف أخريات، الرجال يحبون التغيير. أما آرام فعشقني، وحماني، جعلني سيدته قبل أن أصير خادمته، قمره الذي يدور في فلكه لا جزر ولا مدّ دوني. أنا فقط.

- وكلابه.

كسا الغضب ملامحها:

- لا أعرف لِمَ أحكي لك! ففي عينيك شيء لا يترك لي مجالًا للاختيار.

- نحتاج للحقيقة رغم قسوتها.

أردفت بعد صمت:

- روّعتني كلماتك عند حلبة المصارعة، معانيها تدق صدري منذ شهور.

- وما منعك أن توافقيني؟

- يقين في عينيك عزّ عليّ أن يكون في محلّه، وحديثك مع الساقي. قلت إنني لا أروقك. تلك الكلمات كافية لإشعال جدائل النساء.

ابتسم كاي مُلطفًا:

. جمالك يشفع لك حماقتك.

. جمالي لعنتي.

. لا تكرهي هبة الإله.

. هبته تستعبد أمام عينيه ولا ينفعل.

. بل ما أردت أنت هو ما سيكون.

. إنما نحن دمى خشبية يلهو بها كيف يشاء، يُحطّمها إن شاء، ويرسلها إلى فم ثعبان إن شاء! يا له من عابث متكبرا

. معرفة المُعلم بقدرات تلاميذه لا تعني أنه يكتب مصائرهم بيديه. من العبث أن يخط الراعي طريقك مُسبقًا ويتملك زمام حياتك، ثم يُحاسبك على ما اقترفت. لم يزني قلبك في ميزان العدل إن كنت دمية بلا إرادة؟ لم تراقب الملائكة أفعالك وتكتبها وهو عالم بها مسبقًا؟ لم لا يُرسلنا إلى مصائرنا دون عناء الخلق والحياة والحروب والموت؟

. تقول إنني قد أفاجئ الرب بفعل لا يعلمه؟

. نعم.

. وإنه قد ترك زمام الحياة بين أيدينا؟

. تلك مشيئته. ولعلّنا الآن نجلس في ساعة الحساب، نشاهد حيواتنا الماضية في انعكاس بُحيرة صافية. ما اقترفنا من ظلم، وما جنينا من خير. لنشهد على أنفسنا.

. ثم يلقي بنا إلى أفواه التماسيح!

. ليس للخطاة أن يلوموا إلا أنفسهم.

. الآن تُلقي باللوم على من اختار الخطيئة! ألسنا أحرارًا كما قلت؟

. أحرار دون إفساد حياة الآخرين.

. تجيد اللعب بالكلمات.

. بل أنبهكِ أن بيدكِ الأمر كله، بيدكِ الخير والشر، وبيدكِ تغيير مصيركِ، إنما تلقين باللوم على الراعي في سمائه حتى لا تحملي وزر خضوعكِ وضعفكِ، اقرعي بابه، لن يخذلكِ.

. أنت تقول ما ليس فيك، انظر إلى حالك قبل أن تتكلم، أقرعت يومًا بابه؟ أوجدت من يُجيب؟

. طالما قرعتُ الباب، حتى أدركت أني أقرعه من الداخل، الصبر...

قاطعته:

. الصّبر شيمة الكهنة، وقد نفد منذ دخلت إليوسيس بين يدي أرملة المرابي.

. وعوّضكِ الرب بروح صافية وجسد سليم ناضج.

. ألم تقل إننا نصنع مستقبلنا بيدينا؟ ماذا لو كنتُ قبيحة؟ أليس ذلك من صُنعه؟

. كلمة «لو» لا معنى لها، والجمال اختيار أصعب من اختيار القبح.

. وكيف ذلك؟

. الجمال يجذب الحشرات، أما القبح فقد يدفع عنكِ الأعداء.

. لدى الكهنة دائمًا إجابات جاهزة.

. تملكين التغيير إن أردتِ.

صحراء مُتخمة بالأسود الجائعة، وحين يعود، أنفر منه كأنّه الداء، بغيرته المفرطة يُكبِّل عُنقي، وبظنه وشكّه يُحاصرني، حتى حبا الشغف.

نظر في عينيها للحظات، وزن ما فيهما من كلمات، لم تنطق قبل أن يهمس:

ـ لم تعشقيه يومًا، ارحلي معي.

رمقته للحظات:

ـ لا أستطيع.

ـ تخافين الحرية.

ـ ليس في الفرار حرية.

ـ أرض الرّب واسعة.

ـ لدى أزام الوقت، وكلابه تتقصى رائحتي أينما كُنت، ربّما لكي تحرسني، ستجدني ولو في جحر ثعلب.

ـ إن رحلت فسأتكفل بحمايتك.

ارتعشت أناملها وتهدّج صدرها بنفس مُضطرب، غاصت في سواد عينيه وكلماته.

ـ وما الذي يملكه كاهن إزاء كلاب متمرّس؟

ـ علمني أبي كيف تختبئ الثعابين أمام أعيننا.

ـ ما تقوله قد يُكلّفك عنقك وعنقي.

ـ عنقي كان بين يدي أبيك فأنقذها.

ـ تريد الحماية؟

. أنت روح تستحق الجهد.

ساد صمت طويل، ثم أردفت:

. أخاف الآمال السعيدة خوفي من قصص المُستنقعات.

. إذا كان السبيل الوحيد للخلاص مُستنقعاً، فلست تملكين إلا خوضه.

قامت فسألها:

. ستعودين إلى آرام؟

أردفت بعد صمت:

. لم أعد أعرف.

قالتها وخرجت. سارت في ممر الغرف المفضي إلى السلّم. ساقاها ثقلا حديد ورأسها باحة واسعة مزدحمة بكلاب تنبح. زفرت تبديداً لخوف قشعر جلدها قبل أن تقابل الجسد المفتول. اقترب ولم تميز من الظلمة ملامحه. أبطأ. احتك بكتفها عن قصد. سمعت أنفه يستنشق رائحتها قبل أن يبتعد. نظرت خلفها مرّة فوجدته ينظر ناحيتها. في المرة الثانية التفتت فرأته ينقر باب كاي. ثم التفت رأسه ناحيتها فأسرعت بالنزول. في الغرفة وبعد لحظة فتح الباب كاي بابتسامة ما لبثت أن تبدّدت.

. طال شعر الكاهن!

على الضوء الواهن ميّز كاي جسداً ضخماً:

. من أنت؟

تلقى كاي دفعة ألقته أرضاً:

. كان يجب أن أقابلك حين زرتَ قدس الأقداس.

. أنت...!

. شاءول، جزّار نوق بحيّ دلتا، ومُصارع بحلبة الباليسترا.

. أدركتُ حرفتك من ضربة سكّينك في رقبة الكاهن.

رفع شاءول يده المربوطة:

. لقد تم تأديبي على تلك الضربة من سمكة حادة الأسنان.

. كيف عرفت بمكاني؟

. فئران البوسيبس لا تستسيغ الأغراب بين يوم وليلة. ما إن تسأل عاهرة بالطريق عن غريب توغل في زيارة ولم يخرج، حتى تتبرع بالإجابة، خاصة أنني من الزبائن الكرماء.

. جئت لتقتلني كما قتلت الكاهن الأعظم؟

. أو نتفق. برديات الكاهن مقابل حياتك.

نظر كاي حوله بحثًا عمّا يذود به عن نفسه فلم يجد ما يُكافئ خصمه. ابتسم شاءول:

. بحق الإله لا منقذ لك، إن جئت فبمشيئتي.

. وكيف أأتمنك؟

. علينا في بعض الأحيان أن نُقامر.

قالها ثم نظر للبرديات:

. هل تلك هي فعلًا البرديات؟

أجابه كاي:

- عليك في بعض الأحيان أن تقامر.

ابتسم شاءول وسلت سكينا من حزامه:

- كل النوق عاصية، لكنها تبرك في النهاية.

ولعب شاءول بالنصل بين كفيه في سرعة فتراجع كاي والتقط البرديات. قاست عيناه المسافة بينه وبين الباب، مرّ السّكين أمام رقبته فانتفض، تفاداها في سرعة فارتطم ظهره بالسّراج وتبعثرت البرديات. التقطه رغم سخونته وقذفه يأسا في وجه شاءول، صدّه فانفجر بصوت مكتوم وانتشر الزيت الحارق على ذراعه وطارت سكينه، وانقلبت الابتسامة غضبا كزّ على أسنانه ثم انقض على كاي، رفعه فألقاه أرضا، سمع الأخير عظامه تئن قبل أن ينقض شاءول عليه، أطبق على عنقه فقطع الهواء، تحشرج صوت كاي واحتبس، تلوّى جسده بلا جدوى تحت الحمل الثقيل، ينظر للعينين اللتين تقتلانه وللبرديات التي تقترب منها النار. اعتصر صدره ألم رهيب ثم زاغ البصر وغامت الرؤية حين التفت أصابعه بصندوق كئوس نحاسية غسلها صباحا، جاهد بأنامله حتى أمال الصندوق فأسقطه والتقط واحدة، ضرب بها وجه شاءول فأصاب أسفل فكه، نزفت شفتاه فلحس دماءه واشتعل الجنون في عينيه فازداد الكفاء على الرّقبة يسحقها، هوى كاي بالكأس النحاسية مرات على رأس المصارع فلم تهن القبضة، بل وهنت الأنفاس في رئة كاي، رفع يده بضربة هشّة أخيرة حين ارتعشت عين شاءول اليسرى بغتة قبل أن يخرّ فوق صدر كاي كجدار من اللّحم.

شهيق...

ثمّ أزاح المصارع من فوقه، بصعوبة. ناديا كانت واقفة خلفه متقطعة الأنفاس من الانفعال وفي يدها إبريق نحاسي كبير اكتست حافته بالدماء، رمقها كاي للحظات ثم اندفع ليطفئ نارا أشعلها السّراج في أحد البراميل والتقط البرديات المبعثرة.

- ماذا تفعلين هنا؟

- كنت أجيب عن سؤال أثار فضولي، ماذا يفعل شاءول هنا؟

- أتعرفينه؟

- مصارع الباليسترا وحفيد راعوث كبيرة حي دلتا من ابنتها، وصديق آرام.

نطقت اسمه فارتعشت،

- هل؟ هل قتلته؟

التقط كاي من الأرض السكين التي كادت تذبحه. وضع يده على صدر غريمه يستشعر حياة فارتفعت وانخفضت في نفس واهن، التفت لناديا التي ملأها الهلع.

- إنه حي، لن نستطيع البقاء هنا.

- سآتي معك.

لم يملك إجابة. نظر لغريمه ثم دسّ السكين في إزاره وجمع البرديات في عجالة فخرجا.

الحانة كانت غارقة في صمت، براميل النبيذ فارغة والكراسي مرصوصة فوق بعضها. نزلا السلم فاضطربت أطراف الساقي المستقر في ركن، لم ينبس بكلمة. نظر إليه كاي فقرأ في ملامحه الرعب. ضمّ البرديات تحت جناحه ثم خرجا.

---

(1) «جُرْهُم»: قبيلة قديمة تنتمي للعرب اليمنيين القحطانيين.

☥

☥

☥

لم يكد الليل ينحسر أمام زرقة الفجر حين ابتعد كاي ونادبا بلا وجهة، تجنبا أجسادًا ترنحت بعد سهر، نداءات قوادين يلقون شباكهم أملًا في صيد، ونظرات عاهرات استغربن رؤية ناديا دون آرام. أخفى كاي البرديات في ردائه ومد خطواته محاولًا السيطرة على روع يملأ صدره، رأسه يعمل بأقصى طاقته لإيجاد مخرج.

. أنلجأ إلى المعبد ونطلب الحماية من الكهنة، أليسوا بأصدقائك؟

استدعى وجه نائب الكاهن وهو يصرخ: «ها هو الملعون، ها هو قاتل معلمكم»، ثم همس:

. الكهنة خلف أسوارهم لا يرون سوى ما يرى صاحب العرش، لن يصدقوا كاهنًا طويل الشعر يسير في حواري إليوسيس ومعه فتاة.

ثم التقط صوت موج البحر:

. ماذا عن مركب يقلنا لشاطئ بعيد؟

. ما جدوى الاختيار والكلاب تتبعنا؟

مشيا دون أن ينظرا خلفهما حتى غاصت الأقدام في الرمال، بحث كاي بعينيه عن سفينة حتى رأى واحدة على بعد فحثا الخطى تجاهها، يرسمان قصة تشفع لهما عند صاحب المركب كي يضمهما إلى ركابها، كان ذلك حين التقطت

أذنا كاي وقع خطوات تركض من خلفهما، خطوات ثقيلة غاضبة. لم يفكر. دفع ناديا جانبًا والتفت ليستقبل جسد شاءول، طائرًا بثقله ساقطًا فوق كاي، دفنه في الرمال صارخًا صرخة نفّرت طيور الباتروس الواقفة على الصخور، قبل أن يتقوّس ظهره وتجحظ عيناه. أصدر خُوارًا أسال لعابه. نظر لكاي بغضب تحول لألم رهيب، ثم انفكت أعصابه دفعة واحدة.

لحظات مرّت قبل أن يزيحه كاي جانبًا. تأمل سكّينًا انقلب على صاحبه فشقّ صدرًا واخترق قلبًا. وجهًا لم يكد يعرفه حتّى ودّعه. تابع بقايا الروح ترتعش في الأنامل. لا تصدق أن صاحبها قد قرّر الرّحيل. ثم سكن كل شيء. كفّت الرياح عن الصّفير وتوقّف الموج عن إلحاحه فارتمى كاي على ظهره. أفاقت ناديا من مفاجأتها فقامت تنظر حولها بحثًا عن شاهد وكانت الطيور وحدها شاهدة.

اقتربت من كاي فساعدته على الجلوس.

- اخلع رداءك. الدماء خضّبته.

احتضن بردياته في شرود فساندته حتّى قام. مشى وراءها فوق الرّمال مقاومًا التعثّر، ينقل بصره بين قتيل سقط وسماء لم تعد تتكلم «لم اخترت ظهري ليحمل الأوزار ويديّ لتتلطّخا بالدم؟ أي ذنب اقترفت كي أصير ملعونًا في الأرض؟ وأي إرث أورثتني؟ قصّة رجل يدعى موسى في قوم من الأعداء البائدين؟».

- يا للعبث!

صرخ بها كاي ثم خرّ بركبتيه في المياه المالحة، رفع البرديات وسط ذهول ناديا.

- ماذا ستفعل إن مزّقتها؟ هل ستجيب عن سؤالي؟ أجبني.

رمقته ناديا في خوف:

- كاي، ماذا تفعل؟

مُعلّمه فاستغفر. خرّت بجانبه ناديا، وضعت أناملها على كتفه، جذبته إلى حضنها. بكى فيه بُكاء حارًا حتى تخللت السّماء بوادر النور فقاما، ضم البرديات منظفًا الرمال عنها قبل أن ينظر وراءه متأملًا الخطوات التي خلّفاها:

. لننزل البحر، سيظن من يقصُنا أننا ركبنا قاربًا.

لفّت ناديا رداءها والتقط كاي جذعًا ألقته الرياح، ربط فوقه البرديات بحبل من اللحاء ثم مدّ يده إليها، نظرت في عينيه بتردد فأردف:

. عليكِ أن تثقي بي.

ألقت أناملها في كفّه فنزلا المياه الباردة، سبحا غربًا وراء الجذع الطّافي حتّى أنهكت رئتاهما فخرجا عند بُقعة قريبة من رصيف الميناء، ارتميا على الرمال يلهثان من فرط الإجهاد. استجمعا قوتهما ففكّ كاي البرديات عن الجذع ثم سارا حتى بحّارة يحملون جوالات من الخيش إلى باطن سفينة تستعد للمغادرة. بعد حديث قصير مع الربّان وافق على ضمّهما نظير الطّعام ورحلة ثلاثة أشهر تقذفهما إلى بلد بعيد. ألقى لكاي قميصًا وأشار للجوالات، وقاد ناديا لمطبخ فيه ثلاث نسوة.

اندمج كاي في رفع الجوالات بخدمات مسحها بالملح حتّى انتهى، ثم صعد إلى سطح المركب وتوارى خلف صار، مُراقبًا البقعة البعيدة التي ترك فيها جسد شاءول. تلك البقعة التي ازدحمت بالفضوليين من بعد الشروق، قبل أن يحضر مُردخاي في موكبه، جثا لدقائق طالت أمام الفتى الصّريع ثم قام يقرأ خطوات القاتلين التي أخفتها مياه البحر، ثم أشار بيده غربًا حيث التيار يجري. وفي سرعة لا تليق بعمره المتقدم اعتلى صهوة جواده ومن خلفه ركض الجند ناحية رصيف الميناء، تفقدوا السفن فأمروا ربانيها بإنزال البحارة فلم يعثر لكاي على أثر. وحين همّ مُردخاي بالرحيل سأل أحد البحارة عن السفن التي غادرت فأشار للبحر:

ثلاث سفن غادرت منذ الشروق.

هز مُردخاي رأسه وضيق جفنيه مسحًا للأفق فلم تتعثر عيناه في صار

☥

☥

☥

بعد الظهيرة تجمّع الناس أمام بيت السيّدة «راعوث» في صمت مهيب، انتظروا خروجها حتى برزت من الباب في رداء أسود تتسند ذراع مُردخاي، بدت متماسكة رغم فداحة الخبر الذي أتاها، تقدّمت الجموع حتى المعبد، صعدت السلالم بصعوبة قبل أن تدلف إلى غرفة تمدّد فيها جسد حفيدها شاءول في تابوت، رفعت الكتان من فوق وجهه، مشت بأنامل ترتعش على خده ثم لامست جبينه في أسى قبل أن تنحني على جرح صدره الغائر، حاول مُردخاي أن يمنعها فزمجرت، ابتعد للوراء خطوة حين سالت دموعها وتحشرج صوتها:

- لقد مر السكين من بين الضلوع إلى القلب، مزّق أسفله، الصغير تألم ألمًا رهيبًا قبل أن يموت. يا شاءول... ماذا فعلوا بك يا صغيري؟

خرجت كلماتها بألم قبل أن تلثم جبين الحفيد وتلتفت لمُردخاي:

- من يستطيع قتل مصارع يا مُردخاي؟ أحد شباب الباليسترا؟

نظر في عينيها بصمت فأردفت:

- تخفي أمرًا.

- لا يا أمي.

ـ والآن تكذب.

صفعت وجهه فأحنى رأسه في أدب وأغمض عينيه، تمالكت نفسها:

ـ مُنذ شهور أدركت أنَّ شاءول يُدفئ فراش ولي العهد، هذا لم يحدث إلا تحت أنفك، لم أعترض، نحن في حاجة لدعم الملك القادم أيًا كانت التضحية، لكن، يُقتل شاءول؟ بسكينه؟ من نواجه؟ من نواجه يا مُردخاي؟

ـ الكاهن الچيبتي.

ـ وما شأنه بشاءول؟

رمقها في صمت فأردفت:

ـ أرسلت شاءول في طلبه فقضى عليه؟

وخزتها الكلمة فقالت والألم يعتصرها:

ـ لم يكن من المقرر أن يحدث هذا، رأس أفعي ينقطع فينمو لها رأس آخر!

ـ لم أكن أعرف أن لمانيتون تلميذًا دنسًا.

صرخت فيه:

ـ لا تنعته بالتلميذ حتى تحز عنقه.

ثم نظرت راعوث لحفيدها ومدّت يدها فالتقطت من صدرها كيسًا من القطيفة، فتحته وأفرغت أوراقًا معطرة مخلوطة بحنوط الأجداد على صدره البارد ثم التفتت لمُردخاي:

ـ لا تُطلع أختك على جسد ابنها.

ـ تكفلت بذلك، أخبرتها أنه سقط مرهقًا بعد مُصارعة.

، وليكن موت شاءول كموت شمشون، هدم المعبد على نفسه، وعلى أعدائه

في اليوم الثالث والسّبعين لموت الملكة وُضع جسدها في تابوت مُرصّع بالأحجار. خرجت الجنازة فخمة مهيبة تليق بفرعون ملك هوّارة، صاحب المصر وقائد أحلاف العماليق في شمال إيجيبت. تقدّم الموكب عازفات النّاي الحزين، حاملات الزهور، ثم جند أشداء يجرّون عربة تحمل التابوت ومن خلفهم «فرعون» على محفّة ذهبية تحت مظلّة، يجلس في جمود وقد خضّب ذقنه المجدول وارتدى حلته البرتقالية الزاهية وتاجه المرصّع بالفيروز. من ورائه جلست وحيدته «راحيل»، ثم موسى، يسير مطأطئًا رأسه في خشوع بين الوفود من رؤساء العشائر وبعض حكّام الأقاليم الجيبتية الضعفاء الذين وافقوا على السجود لفرعون اتقاءً لبطشه من بعد مقتل حاكم الجيبتيين «سقنن راعي».

ما إن انتهت مراسم الجنازة وأغلقت المقبرة حتى عاد الملك إلى قصره وانفضت الجموع. كأن شيئًا لم يكن. اتجه موسى إلى بيت مرضعته السابقة وأمه الحقيقية. استلقى في الغرفة التي أُلقي منها يومًا إلى مجرى النهر. يجتر الحكاية التي أدلت بفكه السفلي إلى الأرض عن امرأة عاشت معه كمربيته حتى بلغ مبلغ الرجال. قبل أن تصير أمه التي بحث عنها في كل يوم.

أغمض عينيه وأنصت للمياه الجارية قبل أن يدخل أخوه هارون، وضع يده على جبينه ففزع:

- عليك أن تفيق من سكرتك يا أخي.

. يهون النوم على أخبار الأيام الماضية.

. وجودك في هذا البيت ليس فيه مصلحتك.

. لم أعد أعبأ.

. كيف لا تعبأ؟ أمير القصر ينام في خرائب بني إسرائيل! ستجر على نفسك وعلينا الشر.

قام موسى ينظر للنهر الجاري:

. لا تخادع نفسك يا هارون، ماتت من كانت تحميني، اليوم عليّ أن أواجه جنون المعتوه وشططه.

. ماذا بعد ادعائه الربوبية وتصديق المخابيل من رءوس العشائر؟

. يكفي أنه السبب في رؤيتي أمي كخادمة لثلاثين سنة خلت.

. كان هذا أفضل من أن تصير طعامًا للتماسيح.

. أريدها أن ترحل عن القصر فورًا. كفاها ذلًا.

. كل شيء بأوانه. ماذا تنوي؟

. ربما أعيش هنا لأرعى ما تبقى من أيامها.

. لن يقبل فرعون وجودك في خرائب بني إسرائيل. الملأ يتربّص بك ليخبروه.

. لست وريثًا محتملًا للعرش.

. رأس العجل منقطع النسل من بعد راحيل، وهو لا يكف عن الفتك بكل من تفوه بكلمة عن ذلك أو جال به خاطره. إن مات فجأة أو قتل..

قاطعه موسى:

- لن أرث عرشًا مخضبًا بالدماء، ولن يؤذيني وأنا على قرابة قارون.

- حتى وإن أخبرته، فقارون لا رب له، خنزير لا يعبأ بقومه، سيدفن كل فرد من بني إسرائيل في مناجمه إن كان في الأمر رضا فرعون أو دراهم إضافية.

ضرب موسى الحائط براحته في عصبية فأردف هارون:

- تمالك نفسك، الغضب خصلة لا تأتينا إلا بالسوء.

- ضاق صدري، قلبي لا يرى نهاية لذلك الجنون.

- لكل طاغية أجل.

- سيُقضى على القبائل بالهلاك قبل أن يهلك، الجيبتيون في الجنوب يزدادون قوة، «كامس» ابن «سقنن راعي» يتوعّد فرعون بالهلاك منذ قتل أبوه في المعركة.

- يومًا ما سيسترد الجيبتيون ما نُزع منهم.

احتد موسى:

- وهل علينا أن ننتظر الهلاك تحت عرش رجل مجنون؟

- أخفض صوتك يا ابن أمّ، ما باليد حيلة، فقد أوتَد في جذوع النخل كلّ من تولى واعترض.

- يكاد قلبي يتفق مع الجيبتيين، فتلك أرضهم سُلبت منهم غدرًا، من يستطيع إنكار مذابح الرعاة عند دخولهم؟ كل ما يُحزنني أن بني إسرائيل سيكونون أول الهالكين، سيدفع بهم فرعون إلى المقدمة ليثبط همم الجيبتيين ويُرهقهم، قبل أن يندفع من ورائهم بجنده وجند هامان ومن ورائهم القبائل المُغيّبة.

- بني إسرائيل يعبدون أصحاب العروش، حتى لو استحيوا نساءهم وأذلوا رجالهم، ثم إذا ذاقوا النعمة تمرّدوا، سرقوا وفسدوا، تلك شيمتهم، لا تنس قتلهم جدنا يوسف طمعًا بعد تحريض رءوس القبائل، والآن يتمسّحون

في اسمه ويتسببون أنفسهم إليه.

. لا أكاد أصدّق أن قارون يُساعد فرعون في سحق المُستضعفين من بني إسرائيل.

. من لا يعرف الرّب لا يُحرّكه الضمير، وقد انقطعت رُسل السّماء من بعد يوسف غضبا عليهم بعد قتله.

. لا تنتظر من الجياع معرفة الرب.

. معيشتك في القصر ربّت فيك عاطفة على الضعفاء، لكن تذكّر، إن العقرب تبدو حشرة ضعيفة، حتى تهاجمك.

. هم في النهاية بشر قست عليهم الأيام.

. إن عشت فيهم ما قلت قولتك. بنو إسرائيل قوم يستحبون العمى على نور النهار. لقد قتلوا يوسف الذي أكرمهم.

. قتلوه لجهلهم.

. بل لطمع في نفوسهم وحقد، ورغبة في المزيد من القوة والنفوذ.

زفر موسى.

. كم أرغب في الرّحيل إلى مكان لا يعرفني فيه أحد.

شرد هارون للحظات ثم ربت على كتف أخيه.

. لم لا تذهب إلى الشرق. يقولون إن من زار معبد «أون» وجد السّكينة، وامتلأ صدره بعلم وحكمة الجيتيين، فكهنتهم لم يُغادروا المعبد منذ غارت القبائل على الأرض الجيتية. يتوارثون الحكمة ويحفظون في صدورهم أسرار السّماء والأرض. اذهب إلى هناك واملأ قلبك وأعرض عن الجاهلين.

- معبد «أون»!

بعد أيام غادر مُوسى هوّارة قاصداً المعبد العتيق عملاً بنصيحة أخيه، عبر النهر قبل أن يقابل سور المعبد، طرق بابًا ففتح خادم، سقى موسى جرعة ماء قبل أن يُغلق الباب من ورائه.

في المعبد قضى مُوسى ثلاثة أشهر، فقد خلالها الشّحم وبرزت عظامه، حلق رأسه وذقنه على طريقة الجيبتيين، مارس الصّوم عن الكلام، ثم بدأ التأمل وتصفية النفس على صوت التسبيح باسم خالق الكون الأوحد قبل أن يتلقى حكمة إدريس المدونة في كتاب «سر الملكوت»، طابت نفسه وسكنت روحه، وبدا له أن تلك البقعة من الأرض الساكنة، هي الملاذ، حتّى أتاه الخبر يومًا مع رسول من هوّارة «ماتت أمك بعد مرض قصير»، بكى مُوسى بُكاءً حارًا على مربيته وأمه، ثم اشتعلت جذوة غضب في نفسه لم تفلح أسوار المعبد في احتوائها، ودّع الكهنة إلى ميعاد قريب ثم اتخذ طريقه إلى المدينة، دخل مُتجنبًا النظرات يُخفي رأسه تحت قلنسوة مُحاولاً ألا يثير الانتباه، اقترب من بيته فالتقط أصداء شجار بالجوار، ثم ميّز استغاثة:

- ها هو موسى، ها قد أتى من لا قِبل لك به.

التفت مُوسى فوجد رجلين يقتتلان ومن حولهما جمع يتكتل، اقترب مُحاولاً أن يتبيّن من يناديه فهرع إليه رجل أمسك بعضده في قوة:

- أغثني من ذلك المعتوه.

- من أنت؟

- أنا رافال، من بني أعمامك، وهذا الرجل من قبيلة الحفدة يُريد أن يفتك بي. (ثم همس:) قبيلة يهودا.

كان ذلك حين اقترب الأخير:

- لا حامي لك اليوم.

- قف مكانك.

صاح موسى في الخصم:

. اغرب عن وجهي إن أردت السّلامة.

اندفع الرجل ناحية موسى الذي تحفّز فاستجمع قبضته ودفعه في صدره. تلقى الأخير الضربة فترنّح قبل أن يسقط على الأرض، بلا حراك. سكتت الجموع بغتة. اقترب موسى من الراقد. انحنى على الصّدر، وضع يده على الأنف فلم يستشعر الأنفاس. تعالت الهمهمات: «قتل الرجل. قضى عليه الأمير بضربة واحدة». تأمل موسى الوجوه التي تحملق فيه، قبل أن يصيح زافرًا في الجسد الهامد:

. حذرتك ولم تستمع فأرداك من لا قبل لك به.

قالها ثم اختفى بين الجموع التي رشقت موسى بنظرات صامتة قبل أن يبتعد.

في بيت أمه جلست مريم في حزن وبين يديها طفلتها الصّغيرة. ما إن رأته حتى قامت واحتضنته.

. أكانت الميتة هيّنة؟

سأل موسى.

. سعال طويل أنهك قواها.

بكى موسى في حضنها وارتعش.

. هوّن عليك يا أخي. رحمها الرب من شقاء لا قبل لها به.

. عاشت سنين تخدمني في ذلك الشقاء.

ابتسمت مريم بأسى:

. عاشت سعيدة برؤياك في كل يوم تكبر في رغد من العيش. لقد فتحت لنا أبواب الخيرات بإقامتك في القصر

خرج هارون من غرفته، احتضن موسى ثم نظر في وجهه:

ـ لم أكن أنوي إرسال الخبر إلى المعبد، لكنك لم تكن لتسامحني. آخر كلماتها كانت تذكرك، وآخر دعواها كانت لك.

ـ أين أبي؟

ـ منذ ماتت أمي أمرته راحيل بعدم مغادرة القصر شفقة على سنّه.

هزّ موسى رأسه ولم يعقّب. التقط جلبة في الجوار فأرهف السّمع خلف شباك مغلق. أردف هارون:

ـ ما بك يا أخي؟

ـ لقد قتلتُ رجلًا.

جحظت عينا هارون وشهقت مريم:

ـ يا إلهي.

ـ ماذا حدث يا موسى؟

قصّ موسى الأمر فرمقه هارون والتاعت مريم وهي تتابع الناس ينظرون من خلف خصاص الشباك.

ـ ويلك يا موسى! أقتلت رجلًا من قوم يهودا؟

ـ لا تلمني يا هارون، إن ما بي من غضب يكفيني لهدم جبل بيديّ العاريتين.

ـ حسبت يومًا أن المعبد سيهذّب قلّة صبرك.

ـ إنما هي مشاجرة دافعت فيها عن رجل يستغيث. سأذهب إلى أهل القتيل، وسأدفع الدية.

ـ اقض ليلتك بيننا، وفي الصباح نتباحث الأمر

في اليوم التالي لزم موسى بيته ولم يبرحه. ينظر من بين خصاص الشباك إلى الطريق الذي خلا من الغرباء المتربصين، حتى توسطت الشمس السماء وإذا بجلبة تتصاعد وصدى عراك، ثم نودي اسمه ثانية، من نفس الحنجرة التي نادته أمس، خرج موسى رغم تحذيرات مريم وصد هارون:

ـ لا تخرج يا ابن أم، ما حدث بالأمس لم يمت

ـ إن كان الأمر قد عُرف فلم لم يقرع أحد باب البيت؟

ـ لا تجعل غضبك يسوقك.

ـ لن أبقى في البيت كالقط الخائف، أتريد أن أوسم بالجبن وهناك رجل يستغيث؟

قالها موسى ودفع الباب، اقترب من الجلبة فإذا براقال ابن العم المزعوم يصرخ وقد أمسك بتلابيب رجل:

ـ يا ابن العم، ها هو آخر يُريد ليفتك بي، يريدون ليكسروا شوكتنا، إن لم تغثني لن تقوم لبني إسرائيل قائمة بعد اليوم.

اقترب موسى فأزاح الخصم من فوق راقال ثم همس بحدة:

ـ ماذا دهاك؟ أتخلق في كل يوم صراعًا؟ أما كفاك الأمس؟

قام الخصم من الأرض واقترب فتحفز موسى ورفع قبضته:

ـ ويلك، أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلًا بالأمس؟

شحب وجه موسى:

ـ أنا.. لا..

. ارتعش يا ربيب القصر، فالخبر يملأ السَمع في المدينة.

نظر موسى في الوجوه المحيطة به ثم رجع لخصمه:

. قد كُنت أدافع عن رافال.

. لقد سمعنا عنك كثيراً، إيثارك للمستضعفين وكرمك فيهم. لكن الآن، انكشف قناعك، أنت لا تريد الإصلاح كما زعمت، أنت تريد أن تكون فرعون الجديد.

رجع مُوسى للوراء خُطوة وانحنت هامته فصاح رافال:

. هذا الرجل يُريد أن يفتك بي، اقتله يا مُوسى.

التفت إليه مُوسى:

. يا لك من غويٍّ لا تتوق إلا الفتنة.

. بل أنت الجبان تتراجع عن نصرة لحمك.

حدجه موسى بغضب ثم انسحب.

بعد ساعات انهال الطرق على الباب حتى فزع أهل البيت. فتح هارون فوجد «حزقيل» قريبًا ذا شأن يعمل في قصر الملك:

. أين موسى؟

قالها بهمس فجذبه هارون وأغلق الباب قبل أن يخرج موسى من غرفته. نظر إلى حزقيل:

. أقتلت رجلًا يا موسى؟

قال موسى:

ـ إنما هي دفعة أفضت إلى موت.

أردف حزقيل:

ـ القتيل هو حاران؛ أحد أبناء عم هامان من قبيلة يهودا.

امتقع وجه هارون:

ـ رحمتك يا إلهي.

ـ يجب أن ترحل عن المدينة.

قال حزقيل:

ـ بل سأواجه ما اقترفت يداي.

أمسك حزقيل بتلابيب موسى:

ـ اسمعني جيدا، للتو أتيت من قصر فرعون، كان الملأ مُجتمعين وكُنت موضع الحديث، يذكرونك، يأتمرون بك، يُوغرون صدر الملك ويطلبون الثأر للقتيل. الخلاص منك بات أمرًا محتومًا وقد قدمته لهم على طبق من ذهب، يُريدون أن يستأثروا بصاحب العرش، فكلما طال الأمد بنساء لا تنتفخ بطونهن توحشوا كالضباع.

همس هارون:

ـ يقتلون الأميرا حتى وإن دفع دية؟

أجاب حزقيل:

ـ التخلص منك أسهل في غياب الملكة، كما أن زيارتك لمساكن بني إسرائيل استفزاز لصدورهم.

ساد الصمت لحظات قطعها حزقيل:

. الوقت يمرّ.

قالت مريم التي وقفت قُرب الباب:

. ارحل يا أخي، ارحل، لا أشتمُّ خيرًا حين أسمع اسم هامان، ذلك المُداهن الخبيث، سيقتلك كما يقتل سيده الضعفاء، بلا قلب.

. إلى أين يا مريم فالأرض تضيق من حولي؟

. عُد إلى معبد «أون».

صاح حزقيل:

. لن يكون «أون» آمنًا، لترحل شرقًا حيث تضعف قبضة فرعون.

. إلى متى؟

قال هارون:

. حتى ينكشف الغم أو يأتي الفرج من الربّ.

نظر مُوسى لأخيه ولمريم:

. سأرحل.

. اغتنم البدر، سر في ضوئه قبل أن يخرجوا في طلبك.

دخلت مريم إلى غرفتها ثم عادت بثمرات في صُرّة. قبّلت جبين أخيها الذي تندّى عرقًا فقبّل يدها بدمع محبُوس ثم شكر حزقيل واحتضن هارون بحرارة، قبل أن يرحل، شرقًا.

. حسبتك خَصيًا.

زفرت ناديا وهي شاردة في انعكاس القمر على سطح المياه فتوقف كاي عن الترجمة. التفت إليها مندهشا فأردفت:

. حين نزلت البحر رأيت جسدك دون قصد.

. ليس كل الكهنة خصيانا.

. ولم لم ترد كلماتي في الحانة؟

. ليس بك حاجة أن تعرفي.

. لم أكن أعرف أن الكهنة يتنقمون بالكلمات!

. الانتقام شهوة لا تروقني.

. ما بال قتيل الشاطئ؟

. هو من اعتدى، قد رأيت بعينيك.

اقتربت فجلست بقربه، تأملت ملامحه

. أنت هالك لا محالة.

. ما قلّ ودلّ.

. شاءول هو ابن أخت رئيس الخاصة الملكية.

. إبن أخت.. مردخاي؟

. خيرة شباب حي دلتا، ما شأنه بك؟

سحب كاي شهيقه بصعوبة.

ـ هذا الشّخص قتل مُعلمي، الكاهن الأكبر لمعبد الأسوار السّبعة بسمنود.

ـ حين رأيتك أول مرّة عرفت أن وراءك أمرًا مريبًا. هذا ما يحملك إذن على ترجمة تلك البرديات؟

ـ آخر ما ترك معلمي وسبب مقتله.

ـ أتحوي سحرًا أم مؤامرة؟

ـ قصّة رجل عاش منذ ألف وثلاثمائة سنة بين قبائل الغزاة الشرقيين. رجل يُدعى موسى.

ـ موسى؟ ولم يقتل رئيس القصر كاهنًا من أجله؟

ـ ذلك ما دفعني للترجمة، أن أعلم السبب.

ـ تعلم السبب! أنت في قلب متاهة كمتاهة الملك، تتقصّى أثر قاتل عن طريق ترجمة إضمامة برديات تحوي قصصًا بائدة! ذلك عين الجنون. لقد نلت انتقامك وشققت صدر من قتله. الآن عليك أن تنجو بما تبقى من حياتك.

ـ ليس للانتقام مكان في قلبي، إنما الرغبة في إتمام وصية مُعلمي وكشف ما كانوا يسترون. لقد أوصاني بذلك في الحلم.

تغضّنت جبهة ناديا:

ـ حلم! أتتبع حتفك بسبب أضغاث أحلام. أنت ذاهب العقل.

ـ ما أتاني لم يكن حلمًا، بل رؤيا تتحقّق في كل يوم.

ـ دجل الكهنة ومُريدي الإله. كنتُ أظنني هاربة إلى مصير أفضل.

لملم البرديات واستلقى على ظهره المليء بالكدمات فأردف:

ـ نويت مُساعدتك حتى تلتقي والدك. لكنك أتيت في لحظة فارقة. أنا مدين لك بحياتي.

أنهت تجديل شعرها في ضفيرتين واستلقت بجانبه تنظر للنجوم ثم قالت ببحّتها المميزة:

. كيف كانت حياتك وراء أسوار المعبد؟

. أن نخدم الإله ونساعد الناس هي غاية الغايات.

. ألا تراودكم الأحلام بالفتيات؟

نزل عليه صمت الكهوف لحظات، ثم أردفت:

. أم إنكم في المعبد تفعلونها..

قاطعها:

. لا، لسنا كذلك، وبعضنا يتزوّج

. وأنت، ألم تتبع هواك يومًا؟

. الهوى ضعف، عصارة تخالط الدم فيعمى العقل.

. ذلك ظنّي، هو مرض يزول بزوال العاشق، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب.

ثم ساد الصمت حتى أردفت:

. هل..؟

قاطعها كاي

. في المعبد الوقت كله للربّ

. وكيف عرفت أنه ضعف؟

- ليس عليك أن تضعي يدك في فم التمساح لتعرفي أنه سيقضمها!

- تُشبّه الهوى بفم تمساح!

- ربّما خانني التعبير.

- الهوى كالجوع والعطش.

- عشت أياما دون ماء أو طعام.

- قلت أياما. لا أتصور حياة دون هوى.

- أنت أدرى منّي.

- كلماتك تحمل ازدراء!

- لا أقصد شرًا.

- لا ألومك. فأنت ذكر. ولا تراني إلا متاعا للرجل.

- نحن سواسية أمام الرب.

- الرّب ذكر. لم يختر رسله إلا من الرجال.

- لأن عصارة العاطفة لا تغادر أجسادكن كما تغادرنا حين ننتشي. منكن

ما نحن إلا حاويات للأطفال.

- الرّب أزليٌّ لا يحتاج لولد.

- الرجال لا يعاشرون النّساء من أجل الإنجاب فقط.

. أنت مشوّشة.

. وأنت خائف مما قلت.

. راودتني الأسئلة من قبل أن أعيش في المعبد ولم تزل.

. أتجد إجاباتك مقنعة؟

. أحسبها كذلك، حتّى تنجلي الحقيقة. الروح دون الإيمان، كالغريق في قلب مياه متلاطمة.

. لا أنكر أن أيام الإيمان كانت مريحة.

سكت الكلام فرفع كاي عينيه إلى السماء السّاكنة. تذكّر ليالي سمنود حين كان يتسلق سور المعبد ليستلقي فوق سطحه، يتأمل النجوم والخطوط الخفية التي تمتد بينها. تتصل ثم تنبض، ترسم نهرًا وحيوانات وجنودًا وساحات معارك ورماحًا. الآن، باتت ترسم فتاة، خمرية، وحشية، كالفرس الحرون. تتثنى أفلاكها بلا لجام. الهلال ضحكتها والشّهب خُصلاتها. تنفث النار في العروق ثم تضفرها بأناملها الصغيرة في براءة. فتصنع عقدة تستعصي على بحّار. «لقد وهبتني يومًا آخر في الحياة بعدما تركت عشيقًا شهيقه زفيرها، وصدره أرضها، كي تشاركني رحلة موت في بحر مظلم! أما كان لها أن تأتيني المعبد في سلام لتقدم النذر والصلوات فنلتقي أرواحنا بعيدًا عن برك الدماء؟ وراء النخيل الباسق، خلف السّواقي الضّخمة وعلى ضفاف البُحيرات. أستلقي بجانبها، ثم أسير على فوهة العشق ثم... ثم أهوي في عينيها بعد أن يمزقني رمش من رُموشها. أغرق، أتلاشى، بلذّة، وبطولة يسردها العشّاق، وتلعنها جدران المعابد. قصّة عجيبة عن كاهن تتبع نور الرّاعي حتّى كاد يحترق، ثم غشيته جنيّة. في أهدابها عطر يصرع غيلان الصّحاري.

تلامست الأصابع فلم تتنافر. نظر إليها فالتفتت. ابتلع ريقه فابتسمت. استندتْ على صدره بجرأة لبؤة. اقتربتْ. نظرت في عينيه فأغمضت. ثم تركت شفتيها فهوت بثقلها على شفتيه في قبلة أنسته أسوار المعبد والبرديات والبحر والنجوم والظلام، وكاي منذ وُلد حتّى لحظات فاتت. أضيئت السماء بشهب لها وهج وفارت المياه فشقّت قاع البحر عن سمك له العجب. ثم ابتعدتْ. راقبت عينيه اللتين فتحهما باسترخاء. حدقتيه اللتين اتسعتا. ثم ابتسمت بدلال، ودون

أن تلتقط أنفاسها، ودون أن ترحم همست:

- هل تريد واحدة أخرى؟

كان ذلك قبل أن تلتقط أذناه صوت مجاديف تصفع المياه وجلبة بين البحّارة. قام فلمح سفينة كبيرة تشق البحر الهادئ، متجهة نحوه. استيقظ بعض النائمين فتوارى كاي وناديا خلف بكرات الحبال الضخمة وعلا السّطح ربّان السفينة. نظر في عدسته ثم التفت لمساعده:

- ألق المرساة واحضر الرّجال. إنهم جند الملك.

اندفع الدم إلى رأس كاي. نظر لناديا التي تملّكها الهلع:

- لا مفر. سيدركوننا.

بكفّيه أحاط وجهها:

- أيًا ما كان، لا يجب أن يحصلوا على البرديات.

- ستهلكنا أحلام كاهنك. ألقها في الماء إن كان فيها مماتنا.

- بل سأتركها معك. إن لم يعثروا عليّ فسيظنونني قد هلكت وبردياتي. هم لا يعرفونك. أخفيها في مكان لا تفصحي لي عنه حتى لا أضطر لإفشائه إن عذبوني.

- لا تتركني.

- أنت وحدك خير من وجودي معك.

ترك البرديات بين يديها ثم شدّد على كلماته:

- إن لم أنجُ، أودعي البرديات معبد «أون».

. وكيف سأجدك؟

. أنا من سيجدك.

قالها ثم التفت للسفينة التي ميز وجوه بحارتها على ضوء المشاعل التي يحملونها:

. سامحيني، فالأمر أكبر مني وأعظم.

. كاي!

ارتعشت ابتسامته فشدد على أناملها:

. عليّ أن أذهب.

نزل من السطح بين زحام البحارة المتراكمين أمام السور، يتابعون سفينة باتت على بعد أربعين ذراعًا، التف في سرعة مخفيًا وجهه حتى بلغ الجانب الآخر، نظر حوله ليتأكد من خلو الممر في اللحظة التي ألقيت فيها الحبال بين السفينتين، تسلق السور وخرج مستمسكًا بجداره، اختبر بعينيه المسافة بين ساقيه والمركب الصغير المربوط إلى السفينة، حين التقطت أذناه صوت عارضة خشبية ترتطم بالمتن وأحذية رجال الملك تعبر فوقها، قفز، سقط على حافة المركب فتأذت ضلوعه، تمالك نفسه فتدلى برفق إلى البحر مستمسكًا بالحافة، ما هي إلا لحظات والتقط الجلبة، بحارة الملك يفتشون، يفرزون وجوه الرجال وأمتعتهم، ثم ساد السكون، تمنى أن تكون ناديا قد أخفت البرديات، تمنى ألا يرى جسدها طافيًا بجانبه، تمنى لو كان الراعي قد أمهله الوقت لينهي الترجمة، ثم اقتربت خطوات فردد كاي متن الاستغاثة ونزل في الماء حتى فمه، قفز شخص إلى متن المركب الصغير فسحب نفسًا وغاص كلية في المياه، ميز شبحًا يقف فوقه ناظرًا إلى المياه الساكنة، لحظات طالت حتى ثارت رئتاه، ألم ضرب صدره في نبضات، خنق عنقه، وفجأة امتدت يد غليظة فأمسكت بردائه، قاوم كاي حتى انقبضت رئتاه فرفع رأسه طلبًا للهواء:

. أين البرديات؟

سأل صاحب اليد الغليظة.

. وقعت مني في البحر حين قفزت.

أجاب كاي،

. أتريد أن يصير جسدك طعاما للأسماك؟

لم يُجبه كاي فرفعه الغليظ رغم المقاومة صائحا بأعلى صوته:

. لقد وجدت الكاهن.

بعد دقائق غادر كاي السفينة، مربوطا إلى سارية مكمم الفم. يتابع بعينيه قناة خمرية يأكلها القلق.

☥

☥

☥

منتصف الليل.

القاعة الخضراء بقصر الملك فيلادلفيوس.

رغم غلظة الباب المذهب تسرب الصخب إلى جوانب القصر. اربعون ضيفا جمعهم حسن الحظ تحت ضيافة الملك في حفل توديع الأميرة برنيكي قبل سفرها إلى أرض السلوقيين بسورية؛ للزواج من ملكهم أنطيوخوس الثاني، غريم الملك سابقا ونسيبه حاليًا. حضرت الأميرة في ثوب أزرق مزركش وعلى رأسها تاج اللآلئ الموروث عن جدتها، جلست فوق كرسيها بأنفة. يحّمن حولها الصديقات والقريبات كالنحل حول وردة فواحة. متنزهة عن اللّهو تقابل المجاملات والدعوات بوجه متجهم وابتسامة فاترة. انتظرت حتّى أغدق الجمع هداياه تحت قدميها ثم انسحبت بغتة أثناء رقصة بليستيش عشيقة أبيها، بعد أن رمتها بنظرة احتقار. نظر الملك للحاضرين وابتسم:

صغيرتي خائفة من الحياة الجديدة. تفتقد أمها كثيرًا.

ثم سكب كأسه على الأرضية المرمرية وترحّم على أيام الملكة الراحلة، قبل أن يندمج بين الناس.

بعد منتصف الليل لم يتبقَّ إلا جمع قليل من المقرّبين، ضربتهم الجعة حتى تدلت الفكوك ضحكًا وفاضت الكلمات، يتمايلون على أنغام الناي الساحر حول مائدة مستطيلة أضاءتها الشمعدانات. تحمل فوق أطباقها كل كائن حي عدا

اللوتس الأزرق في آنية النبيذ المذهبة، يتمّون بأخبار الرعية ويلوكون سيرة الملوك وأنباءهم، حتى أعياهم الصخب وهبط عليهم الصمت كشباك الصيادين فوق الحيتان، تلك اللحظة التي يستغلها مُردخاي ليُعلن عن مفاجآته الخاصة التي تُرضي مزاج الملك وضيوفه. صفّق فالتفت الرءوس المترنّحة وانسحبت فتيات الضيافة خلف الستائر.

. اسمحوا لي أن أحكي قصّة

..لتكن قصّة تستحق آذاننا.

قالتها بليستيش فضحك الجمع، كزّ مردخاي أسنانه ونهرها الملك بنظرة، لملمت ثدييها ورفعت كأسًا إلى فمها مقاومة الضحك حين أردف مُردخاي:

. إنها كذلك.

سكت الجمع كالتماسيح أمام شعلة نار، استطرد مُردخاي:

. حين أتيت إيجيبت، كان عمري عشر سنوات، ترعرعت في حي دلتا أمام ساحل البحر، أعمل في دكان والدي صباحًا، وأحصّل العلم ليلًا تحت ضياء الشموع، وأتقصّى حقيقة ذلك البلد الذي عاش فيه أجدادي قرونًا طويلة، وساهموا في بناء حضارته تحت نير القدماء، رغم ذلك لم أنكر انبهاري برجالاتهم، فأكثر ما كنت أصبو إليه كان دراسة كتبهم، واكتشاف خباياهم المليئة بالأسرار، حتى تعرّفت بكبير لهم علّمهم الطب والعمارة والنحت وعلم الأفلاك، إيمحوتب، وإذا بي أقف أمام رجل ليس في دمائه همجية أهل ذلك البلد، رجل يعني اسمه «الذي جاء في سلام»، تاريخ حافل بالمعجزات ونبوغ يفوق الوصف، أتى ورحل دون أن يترك ألمًا أو صخبًا، أو برديات أو قبرًا، فقط اختفى بغموض كما ظهر، وترك من ورائه تعاليم نهل منها علماء المعمورة، وآلاف التماثيل التي تخلد ذكراه، وبقي السؤال، أين قبر ذلك الرجل؟

أجاب أحد المدعوين:

. كيف لإله أن يكون له قبر؟

أشار مُردخاي للحارس ففتح الباب أمام أربعة عبيد يحملون تابوتًا من توابيت القدماء، وضعوا حملهم على مائدة كبيرة

فقام الحاضرون مقاومين الترنّح حين أشار مُردخاي بيده:

. تلك أرض السّحر، ما تخفيه بباطنها أكثر بكثير مما تَظهر. أقدم لكم، إيمحوتب العظيم.

رفع العبيد غطاء التابوت عن جسد ملفوف بالكتان على الطريقة الجيبتية، تفوح منه العطور كأنه أغلق على صاحبه بالأمس. طار النبيذ من العقول وتحفزت الأعين فتلاحقت الأنفاس، اقترب الملك يتأمل الجسد الملفوف بالكتان:

. مُردخاي! أهو هو؟

. أعين رجالنا لم تتوان يوما عن تتبع آثار القدماء.

قال ديميتريوس فاليروس أمين المكتبة:

. ولكن، إيمحوتب بين النجوم إله؟

أجاب مُردخاي:

. إله مشى في الأرض بجسد من لحم، ثم تركه كما نترك ملابسنا ليصعد بين النجوم

بعد تردد لامس الملك الوجه الساكن خلف لفائف الكتان:

. لكنا لم نر قبرا لإدريس أو حورس أو إيزيس!

. ما زالت في الأرض أسرار لم تُكتشف.

وقال إقليدس:

. نعبث بجسد إله! هذا عيْن الجنون!

أجاب الملك:

ضحك الجمع فضحك إقليدس ثم رفع كأسه تحية لدعابة الملك حين أردف مُردخاي:

. إن أراد الإله طمس جسده في أعماق الأرض أو في قمم الأوليمب لما وجدناه، بل تركه لمن يستحقه.

. يستحقه؟

قال مردخاي وهو ينظر للملك:

. إله مثله.

قالت بليستيش:

. لأجساد القدماء حرمة لا يجب أن تُنتهك.

عقّب الملك:

. يُستثنى من ذلك ظلال الآلهة على الأرض.

أردفت:

. كم من بحّارة غرقت سفنهم حين حملوا الأجساد المحنّطة إلى بلادهم.

ابتسم مُردخاي:

. ما قلته صحيح يا.. سيدتي. لكن من قال إننا سنحمل ذلك الجسد إلى بلد آخر؟

ساد الصّمت فأخرج مُردخاي سكينًا رفيعًا من حزامه.

. ذلك الجسد سيستقر في وطنه.

قبل أن يستوعبوا ما قال اقترب من الجسد فشق اللفائف من فوق الصّدر بث الكتان عبقه في الأنوف فابتعد البعض

أزيح الكتان ليظهر وجه إيمحوتب، تدلت الفكوك وتمشت الهمهمات بينهم فقال الملك:

. إله وسيم.

قالت بليستيش من خلف كتف الملك:

. كأنه مات بالأمس.

اقترب إقليدس ففحص الوجه والصدر:

. أظنه مات في العقد السادس.

سأل الملك:

. أين وجدت المقبرة يا مردخاي؟

. شرق مدينة هليوبوليس، مطموسة تحت الرمال، تتبعت أثره في جدارية حفر عليها ما يفيد بأن إيمحوتب العظيم سار بجسده شرقًا ليقابل قرص الشمس.

قفز إقليدس:

. هل انتهك القبر؟

أجاب مردخاي:

. أختام الأبواب في أماكنها، والكنوز جار حصرها

قال ديميتريوس في لهفة:

. ماذا عن البرديات؟

لامس الملك أصابع إيمحوتب:

- إذن لم يبق من ذلك الجسد سوى أحلام؟

دس مُردخاي سكينه فشق عظام الصدر الهشة فضرب الذهول الحاضرين. صرخت بليستيش وأخفت المحظيات أعينهن خلف الستائر.

- ماذا تفعل؟

استنكر ديميتريوس.

بلا كلمة أزال مُردخاي الضلوع. أصدرت طقطقة جافة بثت القشعريرة في النفوس. ثم مد يده وأخرج كتلة متحجّرة شاحبة في حجم قبضة طفل. التقط كأس النبيذ الذهبي من يد الملك:

- اسمح لي يا مولاي.

قبل أن يستوعب الملك ما قال أسقط الكتلة في كأسه. عكرت السائل فمال للسواد قبل أن يرفعه:

- لا يرث قلب الإله إلا إله.

نظر الجمع للملك فقال إقليدس في توتر:

- للقدماء لعنات لم نعرف كنهها. لا أحبذ أن يتجرع مليكي تلك الكأس.

نظر إليه الملك ثم لأعين المقرّبين. لمس فيهم الترقب والاختبار فابتسم في استخفاف مصطنع. ثم رفع الكأس ودس سبابته المزينة بخاتم ذهبي وفتّت الكتلة المتحجرة قبل أن يتجرّعها دفعة واحدة. ساد صمت قطعته بليستيش:

- إن مرض الملك فعليك وزره

أجاب مُردخاي دون أن ينظر لها:

. فطر التحنيط يمنع الجسد من الفناء، الملك للتو اكتسب قوة إله.

قال الملك:

. ستكونين أول من يشعر بقوة الإله يا عزيزتي، لا تخبري المحظيّات حتّى لا يحسدنك.

ضحك الجميع عدا بليستيش التي رمقت مُردخاي بتقزز ثم انسحبت حين أردف الملك:

. للملك قلب الإله، وللأصدقاء باقي الجسد.

ثم التفت لإقليدس مداعبًا:

. أنا أعرف عمّا ستبحث يا صديقي، لكنه للأسف أوّل ما يتآكل.

ضحكوا ثم اقتربوا من المائدة، فكّوا الكتان الملفوف وأعملوا سكاكينهم في الجسد المُستسلم، قطّعوا اللحم الجاف المتخشب، غمسوه في النبيذ وشربوا، وانتشت الوجوه إيحاءً بالقوة المكتسبة، ثم علت الضحكات، وخرجت المحظيات من خلف الستائر ونفخت النايات. ساد الصّخب حتّى ضحك الملك وربت على كتف مُردخاي:

. وأنت، ألن تأكل؟ أم إن لحم القدماء يحمل ذكرى طردكم من ذلك البلد؟

. بل في عروقي تجري دماء جرت يومًا في ذلك الجسد.

. ماذا تقصد؟

ملأ الأسى وجه مُردخاي:

. إيمحوتب، لم يكن سوى أحد أجدادي.

. أجدادك!

. كان اسمه «يوسف»، وكان يُفسر الأحلام. عمل تحت ملك بائد يُدعى «خيان» كامين على خزائن القمح. قبل أن يأتي

بقبيلته إلى أرض الفيروز حيث عشنا وتكاثرنا وبنينا المدن.

. لكن! قوائم مانيتون عن ملوك الجيبتيين بكتاب «الجيبتيكا» أقرت بأن إيمحوتب جيبتي، عاش في الأسرة الثالثة!

. كان ذلك قبل أن نعثر على «لوحة المجاعة» التي أعدنا تدوينها باليونانية. قرأنا فيها عن انحسار النهر واقتراح إيمحوتب وزير الملك حينئذ ببناء معبد قرب الشلّال الأول، ممّا أعاد للنهر ارتفاعه.

. وما كان مصير إيمحوتب قبل أن يصبح إلهًا؟

. اغتاله الجيبتيون غدرًا..

. انتظرا هل تقصد أن مانيتون...؟

قاطعه مردخاي:

. نعم يا سيدي، تلاعب بالتواريخ والأسماء ليطمس آثارنا. الحنق منعه من تقبّل أن إيمحوتب اليهودي هو أول من بنى هرمًا في تلك الأرض.

. أذناي لا تكادان تصدّقان أن مانيتون قد يتلاعب بالكلمات!

. الشكر للرب أننا أيقنا الحقيقة قبل فوات الأوان. فللكاهن مصداقية كمصداقية الملائكة عند الجيبتيين.

أطرق الملك إلى الأرض لحظات ثم رفع رأسه:

. البوح بمثل ذلك السرّ سيثير غضبة الدهماء. اتركهم في إيمانهم. فالإيمان مريح.

. إنها كلمات الحكمة يا سيدي.

. لكن يا مردخاي! أنت للتو قدّمت لنا جسد أحد أجدادك؟

. يسري الجسد في جسد آخر فيحيا بعد موت. ذلك تكريمه، وصدر مليكي خير من تربة ذلك البلد الذي استعبد قومي

قرونا.

ابتسم الملك:

.أنت شيطاني المفضل.

انحنى مردخاي في تواضع حين اقترب منه أحد الحراس، أسرّ في أذنه بكلمات فهزّ رأسه وانسحب بعدما انحنى للملك

احتراما.

☥

☥

☥

وحيدة في سفينة تترنح بعرض البحر جلست، ضامة ساقيها إلى صدرها على أرض خشبية بمطبخ متهالك، تضرب رأسها في جدار متشقق الأخشاب خلفها، قلبها يضطرب من فرط الضعف والضياع، وعيناها تتأملان حروف البرديات العتيقة التي لا تفقه منها شيئًا. أغمضت عينيها للحظة فالتقطت أذناها خفيف الأقدام. اللعنة! ها هي قد جاءت، ترمقها من خلف الجوالات بابتسامتها الساخرة، تلك العاهرة المستفزة! لا تأتيني إلا في أوقات وجب فيها أن تختفي نبرة صوتها المتقعرة، نظراتها الساخرة، حكمتها السليطة. «ارحلي عني!» صرخت ناديا فلم تستجب، ولن تستجيب يومًا. «اقتربت مني على أطراف أصابعها، بخطوات راقصة، ترفع يديها في الهواء وتميل برأسها فيسري الخدر في جسدي أنا. تضحك بصوت يزلزل أعضائي، ثم تمسك برقبتي وتقرب فمها الذي يشبه فمي يطابقه، تلحس شحمة أذني في استمتاع ثم تنفث همسًا ساخنًا يجري في الأوردة حتى يصل القلب فيتخلله بقبضة»

- كاهن غريب الأطوار يخمش قلبك بسلاسة، يريح آرام. ماذا كنا نسميه؟ آه، ثقيل الظل، تلبثين في صدر تاجر الكلاب سنين حتى تظني نفسك ذراعًا في كتفه، أو أصابع في كفه، ثم تسلمي شفتيك بلا مقاومة لساحر تربى في معبد، ثم تستائي حين يسمونك بالعاهرة! السكر للرب، فعلى كل حال هو ليس بخصي.

صرخت ناديا:

- يا لك من عاهرة.

. ترمين من حولك بما فيك.

. لم أهو يوماً آرام، أنت من دفعتني نحوه.

. لست أنا من أذقته أعز ما تملك فأدمن رحيقنا. لا تنفكين تلقين باللوم على من حولك وتنسين أنك الداء.

. وهل كنت أملك إلا الرضوخ والإذعان؟

. كم تجيدين التملص! وما بال الكاهن؟

. ربما هو حُب صادق.

. بعد ثلاثة لقاءات؟

. القلب تضطرب دقاته في لحظات.

. قلت ذلك الكلام لآرام يوماً. كنت تعنينه أم تصبغين نفسك بالعشق الزائف رغبة في الحماية؟

. لم أكن ما أنا الآن. كنت غضّة غريرة، يغويني معسول الكلام ولو من فم كلب. ولم يكن لي كفيل ولا ضامن، وقد نالني سنين حتى بعدت الأحلام ونفر جسدي.

. السّأم أفتك. وقبلة كاهن منبع من سخاء الإله. انتصار جديد لغرور أنوثتك.

. أنوثتي لعنتي.

. أنوثتك هي ما أبقتك حيّة. ستسأمين منه وتلفظينه ثم تبحثين عن آخر يروي أرضك التي لا ترتوي.

. لم يعد بي رغبة في البحث. أنا أريد رجلاً صالحاً.

. الصالحون لا يتحملون نوباتك العاتية.

[illegible]

- من سمع يومًا عمّن ذهب مع رجال الملك ثم عاد؟

- اصمتي.

- تخرجين من حفرة لتقعي في بئر.

- شيء أكبر منّي يحرّكني.

- إن كنت تقصدين تدابير الإله فأنا أول الكافرين.

- أنت أحلامي السوداء.

- أنا من يُنجيك في كل كبوة.

- أكرهك.

- تكرهين ناديا؟

- اغربي عنّي.

صرخت بها ناديا فاختفت كما جاءت. ضربت رأسها في الجدار وكزّت أسنانها فانفرطت الدموع ساخنة تحرق خدّيها، تبكي نفسها وكاي. تستعيد قُبلته، لمعة عينيه وهو يُوصيها بالبرديات، نظراته إليها وهم يربطونه بالساري الخشبي، ثم ابتلاع الأفق أثره، إلى مصير مجهول، كما قالت العاهرة التي تقتحم رأسي كلما انفردت بنفسي.

☥

☥

☥

يتحاكى كل من رآها عن جفونهم التي عجزت عن الرف، صدورهم التي أبت التنفس، وقلوبهم التي نسيت النبض، عن نعومة جسدها، تلويه بانسيابية، عن الإعجاب الذي يمتزج بالفزع، ثم عن السحر الأزرق الذي تبثّه حولها فتنطفئ الأعين في ظلام سرمدي، آلام لا حدود لها، رعشة تزلزل الكواكب، تخلخل العقول، لحظات كأنها سنوات، ثم يأتي العفو فتكف، الخدر يتغلغل في الأوصال، سلام وسكون، موت مقنع لا ينقصه أكثر من شاهد قبر.. ثم تتسلل الحياة ثانية، كحيّة تسعى، وتعود الأصوات بخفوت، يتسرّب الضوء للعينين، الشمس تبدو شمعة، الشخوص الواقفة لا ملامح فيها، ثم تستجيب الآذان لهمسات تستحيل كلمات، مبهمة ثم تتضح، وبعد لطمة، تتركب الحروف على بعضها لتصنع كلمة:

«كاي».

في القبو الخانق حاول كاي استيعاب اسمه، مستلقيًا في الحوض الحجري مكبّل اليدين، ومن حوله ثلاثة أشخاص، أحدهم يحمل هراوة غليظة، وآخر يمسك بشبكة تتدلى في وعاء زجاجي كبير، أما الثالث فوجه لا ينسى، يجلس القرفصاء في إعجاب ليتأمل ذلك الكيان الأسود الذي يتلوى في الوعاء، التفت حين أدرك استفاقة كاي فاقترب، حكّ الأنف بهدوء ثم همس:

- أين البرديات؟

نظر إليه كاي محاولا منع عقله من تسريب الكلمات، ثم لاحظ من خلف الغشاوة إبهام مردخاي الغليظة مدكوكة

الظفر، يسمونها في علم الكف إبهامًا «بحراء»، صاحبها شديد التطرف، إما ملاك من ملائكة الراعي، وإما شيطان مريد من أعوان «ست»، رمقه مُردخاي مبتسمًا:

- يُحكى أن أفلاطون منذ ما يزيد على مائة عام دأب على الجلوس وقت الفجر في حوض مثل ذلك الحوض، يملؤه بالمياه، ثم يأمر خادمه بإدلاء الرِّعّادة في شبكتها قُرب رأسه، تتلوى قليلًا ثم تبث صاعقة الإله، للحظات قصيرة، قبل أن يرفعها الخادم بشبكتها، يفيق أفلاطون من الصّاعقة بعد دقائق، لتتدفق الحكمة من فمه كالنهر الهادئ إلى آذان تلاميذه، أتعرف أشهر مقولاته؟

نظر كاي إلى حامل الوعاء وسمكة الرِّعّادة التي تتحرك فيه بثقة، أردف مُردخاي:

- من يأبى اليوم قبول نصيحة لا تكلف شيئًا، سوف يضطر في الغد إلى شراء الأسف بأغلى الأثمان.

قاوم كاي تشنجًا في فكّه:

- قلت لك إني فقدت البرديات أثناء هُروبي من الحانة.

- أتحب أن نسأل أمك عنها؟

- هي لا تعرف أخباري مُنذ غادرت سمنود.

- لم لا تقص عليها قصتك المثيرة؟

قالها مُردخاي فأشار لحامل الهراوة فخرج للحظات قبل أن يدخل وفي يده أم كاي، مكبلة اليدين مكمّمة الفم، انتفض كاي حين رآها وقرأ الألم في ملامحها فانشرخ صدره، دفعها الحارس فسقطت على ركبتيها المشتبن، نظرت لابنها فبكت، قاوم كاي الحبال في يأس:

- أمي، انظري إليّ، انظري إليّ، اهدئي، سيكون كل شيء على ما يرام.

ثم التفت لمردخاي متضرعًا:

- وحق الرّاعي لا ذنب لها.

- شاءول أيضًا لم يكن مذنبًا.

- كان يسعى لقتلي وكنت أدافع عن نفسي.

- لو أدركت قدر من قتلت لرضيت بالموت على يديه.

- إذن اقتلني واتركها.

صرخت أم كاي صرخة مكتومة من خلف اللثام فهمس مردخاي:

- ارأف بأمك، فرحلتها لم تكن مُريحة من سمنود إلى هنا.

ثم التفت إليها:

- لتهدئي يا سيدتي، فقد أنجبت فخر الرجال، إنما وجودك هنا لتذكّري صغيرك بطفولته السعيدة.

نظر كاي لأمه:

- اتركها، وسأبحث عن البرديات حتى أجدها.

أردف مُردخاي همسًا في أذنيه:

- تستطيع أن تذهب إلى الفناء وحدك، أو تذهب بصُحبتها، وأعدك ألا تكون آخر لحظاتها سعيدة.

أجاب كاي بعد صمت:

- إنها قصّة ذلك المدعو موسى، تحمل عارًا تريد أن تمحوه.

- آه.. قد قرأت إذن، حسنًا، لا بد أنك تعرف أن الكذبة هُم من يحملون العار، كاهنك الأعظم أراد تشويه ماضينا.

ـ لم يكن الكاهن ليفتري على الراعي كذبا.

ـ لا ألوم عجزك عن رؤية النهار، فقد تربيت خلف الجُدران الحجريّة، نعجة أخرى تسير خلف القطيع. لا تعلم أن مُعلّمك قد أكله الحقد بعد ما بادت دولتكم وغربت شمسها. لم يعد في يديه سوى الدّس والتحريف ليسترجع مجداً اندثر، ومكانة كهنة تدفنها رمال الزمن. كتب الرسائل السرية وأرسلها للملك. حرّض العامة بالأباطيل والأكاذيب. وأخيراً، خطّ في كتابه ما يمس نبينا المُرسل.

ـ نبيّكم؟

ـ نعم، إن موسى نبينا، وكاتب توراتنا التي يُشكّك مُعلّمك في أصلها. أنت تحارب الربّ دون أن تدري.

ـ أي رب تقصد؟

ـ رب إسرائيل.

ـ الرب رب الناس أجمعين، فهو الراعي، ونحن نُجل رُسله أينما بُعثوا.

ـ نعم تُجلونهم، حتّى يقتل أحدنا ملكًا منكم

ـ رسولكم قتل ملكنا؟ عن أي زمن تتحدّث؟

ـ أرأيت؟ هذا ما أراد مُعلمك فعله، تحريف الحقيقة الجليّة وطمْسها. لقد كتب قوائم الملوك، الجيبتيكا، دون ذكر فرعون؛ طاغيتكم. الكاهن المعلم، مُدّعي الاتصال الإلهي، يطمس عاركم، ويتعمّد إيقاظ ثأر قديم يزيد على ألف وثلاثمائة سنة..

قاطعه كاي:

ـ لم أسمع من قبل عن ملك جيبتي يُدعى فرعون!

مَسح مُردخاي ذقنه بأنامله:

. لتسأل مانيتون حين تقابله.

نظر كاي لأمه.

. اتركها وسأدلك على البرديات.

. ها أنت تتذكر أين تركتها.

. لن أتكلم حتّى ترحل هي في سلام. أتوسل إليك، إنها أم.

. وشاءول كانت له أم.

. إن لم تتركها فلن تنال البرديات.

اتجه مُردخاي إلى الحارس الواقف خلف أم كاي، التقط الهراوة، وقبل أن يصرخ كاي رفعها فهوى بها على رأسها، سجدت قهرًا، هوى ثانية فشجّ رأسها، فهوى الثالثة، كسر الرأس فجرت الدماء على الأرض..

يومًا ما كانت تنزل البحيرة الساكنة حتى تغمر المياه خصرها، تُبلل شعرها الأسود الحالك وصفحة وجهها الخمري فيتلألأ تحت نور الراعي، تحكي قصة الملّاح التائه بنغمة مميزة، تقلّد أصوات البحّارة الغرقى، والرّمث الخشبي الصغير بين يديها، يجلس فوقه كاي، تهزه مُقلدة عاصفة هوجاء، ثم تثني أصابعها مُقلدة ثعبانًا كبيرًا يخرج من تحت المياه وتقول:

. حين هبت العاصفة غرقت سفينة البحّار الطيب ولم ينجُ سواه، تشبث برمث خشبي حتى ألقته الأمواج على جزيرة غريبة، وجد فيها المأوى والطعام، وخُيل إليه أن فيها كل ما يتمناه، وبينما كان يُصلّي للراعي شكرًا، اهتزت الأرض، وفجأة، برز من المياه ثعبان عملاق، تقدم نحوه فسأله: من جاء بك إلى الجزيرة أيها الملّاح؟ فأنا ألتهم الجبناء. ارتعد الفتى، ثم تشجّع ورفع صوته: أنا ملّاح واسمي كاي، أحمل هدايا للملك، وقد غرقت سفينتي ولست أخافك. ضحك الثعبان: أيها الملّاح، أنت في مأمن، سأتركك تعيش لأنك شجاع لم تخفني رغم ضخامتي. وحكى له الثعبان أنه واحد من مائة ثعبان عاشت على الجزيرة، وأن نجمًا سقط فأحرق إخوته ولم يبق إلا هذا الثعبان وحده. ثم صاح في الهواء:

أيها البحر، أرسل إلينا سفينة. ولما رست أهدى الثعبانُ لخاي هدايا من العاج والكحل والعطور والتوابل والأخشاب ليأخذها معه إلى بلده، جزاء شجاعته.

ثم يحتضنه الثعبان فيدغدغه تحت إبطه ليفتح خاي فمه على اتساعه في صرخة عجزت حنجرته الآن أن تُخرجها، انقطعت أنفاسه وخفق قلبه قبل أن ترتخي أعضاؤه كقنديل بحر نافق ويغرق في الحوض. اقترب منه مُردخاي مُلامسًا جبهته في حُنو.

. أرجو أن يكون ذلك قد أقنعك بعدم جدوى تهديد مُردخاي. آه! دائمًا ما أنسى استكمال القصّة. في الثمانين من عُمره مات أفلاطون في هدوء، ظنَّ بعد ما وصل إليه من الحكمة أن صاعقة الرَّعادة لم تعد كافية، وأن عناقًا طويلًا معها سيوصله لروح الإله فيستسقي الحكمة من منابعها. وفي يوم، وجدوه في الحوض متخشبًا وعلى وجهه ابتسامة لم يستطيعوا إزالتها. ابتسامة من أدرك أكثر من اللازم. سأتركك معها علها تُذكرك، أو تُقنعك بأن أرواح من تبقى من أهلك، باتت بين يديك.

أشار مُردخاي إلى حامل الإناء فاقترب، همس في أذنه:

. لا أريده أن يموت، ولا ترفعوا جثة السيّدة من أمام عينيه

انصرف مُردخاي فرفع الحارس شبكته، تلوت الرَّعادة أو بنت زيوس صاحب الصواعق كما يُسمونها، أنزلها في الحوض فتحررت وحامت ببُطء وخمول، حول رأس خاي، قبل أن تبث سحرها في المياه.

☥

☥

☥

كل ما أعرفه أنني أنحدر من سلالة نقية، ومن سلالتي ملك الإسكندر العظيم ومعلمه أرسطو كلبين. أفهم صاحبي كما تفهم الآلهة ما في قلوب مخلوقاتها، أستطيع أن أحرس أو أصطاد، لكنني أكلت اللحم النيء منذ نبتت أنيابي فصرت وحشًا تهابه الرجال، آرام لم يبخل يومًا عليّ بالتربية أو التحفيز، فأنا كلبه الأثير، حققت سجلًا حافلًا بالبطولات في ساحات المصارعة، قتلت اثني عشر كلبًا وجرحت خمسة عشر على مدار سنة ونصف، آرام هو إلهي، آرام هو الثواب والعقاب، آرام هو الحياة، أمّا باقي الكائنات فقابلون للنهش أو القتل رهن إشارة منه، بلا استثناء، إلا ناديا، أنثاه، قفزت عليها يومًا لأختبرها فتلقيت من آرام ضربات بالسوط مزقت ظهري، وحُبست في بيتي الخشبي يومًا كاملًا حتى نهشت يدي حزنًا وندمًا علّه يغفر لي. منذ ذلك اليوم عرفت أنا، «سيربيروس» العظيم، أن ناديا شيء آخر، شيء يجب أن أهابه، أحرسه، أقدّسه كما يقدسه صاحبي آرام، صاحبي الذي دأبت على متابعته منذ وعيت، من وراء قضبان بيتي الخشبي المريح، أتابعه وهو يعتلي تلك الناديا، كما أعتلي إناث فصيلتي لتخصيبها، يلحس جلدها كما ألحس، ويصرخ عاليًا في عواء بشري حين ينتهي منها كما أعوي، قبل أن يخمد بجانبها فأشتم من صاحبته رائحة لا تمت للرضا أو اللذة بصلة، رائحة ندم واستياء، رائحة كراهية. لقد اعتدت أن أستنشق البشر لتحديد الفعل تجاهها، أعرف جيدًا كيف أفرّق بين رائحة الهجوم والدفاع، اللذة والألم، الخوف والغضب، كما أعرف أن ما أشتمه من آرام الآن والحرارة المنبعثة من صدره أعراض لم أختبرها فيه من قبل، حتى حين رحلت عنه الفتاة الإفريقية أو صاحبة الشعر الأحمر، تلك الخمرية الجيبتية كانت شيئًا آخر، سحر يسلب صاحبه الحياة حين تبتعد، ويمنحه إياها حين تحضر. لقد استيقظ آرام ولم يجد ناديا بجواره، بحث عنها في أرجاء المزرعة ولم يعثر لها على أثر، نادى اسمها بأعلى صوته

المزرعة وعلى رأسها أنا: «سيربيروس» العظيم. جرينا مهتدين بأنوفنا الخبيرة حتى البحر. ذلك الكائن الأزرق الذي يُطفئ منحة الإله فينا. لا يقترب منه إلا غريق هلك أو هارب يعرف جيداً أننا لن نستطيع له اتباعاً. انقطعت الرائحة فهززنا ذيولنا في عجز ودرنا حول آرام والرجال الذين وقفوا حول جيفة ذلك الشاب الذي رمقه آرام في فزع. تهافتت الكلاب عليه وتواثبت. فزجرها آرام بصرخة أرعبتها فابتعدت. لم يجرؤ على الاقتراب سواي. نظرت في عينيه ووسّعت أنفي. صمته كان بركانًا يثور. ولأن بعضنا نحن عفاريت الأرض قد عُلِّمنا منطق الإنسان التقطت أذناي الأصوات ففهمتها. كما أن عينيّ لا تزالان في إمكانهما رؤية أطياف ما حدث منذ قليل. الأنثى ناديا بطيفها البنفسجي بصحبة ذكر له طيف برتقالي شاف. قتل ذلك الضخم الذي تسرّب دمه إلى الرمال وبدأ العفن يدب في جيفته. ثم ركضا إلى البحر، وتولى الملح إخفاء آثارهما. ربضت على بعد أذرع أتأمل صاحبي. أسبر ما يدور في رأسه المشتعل كجمرة. كان يجتر آخر لحظات معها. يجتر تلوّيها من تحته. شعرها الطويل يجلد ظهرها. التهاب جلدها تحت سياط أصابعه. صرخاتها المصطنعة. ثم العزوف. النفور والابتعاد. تمسح آثاره من فوق جلدها وشفتيها. كأنها تتخلص من طين لوثها. ثم تبكي بلا سبب... آرام حزين. كما لم يحزن من قبل. هالته تتغير. تصير حمراء، غاضبة. يتأمل آثار قدمي أنثاه على الرمال. ينظر للبحر. ثم يبتعد عن صخب الرجال. ونحن من خلفه. غير قادرين على النباح أو مطاردة الفئران. عينا آرام تبكيان. رئتا آرام تنشنّجان. ركضت حتى اقتربت. تمسّحت في ساقيه فأمسك الطوق حول عنقي وجذبني جذبة أعرفها. يفعلها حين يحتاجني. يبث عن طريقها رغبته التي لا ينطقها لسانه. ناديا المقدّسة. لم تعد مقدّسة. إن رأيتها اقفز عليها. انهشها من أجلي. مزّقها يا «سيربيروس» العظيم. هذه رغبتي. يا كلبي الأثير.

☥

☥

☥

الرّعّادة كانت تعرف عملها جيداً، تعرف متى تبث سحرها ومتى تمنعه، تستشعر نبضات ضحيّتها ملتمسة تسارعها، وقبل لحظات من انقباض القلب انقباضاته الأخيرة توقف بثّها حتى ترتخي الأعضاء ويذهب التخشّب فيسهُل ابتلاعها وهي حيّة ساخنة، غائبة عن الوعي. يستخدم الأطباء خدرها في الولادة بقدر، والجرّاحون في بتر الأطراف، كما يستخدمها رجال مّردحاي في حوارهم مع المّكابرين؛ تسبح بجانب الرءوس، تقدّر حجم ضحيّتها ثم تبث سحرًا يقنعها بعدم جدوى العناد. تطفئ هواية البشر المفضّلة في اختلاق الأكاذيب، لبضع دقائق تكفي استجوابًا صادقًا، وإن لم تأتِ الاستجابة، تشحذ الرّعّادة سحرها وتنزل إلى الحوض ثانية، وثالثة، ورابعة، لا تكلّ ولا تملّ، حتّى إذا ضعفت وبخلت بسحرها، استّبدلت بواحدة أكثر نشاطًا..

ارتعد كاي في الحوض حتى صرخ جسده وتفكّكت أوصاله، اختلط واقعه بأحلامه، نهاره بليله، وجه الكاهن الأعظم بوجه أبيه، وجه ناديا بوجه أمّه. بين راحات الرّعّادة يسألونه عن البرديات حتّى عجز عن ابتلاع ريقه، تركوه ليستعيد وعيه قبل أن يّدلي الحارس برعّادة جديدة إلى الحوض، كان لونها أرجوانيًا وحجمها أكبر من سابقتها، لامس جلدها النّاعم الرخو خصر كاي، ثم جاءت اللحظة التي يّحصيها عقله منّذ وّضع في الحوض، ذلك التيّار الخفيف الذي يستمر لثوانٍ معدودات قبل أن ترتفع شدّته بغتة ليزلزل كيانه، هّنا سحب كاي نفسه استعدادًا، ثم ضرب برجله أرض الحوض فارتفع صدره وبرز عضده فمد ذراعه وقبض على معصم الحارس.

وارتعدا معًا..

لزمن غير معلوم، متشنّجة أصابعه لاإراديًا. ينتفض والحارس كجسد واحد ما لبث أن ثقل وزنه من ناحية الأخير فتهاوى، رافعًا كاي من المياه ليسقطا معًا على الأرض بجانب الحوض.

وتوقفت الرّعدة.

لدقيقة كانت كافية ليُصارعا التخشّب، ثم قاما يستندان الأرض وينظران لبعضهما، حتى أدرك الحارس ما حدث فانقض على كاي، هوى بيديه على الجسد المبتل فانزلقتا قبل أن يستغل كاي ثقل جسده ليمسك بتلابيبه ويضرب برأسه الحوض الحجري، مرات ومرات، بعزم قوّته، حتى شجت جبهة الحارس وبرز المخ منها، تهاوى كحجر بين قدمي كاي في اللحظة التي التفت شبكة الرّعّادة على رأسه من الحارس الآخر الذي ترك القبو منذ برهة. سقط كاي على ركبتيه مستمسكًا بطرف الحبل العاصر لحلقه، يقاوم خنقًا بدأ يتملك منه، ثم بصعوبة قام على ساقيه، ضرب بطن الحارس بكوعه عدة مرّات قبل أن يطبق على خصيتيه، فأرخى الأخير شبكته ألمًا حين التفّ كاي ودفعه لمسافة استطاع فيها أن يرفع قدمه فيدفع صدر الحارس قبل أن يلكمه بعزم ما أوتي فيسقطه في الحوض الذي ضجّ برعدة عنيفة.

ثم نظر لأمه..

كان يدرّب نفسه على اليوم الذي سيُمسك فيه بيدها في فراش الموت حتى تبرد، تمنى لو وهبها حفيدًا تغنّي له قصة الملّاح التائه، لكنه لم يتخيل في أبشع كوابيسه أن يأتيها الموت بذنب اقترفه، اقترابه من جسدها أخذ سنوات، انحنى فجمع رأسها، ثم وضعها على ظهرها ولثم جبينها المخضّب بدمائها ودموعه، قبل أن يخلع إزاره المبتل ويغطي وجهها، هامسًا:

- يا رب الأبدية، الجلال لك في هيمنتك، لم أنطق بالأكاذيب أو أرتكب الخداع، لتضمن لأمي طريقًا تعبر عليه إلى فردوسك في سلام، ولتسامحني على ما سأرتكب.

خلع ملابس الحارس مشجوج الرأس، ارتداها ثم ألقى نظرة أخيرة على أمه قبل أن يخرج من القبو، مشى في سرداب لا أول له ولا آخر، حتى التقط صوت مردخاي، تيبّس مكانه مشلول الفكر حين ظهر في نهاية الطريق، وضع كاي يده على سلاح الحارس في حزامه قبل أن يلتقط صوت آخرين يمشون خلف سيدهم، أغمد رغبته وأحنى رأسه ثم وقف في وضع

الحراسة حتّى مرّ مُردخاي ورجاله ولم يُعيروه اهتمامًا. ابتعد بعدها كاي متخذًا طريقهم الذي أتوا منه، حتّى فتح بابًا وجد الشمس خلفه. انتظر حتى تهيأت عيناه فاستوعب باحة خلفية للقصر. ضرب القلنسوة فوق رأسه وخرج من البوابة في هدوء. بعد دقائق التقط صدى أبواق حادّة تضرب الأفق، ومن بعدها جلبة فتح البوابات الكبيرة وخروج الحراس. نظر إلى آثار قدميه فوجدها جلية لا تحتاج إلى قاصّ أثر ليتتبعها. ركض بأقصى ما أوتي حتى تخلل زحام الباعة. بدّل حذاءه بآخر سرقه من بضائع مفروشة، ومشى بعرجة مُصطنعة سيقرأ من يتبعه أنها لرجل يحمل متاعًا ثقيلًا على كاهله.

☥

☥

☥

معبد «أون»، بعد نصف دورة قمر.

سار خاي في نفس الطريق التي قرأ عنها ببرديات مَعلمه. الطريق التي مشاها مُوسى يومًا. غربت الشمس، بدأت الصخور في جرح قدميه، وراقبته الأعين المُضيئة لأصحاب الليل، حتى بلغ طريقًا مُمهّدة أضاءتها المشاعل، في نهايتها بوابة على جانبيها تمثالان كبيران لإدريس وشجرة صفصاف باسقة. اقترب من الباب المنقوش فطرقه. التقط وقع خطوات خفيفة ثم انفتحت ثلمة أطلّ منها كهل ضعيف البصر.

- المَعبد لا يستقبل عابري السّبيل.

- بل أنا كاهن، جئت من معبد الأسوار السبعة بسمنود.

ضيّق عينيه واقترب:

- هيئتك لا توحي بالكهانة.

- رحلتُ عن معبدي منذ زمن ليس بقصير.

كسا الشك ملامحه:

- عاود الزيارة في الصّباح.

- لن تتركني في الخلاء أقضي ليلتي.

- إن كنت كاهنًا بحق فأنت تعرف أن قطّاع الطرق يهاجمون المعابد.

- أعرف، كما أعرف أن ذلك المعبد قد أوى رجلًا مُباركًا منذ ما يزيد على ألف وثلاثمائة عام، رجلًا اسمه موسى.

نظر الكاهن في عينيه للحظات:

- أنت كاي.

أومأ برأسه إيجابًا ففتح الباب وأشار إليه الكاهن أن يتبعه. فرش له حصيرة في ركن بالبهو، وأطعمه الجبن وعنقود عنب دون أن يُرهقه بسؤال، ثم وضع بين يديه شفرة مشحوذة. حلق كاي شعر جسده ورأسه ثم نزل إلى البُحيرة المُقدّسة في ضوء القمر. اغتسل ثم جلس على الحافة، أغمض عينيه وأرخى أطرافه ثم ردّد الرنين، ذبذبة تتصاعد من رئتيه لحنجرته. تسلخ عنه التوتر وتفرغ الخوف من كبده كنقاط الحبر في الماء. ظلّ في ثباته حتى تغيرت نبضات قلبه فهمس:

- يا مُلتهم الظلام، يا من جمعت السّماوات في قبضتك ونثرت النجوم الزاهية، يا من ملأت البحار بالمياه، يا من أرسلت إدريس بالهداية من فوق الجبل ليُحارب نسل الخطاة في السّفح. انظر إلى يديّ وقلبي. لم أرتكب الشر يومًا في موضع الخير، بل أولئك الذين ملكوا أرضك صاروا ذئابًا، والأمراء في عليائهم أصبحوا ضباعًا. وإن ما أكتبه ملعون عند سادة الأرض الجُدد؛ سادة إيجيبت التي وهنت قشرتها وضعُفت بذرتها. لا تضعني في عُبودية هؤلاء الذين قطعوا جسد إدريس يومًا. لتجعلني ثابت القدمين، أسرع من كلب صيد، وأشفّ من ضوء قُرصك الملتهب. لا تغلل روحي، ومجّد اسمي في سلام حتى ألقاك.

ثم استشعرتْ أذناه حفيف زحفها على الرمال. فتح عينيه بهدوء فرآها، سوداء منتصبة، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالأعين. ضم كاي راحتيه ثم انحنى أمامها في إجلال.

. السلام عليكِ يا سيدة الرمال، يا حارسة الملوك يا ساكنة التيجان. الجلال على من زرع الحركة في أطرافك وحقن الموت في أنيابك، لتعضّديني في محنتي، ولتنصريني على من عادى تلك الأرض التي تحرسينها. اذهبي، باسم الذي سخّرك، اذهبي إلى الإسكندرية، ولا تعودي إلا ظافرة.

زحفت بهدوء حتى ساقيه، صعدتها، تسلّقت صدره في نعومة، كتفه، ثم التفّت حول رقبته. أغمض عينيه وردّد الرنين في حنجرته فاهتزّت رقبتها مع نبضات قلبه، حتى نفخ البوق إيذانًا بصلاة النهار. فتح كاي عينيه وكانت قد رحلت، ارتدى إزاره ثم جثا بين الكهنة الذين رمقوه باستغراب، متابعًا عازفي المزامير مُصغيًا للمنشدين يرفعون الأدعية من كتاب «الحمد الإدريسي» أمام الحائط المقدّس، ثم توجّه بينهم لقبلة نجم الشمال فأدى صلاته وسجد للراعي حتى لاحظ كاهن المعبد بكاءه فوضع يده المعروقة على كتفه فانتفض.

. دُعاء طويل، كرب عظيم.

مسح كاي وجهه بيديه.

. مرّ زمن لم أسجد فيه للراعي.

. كان جسدك منهكًا فأبيت أن أعرفك بنفسي حتى تستريح. أنا مُختار، كبير كهنة معبد أون، أعيش هنا منذ أربعة وستين عامًا.

قام كاي فانحنى في إجلال فأردف مُختار.

. ذكرت أنك تركت سمنود مُنذ زمن ليس بقصير؟

. رحلة طويلة، كان عليّ زيارة معبد السيرابيوم بالإسكندرية بعد وصيّة أوصاني بها الكاهن الأعظم.

. وردتنا الأخبار الحزينة، هل عُرف قاتله؟

. لم يعرف حتّى رحلت.

ـ مُنذ عام ترتّبت النجوم في هيئة مربّع فأدركت أن أمرًا جللًا سيحدث. قطّاع طرُق محمولون يهاجمون المعابد بلا رادع، رجال الشرطة لا يظهرون في الأفق. والآن يُقتل الكاهن الأعظم ولا يُعثر على قاتله! أسوار معابدنا تفقد هيبتها.

ـ بل فقدنا الإيمان بأنفسنا.

ساد السكون للحظات قطعها الكاهن:

ـ لمَ اخترت معبد «أون» لتُودع فيه برديات الكاهن الأعظم؟

ـ قرأت في برديات معلّمي عن وقائع حدثت في ذلك المعبد. قامن قلبي أنه المأوى المناسب.

ـ ولم أرسلتها مع زوجك؟

ـ زوجي؟

ـ ناديا. أليست...؟

استدرك كاي:

ـ آه، نعم. تعرّضت لمتاعب في الرحلة وخشيت أن أفقدها فتركتها بين يديها. هل هي بخير؟

ـ تجني الأعناب بالمزرعة، وترقص تمجيدًا للشمس مع الفتيات في الشروق، وتبيت ليلها في بيت قريب محروس بكلاب الرّعي.

ـ وماذا عن البرديات؟

ـ أودعتُها خزانة المعبد.

ـ هل لي أن أراها؟

ـ البرديات أم ناديا؟

قرب.

يع أن ترى زوجك حتّى أستخرج لك البرديات من قدس الأقداس.

www.facebook.com

www.facebook.com

مشى كاي تحت عرائش العنب حتى لمحها، جاثية على ركبتيها في رداء أبيض تجمع العناقيد في سبت، رأته فوقفت، قبل أن تركض ناحيته، احتضنته حتى سال عرقها على خدّه وعصير العنب من أناملها على ظهره، نظرت في عينيه:

- ظننت أنّي لن أراك ثانية.

- كادت روحي في لحظات أن تيأس من جسدي.

لاحظت رعشة في يديه فجلست وجلس.

- كيف تركك رجال الملك؟

- لم يتركوني، لقد فررت منهم.

اتّسعت عيناها فهز رأسه بوجوم.

- شجوا رأس أمي أمام عينيّ ليجبروني على البوح بمكان البرديات.

- كل ذلك الموت من أجل إضمامة برديات؟

- الآن باتت تستحق.

- بعد موت أمّك؟

- قد مات الكاهن قبلها، وكانت البرديات بحوزتك فكيف أبوح؟ الموت عندي أهون من رؤية الظفر في عيني مُردخاي أو رؤيتكِ تؤذين.

تأملت عينيه اللتين غارتا قبل أن يسألها مبدّدًا الصّمت:

- كيف كانت رحلتكِ على متن السّفينة؟

- بعيدًا عن حماقات البحارة أخبأت البرديات حتى رست السفينة في ميناء قريب، تسللت منها وقضيت ليلتين في سقيفة للبدو حتّى مرّت قافلة أقلتني عبر طريق وعر، تركتني عند المعبد فطرقت الباب، طلبت رؤية كبير الكهنة فأسلمت إليه البرديات والتمست الجوار فأكرموني بالمبيت بين عرائش العنب، أجمع العناقيد وأعصرها مع الفتيات نظير طعامي وشرابي، وأرقص للشمس حين تشرق وأنفخ نايات الابتهال والتبجيل للملائكة، هُنا، شعرت بسكون لم ألمسه مُنذ وطئت إليوسيس، فقد زهد جسدي الرّقص والعزف، ليالي آرام وصخب البحّارة، رائحة العاهرات والسكارى...

- قلت لهم إنّي زوجك.

ابتسمت:

- وأحببت وقع الكلمة حين نطقتها.

التمست البهجة في عينيه، لكنها رأت الشرود وقد غلفه، عبست كما تعبس الأنثى، ثم أشاحت بوجهها فلامس ذقنها في حنو حتّى التفتت:

- لا تسيئي فهمي، فكل من قابلتُ في الأيام السّابقة طالته لعنتي.

- أو ربّما ما حدث بيننا على ظهر السّفينة هو سنّة الرجال في النّساء.

- عشت في حواري إليوسيس الملأى بالنساء ولم أرَ سواك.

- الليل والخوف والخلوة يهيئان الأجواء لمغامرة عابرة.

- لم يحركني سوى قلبي.

- يتحرك قلب كاهن لفتاة رواها عرق الرجال؟

- ليس بيننا من هو بلا خطيئة.

- أنت كاهن معصوم.

- كاهن أزهق ثلاث أرواح.

- أما زلت مؤمنا بأن تلك ليست تدابير إلهك؟

- الراعي لا يزرع الشر في النفوس بل نحن من نفعل.

- يدهشني وفاؤك لصاحب السماء رغم ما أصابك.

- إنما أنسب الإثم لمن يستحق.

قرطت من العنقود حبات ووضعتها في فمه. نظر في عينيها ثم أردف:

- إلى متى كنت ستنتظرين عودتي؟

- ربما لعام أو عامين. حتى تيأس كلاب أرام من العثور علي. ثم أتجه جنوبا للبحث عن أبي.

- حالما أتمم ترجمة البرديات سأرافقك حتى تلتقيه.

- تالله تفتأ تذكر أمر البرديات!

- كنت أظن ما فيها سيرة رجل عادي. ثم علمت أنه رسول السماء لملك من الرعاة جبار غريب الأطوار. العجيب أن رئيس

من قبائل الرُّعاة!

. وماذا سيحدث إن كان هذا الملك من سكّان النجوم حتّى؟

. سأعرف حين أنتهي.

. أنت تُضحّي بحياتك ركضًا وراء أوهام.

. لم يخبْ حدسي يومًا.

. وحين تنتهي من ترجمة تلك البرديات، ماذا ستفعل بها؟

. سأنتظر علامة من مُعلّمي.

. القتيل؟

. الموت لا يعني الفناء.

. أنت بلا عقل، وهذا يثيرني.

ابتسمتْ فتأملتُ تعاريش العنب من حولها ثم استطردتْ:

. أتعدني وعدًا؟

. إن كان بإمكاني تحقيقه.

. عدني إن متُّ قبلك أن تدفنني هنا.

وأشارت بإصبعها إلى مقابر بعيدة نمت فوق شهودها الأشجار. أردفت:

. لم أختبر الموت في من حولي من قبل ولم أزر القبور. والعجيب، أشعر بسكينة غير مفهومة حين أشرد في تلك

البقعة الساهية أتخيل أرواح الأموات تخرج من الأرض في جذوع الأشجار.

- أنتِ لا تعرفين لِمَ تنمو الأشجار في القبور.

- لم أتعلم قراءة نقوش الجدران أو أزر المعابد. وكلما سألت فتاة من فتيات الجني أجابتني بأن تلك هي بركات إدريس.

- «إدريس» و«ست» كانا أخوين لملك عادل يحكم مملكة الجبل. امتلك إدريس الحكمة والعلم، وملك أخوه القوّة والعنفوان، والبكورية. مرّت السنين وهرم أبوهما فاورث مملكته لابنه الأصغر: إدريس. لحكمته وخبرته. ولصبر لا يمتلكه أخوه ست الذي نزل من الجبل ثائرًا مشتعلًا بالحقد والحسد. يبث الانتقام في أتباعه ويثير الفوضى. اضطر إدريس إلى النزول بجيشه من الجبل لمواجهة أخيه الذي يحشد النفوس. تخضّب النهر بدماء القتلى من الجانبين، إدريس الأصلح، وست المتمسك بالبكورية. ثم مالت الكفّة لإدريس فانتصر. ليقدّم أخوه عهدًا بالسلام ويقيم حفلًا يعلن فيه الوفاء لأخيه والإذعان. وإذا به يغدر بأخيه إدريس فيقتله في الحفل شر قتلة. ويقطّع جسده ليلقيه بتابوت في سفينة متجهة إلى بيبلوس بسورية. قرب الساحل جنحت السفينة فطرحوا التابوت في البحر تشاؤمًا. انجرف جسد إدريس حتى الشاطئ؛ فأنبت الراعي فوقه شجرة أخرجت ثمارًا من الذهب والأحجار الملونة إشارة لامرأته «إيزيس» التي خرجت للبحث عن جثمانه. جمعت الأشلاء في صندوق واختفت مع ابنه الصغير حورس على جزيرة حتى اشتد ساعده فتولى الانتقام من عمّه «ست».

- وهل ظفر؟

- ولُقّب بالمنتقم لأبيه. منذ ذلك اليوم يزيّن الكهنة الشجر في بداية كل عام. أسوة بشجرة إدريس التي نبتت فوق جسده.

- يا لها من قصّة! فلتعديني أن أدفن هنا وتنتظر لثماري حين أثمر طالما قلت إن الرب لا يتدخّل في مصائرنا. سأنحت نهايتي كما أحلم.

- ما دمت هنا، سالمة. فلتفعلي ما شئت.

قالها وقام فاستدركته:

ـ سؤال أخير، إن لم تكن معي البرديات هل...؟

ضمّ أصابعها في كفيه فسكتت:

ـ كنت سآتي من أجلك.

ابتسمت فهز رأسه:

ـ عليَّ أن أعود للكاهن مختار.

مشى تحت عرائش العنب فتابعته بعينيها، وقبل أن ينحرف تجاه سور المعبد برزت العاهرة من وراء الأغصان، اصطدمت بكتفه فلم يشعر، التفت لناديا وفتحت فمها مدلية لسانها في سخرية، ثم قفزت فالتقطت عنقود عنب وقلدت مشيته الهادئة حتى اقتربت منها فهمست:

ـ سمعت أنّ للكهنة في الفراش باعًا طويلا.

ضربت ناديا جبهتها بباطن كفها عدة مرات كأن في رأسها نحلة تطن:

ـ ارحلي عني أيتها العاهرة.

استشعرت التفات الفتيات من حولها فابتعدت، لاحقتها كظلّها:

ـ لم تبخلين عليَّ بمشاركتك الفرحة؟

ـ أي فرحة؟

ـ فرحة أن تصيري عروسًا للرب، هنا ستجدين المأوى، بيتًا في العراء، بجانب المقابر، تعصرين العنب بقدميك وتأكلين البتاو وجبن الماعز، من بعد ولائم حانات الإسكندرية المليئة باللحوم والأسماك، وليالي أرام الراقصة، بل وتحلمين بالدفن تحت الأشجار.

دخلت ناديا غرفتها وأوصدت الباب فوجدتها فوق الأريكة تبتسم:

. سقيفة تليق بك يا جوهرة إليوسيس.

. كنتُ جوهرة في يد كلاب.

. ذلك الكلاب كان يقبل أصابع قدميك.

. وكان يطؤني دون رغبتي ويضربني وقتما شاء.

. النمس عزوفك بعد أن أكرمك. وفاحت أنوثتك حتى جذبت أنوف الرجال. ماذا تتوقعين من عاشق غيور؟

. أن يفهم أن النهر قد يغيّر مجراه، وأن ناديا الأمس لم تعد هي ناديا اليوم.

. الآن ستنزلين تحت الكاهن كما نزلت تحت آرام يومًا. ستقضين وقتًا لا بأس به، ثم تتركينه وترحلين، أو يتركك. فمن ذا الذي يتحمّل غضب ناديا وتغيّر مزاجها، وكراهيتها لنفسها؟

. مزاجي يتغيّر فقط حين أراك.

. بل طماعة نفسك تهوى إذلال الرجال.

. أذل من أراد الذّل. من اقترب مني من أجل صدري وخصري. لكن كاي، أشعر معه ببهجة وراحة لم أعهدها من قبل. لا يتسلّط ولا يفعل أفاعيل الرجال.

. الرجال لا تعرف إلا الأنثى التي تخضع. انتظري حتّى يلجك.

. هذا كاهن يتكلم بفم الرّب.

. ها أنت تصطبغين بلون من تحبّين أيتها الحرباء! الآن كلام الرّب وكهنة الرّب مُستساغان بعد أن كان الرب عابثًا مغرورًا!

. أنا لم أعد صغيرة.

. أفيقي قبل أن تتحولي لعجوز وحيدة، سيدفنك هنا.

. للتو طلبت منه دفني بإرادتي.

. ذلك الكاهن يسعى لحتفه، ألا ترين عينيه؟ تنطقان بالجنون والانتقام.

نظرت إليها ناديا:

. ماذا تقولين؟

. أقول إنه سيطؤك كما وطأك من قبله ثم يختفي أو يُقتل فتتركين خائفة مترقبة خلف سور المعبد، أو في المقابر، وإن لم يفعل، ستتولى طبيعتك النارية بث الجنون في رأسه السّاكن المخلوق، فلو أشعل النار في القمر لتستدفئ ناديا، لن تشبع، وستطلب المزيد، ثم تتهمينه بالتقصير، حتى ينفر ويرحل، فتلعنيه بأقذع الألفاظ، ويصير عدوك الأول والأخير، كأنك لم تحبيه يومًا، ولم يكن شمسك وقمرك يومًا، لتبحثي من فورك عن بديل.

أشاحت ناديا بوجهها نحو المقابر فاقتربت منها وفكّت شعرها، بشرود سألت:

. ماذا أفعل؟

شرعت العاهرة في جدل ضفيرة:

. عودي إلى آرام، عودي قبل أن تفقدي رحيقك وتذهب ريحك، سيسامحك لأنه رجل ولأنك أنثى، سيسامحك فور ما تتعرّين، في اللحظة التي يرى فيها فخذيك وثدييك، حين يدفن رأسه بين خصلات شعرك، سيلهث مثل كلابه فينسى الكون من حوله ثم ينحني على قدميك ليقبلهما، هؤلاء هم الرّجال.

. لكني، أحببت، لأول مرّة.

. الحب يتجدد على صدور الرّجال.

أنهت جدل الضفيرة فأرختها على كتف ناديا ثم انسحبت في هدوء.

☥

☥

☥

في المعبد جثا كاي بين يدي الكاهن مختار، باركه ومسح بالزيت رأسه ثم سأله عن مقتل الكاهن الأعظم، حكى ما حدث دون أن يذكر أمر اتهامه، وأدرك بعد قليل أن الخبر لم ينتشر، فكما توقع، خاف متري نائب الكاهن من التشهير برجال المعبد فآثر الكتمان.

قال الكاهن مختار:

. على قدر ضعف بصري رأيت خط الكاهن الأعظم، هيراطيقيته مميزة، لكنني لا أدرى سببًا لاستخدامها!

. اعتاد أن يكتب مدوناته الخاصة بها حنينًا للماضي.

. هل يعرف كهنة معبدك أمر تلك البرديات؟

. نعم، لذلك أبذل كل الجهد لترجمتها.

. ولم تترجمها خارج المعبد؟

. كان عليّ تجميعها من عدة أماكن

. إذا نشرت ستحدث بلبلة، هل تعي ذلك؟

. برديات الكهنة لم تعد توضع إلا في رفوف المعابد أو في مقابر الأموات

. نعم، ولكن، برديات الكاهن الأعظم؛ القتيل، ستخلق التهافت بين الناس، إلى أنها تتناول تاريخ ثعابين العرش، هكذا قرأت في السطور الأولى قدر ما سمحت به عيناي، أثق في أنك تعي ما أقول.

. بالطبع يا سيدي، ولكن، منذ متى لا تنفذ وصية الكهنة الراحلين؟

هزّ مختار رأسه وابتسم

. علمك الكاهن الأعظم حسن الخطاب، لتكمل مسيرته يا بني، فوصية الكهان أكره أن تترك، ثم لنتباحث أمر العرش ومن حوله بعد قراءة ترجمتك.

أنهى الكاهن كلماته ثم ناول كاي البرديات وورق البردي ودواة حبر أسود وبوصات جديدة.

. هل لي في غرفة صغيرة أختلي فيها بنفسي فأترجم؟

. اعتقدت أن وجود زوجتك سيساعدك على ذلك!

. لم أعتد العمل خارج المعبد، فالنساء لا يتركن الثرثرة، كما أنني أخاف على البرديات من الضياع أو العبث.

. سيكون لك غرفة قرب البحيرة المقدسة، وسيكون عليك أعباء الكهنة وواجباتهم طالما عشت بينهم.

. ذلك أكثر مما أرغب، أمر أخير، سيكون من المفيد كتمان أمر وجودي هنا حتى أنتهي، فكما قلت يا سيدي، ثعابين العرش لا يسرّها تنفيذ وصية الكهنة

هز الكاهن رأسه ولم يعقّب.

☥

☥

☥

خرج مُوسى مِن هوارة خائفًا يترقّب، كلّما مرّ بقافلة أو ركبان غطّى وجهه وانحرف خشية أن يكونوا من أجناد فرعون أو هامان يحملون الموت بين أيديهم. اتجه شرقًا لخمسة أيام ثم انحدر جنوبًا، يسير ليله وينام نهاره في المغارات والكهوف ليراقب حركة القوافل، حتّى ورد مدين، مدينة صغيرة تقع حيث تضعف قبضة فرعون الذي انشغل فِي الآونة الأخيرة بالسيطرة على ثورة الجبتيين المتمثلة في ملكهم العنيد «كامس» ابن «سقنن راعي».

تمشّى مُوسى حتى أشرف على بئر واسعة الفوّهة يتزاحم حولها الرعاة ببهائمهم، وحشيون تفتقر وجوههم الرحمة، يدفع بعضهم بعضًا ويثيرون التراب ويصيحون بصخب. بالقرب منهم تابع فتاتين تمنعان ماشيتهن عن الاختلاط بدواب الرعاة. استوقفه ظلف الرجال من حولهن وعدم الاكتراث فنزل واقترب حتّى التفتت إحداهما، تخفي نصف وجهها من التراب الصّاعد، بعد تردد رفع صوته:

- ما خطبكما؟

نظرت إليه للحظات ثم أردفت:

- لا نسقي ماشيتنا حتّى يرحل الرّعاة.

- ألا يخفّ لكما رجل؟

ـ أبونا شيخ كبير.

ـ ائذنا لي بالمساعدة.

نظرت لأختها ثم هزّت رأسها موافقة فمدّ موسى يده وسحب حبال الماشية. شمّر ساعديه وغطّى وجهه وزاحم حتّى لامس أحجار البئر وسط حدّة الرعاة وخشونتهم. التفت إليه أحدهم:

ـ غريب يدفع الظهور ويلوّح بعصاه! من أي أرض أنت؟

نظر إليه موسى من فوق نقابه ولم يجبه فكزّ الراعي أسنانه ورفع صوته:

ـ ما لك لا توقّر الرعاة؟ اكشف وجهك.

ارتفع صوت من بعيد:

ـ ما باله؟

صاح الراعي بصوت أنزل الرعب في نفس الفتاتين:

ـ غريب يزاحم ماشيتكما ويدفع الرعاة

ارتفع صوت من جهة أخرى:

ـ إذن ليرينا كيف سيرفع الدلو وحده

نظر موسى للراعي الذي تحدّاه ثم للدّلو الكبير المربوط بحبل غليظ إلى رافعة يشدها ثلاثة رجال أشداء، ثم نظر للفتاتين اللتين اشرأبت عنقاهما. ساد الصّمت قبل أن يربط الماشية في خصره ويسحب الحبل الغليظ من الرّجال. تأرجح الدلو فهوى إلى البئر في سرعة فضحك الرعاة. ترك موسى الدّلو حتى غطس وامتلأ ثم دفع الأرض بساقيه وأمال ظهره فجذب الحبل بقوّة إلى الوراء. كلّما ارتفع الدلو لفّ موسى الحبل مرّة حول مرفقه وسط ترقّب الرّجال ودهشتهم. حتّى وصل إلى حافة الحوض الخشبي فأوثق الحبل إلى دعامة قريبة ورفع مؤخرة الدّلو

فاندلق بعنف في مجراه. ساد السكون بين الرعاة وندت نظرة حقد من الراعي الذي استفز موسى ثم ضحك الجميع بغتة، وربت البعض على كتف موسى الذي جذب ماشية الفتاتين وقربها من الماء لتشرب، ثم ذهب إلى الفتاة التي حدثته، شكرته بنظرة ود وانحناءة ثم رحلت وأختها فاستند حائطًا جلس في ظله ساعة، حتى لاحت الفتاة ثانية. رآها فقام ونفض التراب عن ملابسه فقالت باستحياء:

- إن أبي يدعوك إلى الغداء.

مشى موسى وراءها، لم يتبادلا كلمة أو نظرة. دلف من باب البيت وكان أبوها في انتظاره. أجلسه وقدم إليه الشراب والطعام قبل أن يسأله عن نفسه. باطمئنان لا يعرفه، وربما برغبة في التخلص من حمل ثقيل حكى موسى ما كان من أمر ولادته حتى رحيله عن المدينة هربًا. أردف الشيخ:

- إن الأنباء المروعة تأتينا على ظهور العير. لا أصدق أن المصر التي أطعمت أمم الشرق زمن المجاعة، يأتيها يوم ليتزعمها جلف غليظا لكن لم العجب؟ هل مررت بقبيلته بوادي عربة ببرية فاران عند خرائب ثمود الملعونة؟ إنها قبيلة يسودها الجشع والطمع والغلظة، لا يعرفون إلهًا غير الذهب، يغيرون على القبائل المجاورة حين يشتد بهم الجوع. جدير ببطون نسائهم أن تنجب قتلة جبارين. لكن أن يمتلكوا زمام المصر! ذلك هو الحزن!

- الكنوز التي يستخرجها قارون من محاجر الفيروز، الأنهار الثلاثة التي تجري لهوارة من أرض إيجيبت، ورءوس العشائر الذين صدقوا ادعاءه الألوهية، كل ذلك لا يزيده إلا شرهًا وتوحشًا.

- أيصدق المخبول حقًا أنه إله؟

- يترك الرجل فيقول أحبيته، ويوتده في جذع نخلة فيقول أمته. شيء ما في عقله يجعل من ضلالاته يقينًا، أكاد أجزم رغم كراهيته أن لديه إيمانًا بشيء ما.

- يا له من أحمق! وما باله وبني إسرائيل؟

- يسخر النساء في الفرش، ويبقي على الأقوياء من الرجال من أجل الخدمة الدنيا.

ـ كل ذلك من أجل نبوءة مشئومة؟

ـ ولعوار أصيل في بني إسرائيل، فهم قوم جبناء لا يخلصون لإله واحد، لا كرامة لهم ولا ملة، تجولوا بين الأمم ثم دخلوا المصر مع من دخل بعد اجتياح الرعاة، عاشوا بين القبائل محترفين الرعي حتى جاء زمن يوسف صاحب الخزائن، تكتلوا بالقرب من بيت أبيه يعقوب في أرض جاسان الخصبة فأكرم ضعفهم وأغدق عليهم من خيرات الأرض حتى فسدت نفوسهم وتمكنوا، توغلوا في الصروح، تقلدوا المناصب وامتلكوا أسواق الحلي والذهب، ثم تمسحوا في نسل يعقوب وأحفاده وصاهروهم، متخذين من بركات النبوة هالة مجد تفتح لهم الأبواب، حتى أقرضوا القبائل بالربا فنبه يوسف لطغيانهم، نهاهم فتمردوا عليه وكانوا السبب في هلاكه، لا أحد يعرف له قبرا حتى الآن، حتى إذا جاء فرعون وكانت قبيلته أكثر القبائل اقتراضا منهم، أدرك أنهم السوس في قدم الدابة، يكتنزون الذهب فيكبلون التجارة ويبتزون الرجال، وإذا هاجم الجيبتيون مصر فسيكونون أول المتحالفين معهم.

ـ فنكل بهم ليسحق شوكتهم

ـ وظلم أهل بيت عمران حفيد يوسف مع من ظلم، لعنة التصقت بنسلنا كما تلتصق الحشرات بالجرح، نعيش بين بيوتهم، ويقع علينا ما يقع عليهم.

ـ وماذا عن الجيبتيين؟

ـ الجيبتيون تحت ملكهم «كامس» ابن «سقنن راعي» أفقدوا فرعون الكثير من الأراضي، نزلوا من «واست» في معارك خاطفة سيطروا بها على مدن غرب النهر، حتى إن الناس تقول إن النساء لن تلد من هول المعارك برا وبحرا، لولا القلاع المنيعة وحشود العربات لاجتاحوا هوارة.

ـ نخاف ذلك اليوم كخوفنا من وحوش الصحاري، ففرعون استأثر بالخيرات لنفسه، ولم تعد مصر تحته تغني عنا مجاعة أو شح مياه، وإذا استرجع الجيبتيون المصر إلى أرضهم فسيجتاحون أرضنا.

ـ من الصعب التنبؤ بما ينتويه الجيبتيون، وأخوف ما يراودني هو سحق المستضعفين في أتون المعركة.

ـ رغم ما حكيت أرى فيك العطف على بني إسرائيل!

ـ لا أملك إلا الشّفقة على قوم ظلمتهم أحلامهم فظلمهم جبّار لا يرحم.

ـ يا بُني لا تخف، فقد نجوت من القوم الظّالمين.

قضى موسى ليلتين في بيت الشيخ «يثرون» قبل أن يُقبل الأخير عليه فجرا. أيقظه فابتسم:

ـ أرهقتك يا شيخ «يثرون».

ـ إن كان في الأمر إرهاق فسيكون في أعين الناس.

ضرب الحرج وجه موسى وتعرّق جبينه فاستدركه الشيخ:

ـ يا بُني، أنت رجل غريب في ذلك البلد، مثل نحلة في إناء لبن، وأخاف أن يترصّدك القوم فيؤذوك أو يفضحوك، لم لا تتزوج إحدى ابنتيّ وتعيش معي، ابنًا لم أنجبه؟

تلعثم موسى فابتلع ريقه:

ـ هذا شرف لي، لكنّك لا تكاد تعرفني يا شيخ «يثرون»، وأنا لا أملك...

قاطعه:

ـ السّمات على وجهك جلية، رجل طاهر من بيت طاهر، وأنا شيخ كبير ماتت زوجته، وأيامي في الحياة باتت معدودة وليس لي إلا ابنتاي أعتني بهما، وقد قالت لي إحداهن أمس، «يا أبت استأجره، إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين».

تصبّب العرق على جبين موسى فضحك الشيخ:

ـ يا لك من خجول!

- إني لا أملك مهراً.

- كن في خدمتي ثمانية مواسم، ترعى بيتي وتجارتي خلال رحلتي لبيت الرب. فإن أتممت عشراً فذلك تفضّل منك. هذا هو مهر إحداهن.

انفرج وجه موسى:

- ذلك بيني وبينك. أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ، والله على ما نقول وكيل.

وتزوج موسى من بكرية الشيخ «يثرون». ساعده في تجارته وراعى بيته. عشر سنوات كما عاهده. أنجب ذكرين يشبهانه وأنثى تشبه أمها. يعتني بأسرته الصغيرة وماشيته طوال النهار. وفي الليل، يصعد إلى جبل يطل على مدين، يختلي بنفسه فيسترجع كلمات الحكمة التي تلقاها في معبد «أون» ويحلم بوطنه الذي غادره، وإخوته الذين يفتقدهم.

ومرّت عشرة أعوام. بلغ خلالها موسى العقد الخامس. قضى حجج حميه، وربّى ابنيه على حب راعي السماوات والأرض، قبل أن تناديه المدينة التي تركها خائفاً. صوت في صدره لا يكف عن ترديد اسمها، وحلم يتكرر كل ليلة، يرى فيه أمه تحثّه على العودة إلى هوارة، وفرس نهر يطارد ضبعاً.

لمّا تيقّن موسى أن ما رآه في المنام رسالة شاور حماه ونوّه إلى أن عشر سنين قادرة على تبديل الناس وطمس الوجوه. ارتبك الشيخ «يثرون» وضربه القلق. ثم لمس التصميم في وجه موسى فتقبل على مضض وبارك الرّحال التي اتخذت طريقها غرباً.

سار موسى بأهله وخادمه لأيام على هدي النجوم، حتى استترت السماء خلف سحاب داكن فأناخ النوق بجانب صخرة بوادي طوى قبل أن يصمّ هزيم الرّعد الآذان. بكى أطفاله خوفاً فنظر في الظلام حوله يلتمس قافلة تؤازره. ثم صعد إلى هضبة فلمح شعلة بعيدة بجانب بركة ماء فقال لزوجته:

- لقد رأيت ناراً سآتيكم منها بخبر أو شعلة لعلّكم تستدفئون.

اتكأ موسى على عصاه درأ لكائنات الليل. اتجه صوب النار محاولا تمييز أصحابها أو دوابهم، نادى بالسلام فلم يتحرك ساكن، إلا النار، خيل إليه أنها قد تبدلت من صفرة إلى زرقة فيروزية، مشتعلة في أغصان شجرة صفصاف غزيرة الأوراق تنبثق من بحيرة ماء تحتها. أبطأ خطواته ودقق النظر فميز نوراً يتوهج في نعومة لم ير لها مثيلا، يصعد من الجذع ثم ينحني نزولا مع الأغصان إلى الأرض. نظر موسى حوله ثم نادى ثانية ولم يجبه أحد. قال له الفؤاد إن البرق قد ضرب الأرض فأشعل صفصافة لها خواص السحر. لما بات على بعد أذرع من الشجرة أدرك أن توهجها ليس ناراً، بل وميض فسفوري مشع يسير بداخل أفرعها سير الدماء في الشرايين. قاوم الفضول ورعشة في صدره ومد يده بتردد ملامسا الفرع فانتقل الوميض إلى أصابعه فكفيه ورسغه. بلا ألم، خفق قلبه وهو يتابع يده التي سار النور بداخلها في سلاسة، ثم أزاح ستائر الفروع واقترب من الجذع، من القلب الذي تنصب فيه الومضات، لامسه بكفه، وهنا فقط، سمع موسى الصوت، الصوت الذي سمعته أمه منذ أربعين سنة، يوم ألقته في اليم:

- بورك من في النار ومن حولها.

تلفت موسى حوله مضطربا، شدد على عصاه وابتعد عن الشجرة صائحا:

- من هناك؟

لم يتلق إلا صمتا، سكتت الرياح قبل أن يرن الصوت في رأسه ثانية:

- يا موسى، إنه أنا الله رب العالمين.

سقط موسى على ظهره وتهدجت أنفاسه، نظر للوادي من حوله مقاوما الظلام والهلع حين أردف الصوت من وسط النار:

- اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى.

قاوم موسى رعشته واعتدل في وجل، سلت نعليه من قدميه وجثا على ركبتيه محنيا رأسه رافعا ذراعيه مرددا:

ـ الجلال لك في هيمنتك، أنا لم أرتكب الشّر يومًا في موضع العدل والحق ولم أدنّس نفسي.

ـ يا موسى اهدأ ولا تخف، لقد اخترتك من بين عبادي فاستمع لما يوحَى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدني، وأقم الصّلاة لذكري، إنّ ساعة العدل والحساب آتية، وستجزى كلّ نفس بما تسعى. فلا يصُدنك من لا يؤمنّ بها واتّبع هواه.

قال موسى دون أن يرفع عينيه عن التراب:

ـ الجلال لك يا من تستقر فوق ميزان العدل، لم أتبع الهوى يومًا ولم أغضب بمشيئتي، لتضمن لي طريقًا عسى أن أعبُر عليه في سلام.

ـ ما تلك بيمينك يا موسى؟

ارتعش موسى ورفع عصاه فوق رأسه مُتلعثمًا:

ـ هي عصاي، أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، و...

ـ ألقها يا موسى.

وقف موسى مُقاومًا تهدّج أنفاسه ثم ألقى عصاه، ما إن لامست الأرض حتى اهتزت ثم تلوّت كثعابين المستنقعات، سوداء، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالأعين. نعقت فحيحًا ففزع موسى وهمّ بالهرب حين أمره الصّوت:

ـ لا تخف يا موسى، إنّك من الآمنين.

توقّف موسى والتفت لعصاه التي تتلوى على الأرض ببُطء حين قال الصوت:

ـ خُذها ولا تخف، سنُعيدها كما كانت.

بعد تردد اتجه موسى لعصاه، وقف أمامها لحظات قبل أن ينحني بحذر ويقبض على ذيلها الذي يتلوى فإذا بها

تتيبّس وتتصلّب فتعود كما كانت، قام مذهولا ففحصها، ثم ضرب الأرض بها ونظر للشجرة التي تتوهّج ضياء حين قال الصوت:

- أدخل يدك إلى جيبك، ستخرج بيضاء من غير سوء، إنها آية أخرى يا موسى.

نظر موسى ليده ثم وضعها في جيبه للحظات فلم يشعر بشيء، ثم أخرجها فإذا هي ناصعة مضيئة كأحجار مرمر في ضوء الشمس. تبدد فكره وثقل لسانه، قاوم ذهوله:

- أحقا أنت، إلهي؟

- صنعتك أمام عيني يوما بيوم في بيت الدميم، وألقيت عليك محبتي وعنايتي منذ ألقتك أمك بوحي مني في اليم لتنجو. والآن جئتك بالآيات لتصدّق.

سجد موسى على الأرض مقاوما التلعثم والرعشة، ثم رفع وجهه برهبة ونظر للشجرة التي ازدادت خضرة وحسنا، شرد فيها فسحر الوميض المتلألئ عينيه حتى سكن وهدأت روعته، همس:

- ما قد يرغب الرب من عبد فقير؟

- ستكون رسولي كما كان أجدادك؛ يوسف ومن قبله يعقوب وإسحاق وإبراهيم

- رسولك! إلى من؟

- إلى فرعون وملئه الفاسقين، ستنذرهم بالعذاب إن لم يتركوا بني إسرائيل يخرجون من حلف القبائل إلى الشرق.

- فرعون جاحد غليظ القلب، ما كان ليصدّقني، وقد قتلتُ رجلا من قبيلة يهودا التي يحكمها هامان، سيقتلونني إن عرفوا وجهي.

- ستحميك آياتي وتبرهن على صدقك.

شرد موسى للحظات قبل أن يردف:

- ربي، إنني رجل سريع الغضب، حين أثور يضيق صدري فيثقل لساني، وقد ينفلت غضبي فأعتدي، أرسل معي أخي: هارون، فهو حليم حكيم وأفصح مني لسانًا، سيُعينني على لقاء فرعون ويؤازر قولي.

- سنشد عضُدك بأخيك، وسيكون لكما سُلطان ورهبة بآياتنا فلا يصلون إليكما أو يؤذونكما، أنتما الغالبون ومَن اتَّبعكما من المؤمنين.

سجد موسى هامسًا:

- المجد والظفر والسلام لك يا مُلتهم الظلام.

لم يعرف موسى كم لبث في سجوده، شعور السلام دغدغ أطرافه فذهب في سبات مُريح، حتى داعبت الرياح وجهه فرفع رأسه ونظر للشجرة التي انطفأ وميضها واشتعلت النار في فرع منها. نظر للقمر في سماء صفت، ولعصاه المُلقاة بجانبه قبل أن يقوم فيلتقطها ثم يتجه إلى الشَّجرة، اقتطع الفرع المشتعل ورجع إلى زوجته وأبنائه، أشعل لهم نارًا ليستدفئوا ثم اختلى بزوجته:

- عليك أن تعودي مع الأبناء إلى أبيك «يثرون» بمدين.

اضطربت ملامحها:

- ماذا تقول؟

- أمر جلل سيحدث وأخاف أن يطولكم الأذى.

- لن أبرح حتى أفهم.

أجلسها موسى على صخرة وحكى لها ما كان من أمر النار والشَّجرة، نظرت إليه باستنكار ثم اتهمته بالجنون قبل أن تقول له إن ما رآه أضغاث أحلام وأوهام صحراء، هز رأسه نفيًا وأكَّد وعيه فاقشعر جلدها وهلعت روحها،

خافت ثم بكت، ثم أنكرت وقاومت، قبل أن تستسلم وقد همد جسدها وارتعش. احتضنها فجرّت ساقيها تجاه أبنائها مع بوادر الفجر، أسرّت لهم بأن على أبيهم أن يُكمل طريقه وحده. بكوا واحتضنوه ثم ركبوا الناقة مع الخادم واتخذوا طريق العودة إلى مديَن. أبصرهم موسى حتى تلاشى أثرهم. مقاومًا دموعًا في عينيه ورهبة تدق صدره، قبل أن يتخذ طريقه إلى هوّارة

قرب الغروب وضع كاي البوصة وأغلق دواة الحبر. أطفأ بيديه الشمعة ثم خرج للبحيرة المقدسة. تمشى على أطرافها ثم جلس وأدلى قدميه في المياه الدافئة، شاردًا في قصة نبي الرعاة، فمن هرب من حتفه يومًا يستطيع أن يدرك شعوره. الخوف الدائم المحيط بكل من يقترب. قد يكون قاتلك أو راصدًا لك مراقبًا، ستختفي وتغير اسمك، وستختلق القصص وتصدقها، ورغم ذلك، تظل أجفانك أثناء النوم مفتوحة، وأنفاسك مقطوعة، لا تستسيغ طعامًا ولا شرابًا، ولا تهنأ بلحظة سلام خالصة.

رفع كاي رأسه إلى السماء مبتهلًا فرأى النجمين المتجاورين، يسمونهما التوأم، همس لنفسه:

- سأطلق على الأول موسى، وعلى الآخر كاي، فإن كان بينهما ألف وثلاثمائة عام، فهما في أعين البشر متجاوران.

ثم أغمض عينيه وانخرط في ابتهال:

«يا رب الأبدية، يا أزلي، لتعضدني ضد فاعلي الشر، حتى لا يراني أحد مطروحًا عاجزًا. سأترجم برديات الكاهن في معبدك. الثور الذي يثير الرعب في الرجال لن يدفعني للوراء خطوة، والتمساح الذي يجر ضحاياه للمستنقع لن يقف في طريقي. ادفع الشر عني وسأهبك قلبي. عسى أن أظفر بثأر أمي، والكاهن، عسى أن يكون مستقري جنتك»

قالها كاي ثم سجد لوقت لم يحصه حتى استشعر خطوات الكاهن مختار فجثا احترامًا:

- سيدي.

أمره الكاهن بالوقوف:

- لديك حماس لم أرَ مثله في كهنة هذا الزمان.

. الوصية في رقبتي، والتساؤلات تنهشني.

. من لا تتخبطه التساؤلات، يسير إلى الموت كما تسير الخراف إلى الذبح، هات ما عندك.

. هل هناك ذكر لذلك الرجل الذي زار المعبد؛ موسى؟

. كانت هناك برديات اطلع عليها الكاهن الأعظم، ثم أتى الحريق الكبير الذي شبّ منذ أعوام على أكثرها.

. هل احتفظت الصدور ببعض منها؟

. نعم، بعض الراحلين كانوا يتلونها.

. هل عاش النبي حقًا في ذلك المعبد؟

. درس العلوم في الجامعة، وتلقى الهداية في ذلك المعبد، وأقام قرب البحيرة، مثلك.

اقشعر جلد كاي وهو يتأمل البحيرة، ثم التفت لكاهن المعبد.

. وهل عرف الكهنة وقتها أنه رسول الراعي؟

. لرسل البشر علامات كعلامات الملائكة، لا تراها إلا العين الثالثة في الجبهة، لقد أدرك كهنة المعبد أن بينهم رسولًا، أكرموا وفادته ولقنوه تعاليم المعظم إدريس وأطلعوه على الكتب المقدسة.

. هو إذن على دين إدريس المعظَّم؟

. صابئ خاشع يوحِّد الرب ويخشاه، ابتلاه الراعي بقوم خشني الأيادي والطباع.

. هل قرأت سيدي ما حل به؟

. لم يُمهلني الحريق قديماً قراءة البرديات، ولا يمهلني ضعف بصري الآن قراءتها، ولا أظن أحداً غير الكاهن الأعظم قد ألمّ بتفاصيل تلك القصة البائدة خاصة أنها لم تُنحت على الجدران. لتكمل ما بدأت ولتقرأها عليّ فور ما تنتهي.

انحنى كاي في إجلال قبل أن يخرج من المعبد، تجاه عرائش العنب، تجاه ناديا

☥

☥

☥

حين اقترب كاي من العرائش ارتفع النُباح، ربضت الكلاب نحوه فجثا على الأرض مُدنيًا قامته حتى اقتربوا وتشمموه فاطمأنوا، ربت على الأعناق والظهور فألفوه ثم بحث عنها بعينيه فلم يلمحها، نادى فلم يتلقَّ إجابة، دلف إلى الخُص الخشبي الذي تسكنه فلم يجدها، انزلقت عيناه تلقائيًا إلى خطواتها على الرمال، ميز قدميها الحافيتين من بين الأقدام، تسير على قلبه باتجاه النهر، تقصاها حتى الضفاف، وجد ثوبها على صخرة والتقط من الماء حركة، ثم رآها، تذيب القمر لينساب على شعرها والأكتاف لينزل إلى النهر مُحمَّلًا بعبقها، اقتعل كَحَّة فادركت وجوده، التفتت، نظرت إليه ولم تتحرك أو تصهل، لا تريد أن تزعج السمك الطائف حولها مذهولا بما يرى، تجمّد الزمن للحظات حتّى غاصت في المياه، بلّلت النهر بشعرها ثم رفعت ذراعيها لتروضه فانكشفت منابع ثدييها.

- ظننتك ستنام في المعبد.

- أنت قلت للكهنة إنك زوجي.

ابتسمت فزاد عُمر كاي عامًا، استطرد:

- ألا تخافين التّماسيح؟

- قال الكهنة إن التماسيح لا تقرب المعبد.

. مُنذ متى تؤمنين بالكهنة؟

. عليّ أن أثق في كائن ما يومًا.

. إن كنت تثقين بي فاخرجي.

. لم لا تنزل أنت إلى النهر؟ الماء دافئ والتيار يحمّش الروح قبل الجلد، أم إنك تخاف، منّي؟

. لقد سبحت مع التماسيح يومًا في البحيرة...

قبل أن يُكمل جملته غاصت وابتعدت كسمكة سكندرية. اشتعلت الجذوة في صدر كاي، ثم امتدت النيران إلى أنفه فعقله. عيناه تلاحقانها وساقاه تقاومان جذوره المتشعّبة في الأرض منذ ولد. نظر للفراغ بين القمر وظهرها ثم همس لنفسه:

كيف فعلتها؟

كيف خلقت تلك الأنثى؟ كيف دوّرتها؟

كم قضيت في نحتها؟

بأي خمر وأي ورود وأي لآلئ ملأتها؟

كيف الفكاك من خُصلات شعرها؟

من ثغر كثغرها؟

ثغر يستهزئ بالنيران، بالشموس، بالنجوم العلا

أنت تعلم

تعلم أني لم أعبد صنمًا، ولم أشرك بك يومًا.

تعلم أني عبدك المطيع الذي عاش أيامه يبتهل تدما.

عبد سبّح باسمك عدد النجوم،

وسجد لك في ألف صلاة.

لكني لم أسجد في محراب مثل محرابها،

ولم أحرق البخور والقربان فوق مذبح مثل مذبحها،

إلهي، كيف أقاوم أنثى اشتهتها الرمال والصّخر وأسماك النهر؟

كيف أقاوم تلكما العينين وذلك الخصر؟

كيف أشكو صنعتك إليك، والأسنان أسنانك، والشفتان شفتاك؟

سأخوض النهر خلفها ولن أبتل،

حتى أصل إليها فأغرق أو أنهل،

لتغفر لي أو لتلعنني فقد هدمت أسوار معبدي واجتاحت العاصفة صدري،

وتقوّض قدس أقداسي،

بين أناملها»

خاض النهر حتى خصره فخلع الإزار الذي يرتديه، التفتت إليه ثم انغمست في الماء لتصبغه، وابتعدت، اقترب منها متواليا، مسحوراً بالكتفين والخدين، تدفعه ضربات قلب تسمعها الأسماك في منبع النهر، توقفت نادبا عند حزمة بوص، تابعته حتى بات على بُعد ذراع منها، ابتسمت بأسنان لمعت في ضوء القمر.

. كنتُ أفكر في حالي، وفيما لو ظللت على الشاطئ ولم تأت.

رمقها بصمت ثم أجاب:

. من ذا الذي يُقاوم القرب منك؟

. ربما كاهن لا يؤمن بالحُب؟

. لم أؤمن حتى رأيت الآيات.

ضحكت:

. هل أقنعتك؟

. أجبرتني على السجود.

. لم لا تقدم النذور على المذبح إذن؟

. ستحرقين النهر.

. لتلك الدرجة تخافني؟

. أخاف العشق أن يتمكن مني فيهزمني.

اقتربت منه. لم يتحرك. نفثت هواءها في صدره:

. وما لذة الحياة إن عشت مُنتصراً لا تنهزم؟

. الناس يأتون المعبد بحثا عن الشفاء من العشق، وأنا الآن أخطو خطوهم!

. بماذا كنت تداويهم؟

. بالصلوات والتسابيح.

. هل اختبرتها معي؟

. منذ رأيتك أول مرة، ويجب أن أعترف، لم تجد معك حتى تلك اللحظة

. هل تنوي تكرار المحاولة؟

. شفتاك في السفينة، أسقطت آخر حصوني.

قالها ثم لف ذراعيها خلف ظهرها ولثم الشفتين، أغمضت عينيها وغاصت فيه كما لم تغص في رجل قبله. عصرت أصابع قدميها طمي النهر وأثار ثدياها موجة فتحرك القمر من الشمال للجنوب، لم يكن يقبلها، كان يأكل، ينهل، يبارك بلسانه الأسنان والضروس، يسبّح في فمها ويصلي فوق لسانها، ثم يمتص الدماء من عروق رقبتها، أصغت الكائنات لصوت اللثم واللهاث حتى عضت شحمة أذنيه فسرت الرعشة فيه، أحاطت خصره بساقيها ونظرت في عينيه آمرة، دون أن يناقش سحبها من شفتيها كسمكة خمرية أنهكها الموج، استلقيا على العشب فاعتلى سماءها، فرجت جناحيها فاعتصر سحابها حتى برقت ورعدت، ثم أمطرت فأغرقت أسماك النهر، وسال نور القمر على قمم الجبال، ثم ساد السكون، إلا من رعشتها وتهدّج أنفاسه، لساعتين، شعرا حين استيقظا بعدهما أنهما سنتان.

نظر إليها فمال رأسها بابتسامة كسولة

. لم أنت صامت؟

. الصمت في معبدك عبادة

. احك لي عنّي.

. تنشدين المديح ولا أجيده.

. قل ما بخلدك دون مواراة.

. منذ رأيتك أتساءل عن ذلك النور السابح حولك، وعن الجنون الذي أراه في عينيك، أما جسدك...

. أكمل...

. سحر، كسحر اللوتس الأزرق على العقول، وعطر كعطر الغزلان.

. تُجيد الشعرا

نظر للنجوم:

. الإنشاد في المعبد يعوّد اللسان على التبجيل.

. لكنك تخاف العشق.

. أخاف ألا أستطيع العيش دونك.

. لم تفترض السوء؟

. طريقي ليس مفروشًا بالورود.

. لا تُفسد اللحظة.

. من مُتعتي أتخيل ضياعها.

. تعوّد أن تستمتع بلا أرق التفكير. فإن كانت تلك آخر أنفاسك فالأفضل لها أن تكون مُحملة بعبق أنثى.

. ألا تشتاقين لحياتكِ السابقة، ففيها ألوان لا توجد في المعابد؟

لم تجبه. كانت شاردة في العاهرة التي خرجت من الماء مُمسكة في يدها بحبل من الطحالب. تفجرت اللّعنات بداخل ناديا فاعتلت صدر كاي مولية ظهرها للنهر ولمن خرجت منه:

. إن كنتُ أشتاق ما تركتُ الإسكندرية.

. ألا تقارنين بيني وبين آرام؟

. مالت إليك كفّة الميزان مّذ رأتك عيناي.

. لكنه فتى ثري وأنا...

همست العاهرة في أذنها مُكملة جملة كاي:

. ساحر سيُسمِم أذنيك بمعسول الكلمات.

لم تعرها ناديا اهتمامًا، أدارت وجهها للجهة المقابلة قرأتها، تنسج من حبل الطحالب مشنقة، أردفت:

. كاهن ألقى كلماته في أرض لم يطأها غيره، كأنها أول مرة لي، لم احظ بتلك المّتعة من قبل.

ابتسم كاي ولم يعقّب فاقتربت العاهرة ومسحت بحبل الطّحالب ظهرها وهمست في أذنها:

. انظري إلى عينيه، إنهما تكذبانك، تحاول أذناه ابتلاع كلماتك، تحاولان تصديق أنك لم تقولي نفس الكلمات لغيره وغيره.

اضطربت ملامح ناديا:

. أنا لم أعشق قبلك وإن تظاهرت.

. أصدّقك يا ناديا.

. حقًا؟

. ولم لا أفعل؟

. لأني امرأة لها ماض.

. كيف أحاسبك على ماض لم أشهده؟

- لو كنتُ مكانك ما وثقتُ فيَّ.

- علينا أن نثق في شخص ما يوماً.

ضحكت ناديا فهمست العاهرة:

- الرجل يفعل أي شيء ليحتفظ بالأنثى أطول وقت. اسأليه هل يقبل أن يعيش معك أبداً؟ هل يقبلك زوجة أمام الناس وأمام الكهنة؟

زفرت ناديا ثم سألت كاي:

- لنتزوج، ما رأيك؟

نظر كاي في عينيها وتأخرت الإجابة فلفّت العاهرة حول رقبته حبل الطحالب المجدول:

- هؤلاء هم الرجال، تبنين من أجلهم قصور الرّمال وتتخيلين بسذاجتك أنهم سيسكنون معك فيها. إنهم يا صغيرتي لا يرونك إلا جسداً، ومن أراد تذوق اللحم فليس عليه أن يشتري بقرة كاملة.

- ترددّت أيها الكاهن؟

قالت ناديا وهي شاردة في المياه الجارية.

- لستُ حرّاً، فحمل ظهري ثقيل.

أردفت العاهرة:

- الفاكهة التي سقطت من الشجرة يعافها الرجال وإن تذوقوها.

قامت ناديا فالتقطت العاهرة رداءها ووضعته على كتفيها حين وقف كاي:

- أين ستذهبين؟

رفّت شفتيها بابتسامة:

. لا أريد لتلك الليلة أن يشوبها ذكرى سيئة.

. لتتفهمي مأساتي.

. فهمتها، أنت كاهن، لديك رسالة يجب أن تنجزها، ربك في السماء...

قاطعها:

. وأنت في الأرض.

. في الحانة، سمعت تلك الكلمات ألف مرة.

. أنا صادق.

. وأنا أستحق الاحترام أيضا.

. حالما أنهي ترجمتي سوف..

قاطعته:

. سوف تسعى لنشرها، وسيتعقبونك، وسيقتلونك.

. عليك أن تثقي بي؟

أعطني سببًا.

. لم أعتد خيانة العهود.

. لذلك لا تريد أن تعاهدني، لأنك ستنهي ترجمتك ثم تسعى للانتقام ممن قتل أمك.

. نجاحي في الترجمة هو انتقامي، أن يعرف الچيبتيون حقيقة المرض المتوغل فيهم.

همست العاهرة:

. حالما يُنهي ترجمته ويعرف الچيبتيون.. سيتزوجك ليهبك الاحترام والقداسة، بعد عشر سنوات.

رمقتها ببغض ثم أردفت:

. أشعر بالبرد، سأذهب إلى الخُص.

. ناديا.

. أحتاج أنا أكون وحدي.

تركته ورحلت. ظل كاي في مكانه دقائق قبل أن يرتدي إزاره ويتجه إلى المعبد.

☥

☥

☥

في المعبد.

يختلط البخور بالذكر.

الفكر بالشرود.

والزهد بالرضا.

إلا إذا كنت تجلس على حافة مياه بحيرة مقدسة، هاربًا من الدنيا، محدقًا في انعكاس قمر دون أن يرمش لك جفن، مجترًا لحظاتك مع أنثى تعجز الكلمات عن وصفها، مستعيدًا وقع كلماتها في صدرك، وآثار قدميها على قلبك.

الأنثى تسعى لحياة، وأسعى لحتف، تتكلم بقلب ينبض، وأتكلم بعقل واثق، أو هكذا أتخيل، فكل ثابت تحرك وكل متحرك دار حول نفسه ثم تفجر وتناثر. فالندى كفر بالأرض التي استقبلته، والمراكب فقدت الإيمان بالرياح الشمالية، أما أنا، من أنا؟ لا أكاد أعرف، كاهن يخدم الراعي ومريديه؟ أم رجل، تحركت روحه التي اعتادت الطيران بجانب الملائكة، وراء غزال بري متوثب يفوح منه عبق المسك؟

«سيدي الكاهن، لقد مسني العشق».

سمعت تلك الكلمات وراء الجدران السميكة التي لا تبوح بالأسرار، تنساب من أفواه العشاق إلى أذني، يشكون الوله،

المرض، هكذا كنت أسميه، أربت على الأكتاف وأمسح الرءوس بالزيوت ثم أتلو متون الصبر عليهم وأمرهم بالتسبيح مرارًا وتكرارًا حتى يزول العشق. كانوا يبتسمون بضعف وأعين زائغة تتلفت، ثم يذهبون، ظننت فيهم الشفاء لمّا لم يعُد منهم أحد إلى المعبد ليقدم الشكر والنذور.

لم أكن أعلم.

أنهم كفروا بالمعبد.

وكهنة المعبد.

ورب المعبد.

لم يعد من سبيل لقطع الفكر وتخليص القلب من الكدر سوى العودة إلى البوص والبرديات. العودة إلى الكلمات التي كتبت نهاية كاهن أكبر، وتخط الآن، نهاية تلميذ لا ذكر له.

فالترجمة سهم انطلق، ومن الأفضل له أن يُصيب.

☥

☥

☥

ودخل موسى أرض الفيروز، أرض الحجر الأزرق الذي ضمن لقبائل هوارة العلو منذ اجتاحوا شبه جزيرة مصر بأرض إيجيبت، دخلها بلحية تناثر الشيب فيها ووجه تخفّى تحت قلنسوة وسنوات من النسيان.

تغيّرت هوارة. عشرة أعوام كثرت فيها صروح رؤساء القبائل وشيّد فيها الكثير من الحصون المحاطة بالخنادق درأ لهجمات الچيبتيين من غرب وجنوب النهر بقيادة «كامس» ابن «سقنن راعي»؛ ذلك الملك الذي يطلق عليه الناس في هوارة لقب «الثعبان»، يحفرون صورته على الأواني الفخارية ثم يكسرونها بغل وحقد، أو يدفنونها في الطين الفاسد لتتعفن، ورفع فرعون سعر رأسه حتى بلغ ألف كيلة من الذهب.

في طريقه لحيّ الإسرائيليين مرّ موسى بالأسواق، طريق طويل مظلّل بالأقمشة، يتراصّ على جوانبه باعة الكروم والتمور والشعير وجزارو اللحوم، قبل أن يمرّ بساحة الأسلحة الممتلئة بحدّادي البلط والفئوس وصانعي السيوف، لتنتهي الساحة عند هضبة قارون التي تطل على فرع النهر، ربوة مرتفعة تحمل قصراً جديداً كانت قواعده ترفع حين فرّ موسى هارباً، بناء بديع من الطين المنقوش، مرصّعة شبابيكه وأبوابه بالأحجار، بجانبه ساقية عملاقة ترفع المياه من النهر بقوة تياره وعضلات الثيران، لتصب في مجرى صخري مائل يدفعها جارية متجدّدة إلى أحواض القصر، تأمّله موسى للحظات ثم كبس قلنسوته فوق رأسه وانحرف تجاه خرائب بني إسرائيل، سار حتى كثر الذباب وفاحت الروائح الكريهة قبل أن يمرّ تحت بوابة خشبية متسخة كتب عليها بالدماء وبآرمية رديئة «الأراذل»، دلف موسى إلى الحيّ الذي تردّت حالته من سيئ إلى أسوأ بعدما انعزل عن

أراضي القصر بسور عال رُشقت فوقه رماح مسنونة. نحلت الوجوه وهزلت الأجساد. غُلّقت المتاجر وتناثر المرابون والعاهرات. كثُر الذباب وفاح العرق والمرض والشقاء من كل ركن. لمح رجلًا مصلوبًا معلّقة على صدره لوحة كُتب عليها «ذلك جزاء الخائن»، وآخر وثّق رأسه المقطوع بين قدميه وكُتب عليه «كلب إسرائيلي». قاوم موسى تقيؤًا قبل أن يُسرع الخُطى صوب بيته.

اتخذ الأمر من هارون لحظات حتّى تعرّف وجه أخيه. احتضنه بفرحة حتّى بكيا قبل أن يُحكم إغلاق الباب بالمزلاج. جلسا في غُرفة النهر فحكى موسى ما كان من أمر سنواته العشر في مديَن ليُشبع فضول هارون، قبل أن يبتر حديثه عند رحلة العودة وما حدث عند الشجرة العجيبة. أراد أن يُرجئ الذهول، التعجب، والأمر الجلل الذي أتى من أجله. فسأل هارون عن حاله فأخبره أن أباه قد مات منذ عامين بعد مرض لم يُمهله. تجهّم موسى وهو يتذكّر مروره يوميًا على ذلك الحاجب الذي يبتسم له في حنان وود فربت هارون على كتفه ليشتت حُزنه، ثم حكى عن مريم التي تعيش في الجوار مع زوج مريض، وعن حاله:

- أتزوّج؟ من التي تتزوّج من نحيل مثلي يا موسى؟

- لك عينا أبيك وهيبته.

- لم يعد أحد يتزوّج في بني إسرائيل يا ابن أم. ففرعون يحرّم علينا التجارة مع القبائل ويصلب ذكورنا لأتفه الأسباب. أما الفتيات فإما يُبعن رقيقًا بأبخس الأثمان أو يحترفن البغاء. يا ليته أهلكنا أو أباد ذريتنا حين أتته الرؤيا الملعونة. إنه فقط يستمتع بمذلتنا.

- وقارون؟

- خزائنه تتضخّم كبطن فرس النّهر. نهم لا يكتفي. يقدم أبناء قبيلته حطبًا لنار فرعون نظير استئثاره بمناجم الفيروز.

- ألا يتحرك رءوس العشائر فيستنكرون الظُلم؟

- من ذا الذي يجرؤ على مواجهة فرعون؟ أنت لا تعرف كمّ الغرور الذي بلغ رغم تآكل أراضيه الغربية لصالح «كامس»، فالآن يسبق اسمه لقب «الرّب الأعلى»، يُوتد الأطراف ويقطع الرّقاب مُتعة وتنكيلًا في احتفالات باذخة لا تنتهي، يُبدد قوة الرّجال في حفر الخنادق وصُنع طوب الطمي في موقد ضخم لا تخبو ناره، يبني الصُروح مُقلدًا قصور الچيبتيين في الجنوب، يظن أن الطين سيصمُد كما تصمُد أحجار سونو [1].

- هل ذكر اسمي منذ رحلت؟

- جاب جُند هامان البيوت بحثًا عنك، ثم خبت سيرتك ونسي أمرك، وقد أثلج صدورهم ابتعادك عن رأس العجل.

- الشكر للراعي في سمائه أنك على قيد الحياة.

سكت الكلام ولاحت في وجه هارون بسمة اطمئنان قبل أن يقرأ في عيني موسى كلمات محبوسة.

- يا ابن أم، ما سبب المُخاطرة بزيارة الدّيار بعد استقرار؟

- إنما أردت الاطمئنان عليك وعلى مريم، ولتعينني في طريق عليّ اجتيازه.

- فداك نفسي، ولكن أي طريق؟

- الطريق إلى قصر فرعون.

تدلّى فكّ هارون وانقطعت أنفاسه وزاغت عيناه شرودًا في ما قال أخوه.

---

[1] سونو: هو الاسم القديم لأسوان حاليًا، ويعني السوق، حيث كانت مركزًا تجاريًا للقوافل ومحجرًا وفيرًا للأحجار

☥

☥

☥

لم يفق هارون من صدمته إلا حين أخرج موسى يده من جيبه بيضاء فضيلة!

- المسها ولا تخف.

اقترب هارون في وجل ولامس كفّ أخيه. نظر إليه في شغف فقص موسى ما حدث عند الشجرة بوادي طوى. دمعت عينا هارون ثم جثا!

- لقد تكرر حلم عودتك والشّمس بين يديك حتّى أدركت أن أمرًا جللًا سيحدث.

- لقد أتت اللحظة الفارقة يا هارون.

- كدت أيأس من وجوده في السماء. طالما شردتُ في سيرة أسلافنا ودعوت أن يخرج منا من يتّصل به. لكنّي لم أكن لأتوقع أن تكون أنت يا موسى ذلك الرسول! هل رأيته؟

- لم أره، لكنّي سمعته.

- كيف بدا صوته؟

- كلمات لها وقع مثير تلقى في العقل كما تلقي الشمس أشعتها على الورود. وقد طلبت منه أن تكون رفيق

طريقي، وقد بارك.

تهدج صوت هارون حماسًا وخوفًا:

. أنا؟ رسول؟

. نعم، إلى فرعون.

. ويْحي، عقلي لا يحتمل كلماتك!

. لن أجد خيرًا من هارون، أخي الحكيم.

. ما هي الرسالة؟

. أن يفك أسر بني إسرائيل ليخرجوا من حلف القبائل.

. سيوتد أطرافنا قبل أن نُكمل ما نقول.

. الرّاعي معنا خطوة بخطوة، يسمع ويرى.

أطرق هارون برأسه إلى الأرض في شرود:

. لكن، نحن للضعف أقرب، لن تؤازرنا القبائل، وأولهم تلك القبيلة.

. لم أقل ان الطريق ميسور.

. لم اخترتني؟

. ينقصني حلمك وكياستك، لتحفظ زمام غضبي، وتحبِّر كلماتي إذا تلجلجت، كما سأعتمد عليك أن تخاطب أصحاب الألباب من بني إسرائيل؛ كي ترفع عنهم الذّلة والمهانة. وليعرفوا أن الرّاعي في السماء حي لم يمت.

- ما كُنت لأخذلك يا ابن أم.

في المساء استدعى هارون سرًا رءوس العائلات من بني إسرائيل في بيت رجُل منهم، تذمروا من الانتظار حتَّى دخل عليهم موسى، كشف وجهه فقطبوا جبينهم في اندهاش وتشاؤم، جلس بينهم فساد الصّمت قبل أن يتساءلوا عن سبب عودته، حكى لهم عن رحلته إلى مدين ثم عن الرسالة التي حمُل ظهره بها، عبست الوجوه وتمشّى في ملامحها الاستهزاء والاستنكار والوجل، قال كبيرهم:

- لقد هبطنا مصر من قبل يوسف، عشنا فيها ومتنا، أكلنا من أرضها وشربنا من آبارها، وتحمّلنا هجمات الحيثيين، الآن تريدنا أن نخرج من أحلاف القبائل إلى الشرق المقفر؟ نعود بدوًا رحّلًا لا أرض لنا ولا زرع؟

- الرّب سيتكفّل بإقامتكم ومأكلكم.

- إن كلماتك لا تحمل إلا الهلاك يا ربيب القصور.

- بل النّجاة من المهانة والخروج منها، ما لكم تتكلّمون كأنّكم أسياد مُكرَمون؟ إن فرعون لا يزداد إلا طغيانًا وغلًا.

نظروا لبعضهم في استنكار، ثم أردف أحدهم:

- لمَ تذكّرنا ربّك الآن؟

- ربّي وربّكم واحد أحد، خالق كل شيء، لا ينسى ولا ينام وكل شيء عنده بمقدار وميعاد.

- هل يصدّق عقلك أن فرعون سيترك بني إسرائيل يخرجون من مصر إلى الشّرق؟

- عليّ وأخي إقناعه، تلك مهمّتنا.

- سينكّل بنا ويصلبنا في جذوع النّخل.

- كأن ذلك لا يحدث لأتفه الأسباب! كلّما مرّ عليه الوقت اشتعل جنونه، القادم أسوأ.

- ألا تخافان القتل؟

- قال الرّب إني وهارون ومن اتّبعنا غالبون.

- وما يُدرينا أنك رسول الرّب حقًا؟ لم لا يكون عقلك قد أصابه الخبال؟

- ستعرفون حين أعود من بيت فرعون.

ساد الصّمت فنظر الرجال لبعضهم ولموسى وأخيه الواقف خلفه، قبل أن يهزوا رءوسهم ويقوموا:

- سندعمك ونؤيدك، ولكن تلك الجلسة لم تحدث، حتّى تعود من بيت فرعون على قيد الحياة.

نظر موسى لهارون الذي هز رأسه مؤيدا ثم مد يده لشيوخ القبيلة:

- هذا عهد بيننا.

لما غادروا نظر موسى لهارون:

- لا أعرف أيهما أصعب، لقاء بني إسرائيل أم لقاء رأس العجل!

- هما نفس النسيج، ضباع.

- مددت يدك بالسلام في عجل! لن يؤيدونا إلا إذا عُدنا أحياء.

- هذا أقصى طموحي في دعمهم.

لم يُصدّق الحارس القديم عينيه حين رَفع الأمير الهارب قلنسوّته فكشَف وجهه. قطب جبينه وهو يتأمّل عشر سنوات حفرت وجه ابن عمران حاجب باب الملك الراحل. قبض عضده وعضد أخيه فانتحى بهما جانبًا وهمس مَنفعلًا:

- ما خطبكما؟ أصابكما الخبال أم تسعيان لحتف؟ أنت يا هارون؟ كنت أظنك رشيداً تملك حكمة أبيك!

ابتسم هارون في هدوء:

- أبي لم يكن يتحدث إلا عن إخلاصك وصداقة لن يفرقها إلا الموت.

- رحم الرّب أباك. توارى أربعين سنة خلف الباب الكبير فلم يطله من الملك ما قد يطولكما. وأنت يا موسى، أما علمت أن الملأ يترقّبون عودتك ليقتلوك؟

ربت مّوسى على كتف الحارس:

- إنّا بعواقب زيارتنا لمدركون.

وعقّب هارون:

- إن كنت تثق في عمران فلتثق في ولديه.

نظر إليهما الحارس فلمس في أعينهما الجنون والتصميم:

- لستما طفلين تنقصهما الوصاية.

تقدمهم في أرض القصر التي تغيّرت ملامحها، ارتفعت ثلاثة تماثيل ضخمة في الطريق الصاعد المسوّر بالنخيل، أولها لست» منتصبًا بوجه خنزير، يضع تاج العجل على رأس فرعون الواقف أمامه، التمثال الثاني لفرعون بزي وتاج الحرب، مُمسكًا برأس مقطوع يُمثل ملك الجيبتيين «سقنن راعي»، أما الثالث فكان صنمًا قديمًا يعود لموطن الملك ببرية فاران.

وصل موسى وهارون لنهاية الطّريق الصّاعد قبل أن يمشيا بحذاء السّور الذي ارتفع حتّى بلغ أربعًا وعشرين ذراعًا، دلفا من البوابة الكبيرة، وطلبا من الحاجب مقابلة الملك:

- أخبره أني موسى، الفتى الذي فرّ من هوّارة قبل عشرة أعوام.

انتظرا ساعة قبل أن يؤذن لهما، انحدرا جنوبًا خلف الحاجب حتّى بلغا نبع الماء الذي تفجّر بين الجبال في عهد الملك خيان، ملأ بحيرة صافية تتصاعد الأبخرة من مياهها وينمو حولها النّخيل، أمرهما الحاجب أن ينتظرا خلف صخرة ولا يُحدثا صوتًا، اختلسا النظر نحو سقيفة يعلوها سعف النّخيل فرأيا رجال آل فرعون، بعض الأصدقاء القدامى الذين تملكوا المناصب، وعلى الوسائد الناعمة تناثرت فتيات المتعة في استرخاء، يخدمن الجمع بلا حدود، ثم لمحا ظهر قارون، زاد شحمه فتدلّى على الجنبين وطالت ضفيرته حتّى لامست مؤخرته السّمينة، يُحيط بذراعيه غلام عارٍ مكسو بالجواهر، استنكر هارون المشهد ولوى شفتيه فغمز موسى بعينه وهمس:

- ليست كل الأخبار مكذوبة.

ثم ميّزا هامان، يقف قرب البحيرة بجسد صلب مفتولة عضلاته رغم بلوغه العقد السادس، ينظر لمياه النّبع الساكنة بترقب، همس هارون:

- على ماذا ينظر؟

- سباق التنفّس.

لحظات لم تطل حتّى خرج رأس الملك من المياه الساكنة. سحب شهيقًا عميقًا ثم صاح صيحة عالية ردّدتها الجبال فضحك هامان في صخب وصفّر تشجيعًا ورفع قارون كأس نبيذه في كسل تحيّة لرئتي الملك. خرج فرعون من الماء عاريًا، يتدلى عضوه المخضّب بمسحوق الكركديه الممزوج بالنحاس المحروق. صرف العبد الذي اقترب منه بالمناشف متعمدًا الوقوف عاريًا أمام الجمع الذي اتكأ الوسائد. ثم اقترب هامان منه، تبادلا حديثًا لم يلتقطه موسى الذي تأمل غريمه بعد طول غياب: طال شعره وكثرت الحلقات النحاسية التي تضفر لحيته والسلاسل الغليظة على صدره، تحمل أحجارًا من مناجم الفيروز وبقايا شهب لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها حين هوت من السماء. وازدادت عيناه حدّة. طال الحديث حتّى جفّ جسد فرعون بحرارة الشمس قبل أن يلتفت تجاه موسى، تأمله للحظات ثم ابتسم وأشار بأصبعه ليقترب. نظر هارون لموسى الذي هزّ رأسه مطمئنًا ثم اتجها لفرعون، اقتربا فالتفت قارون مضيقًا عينيه فتحامل على فتاه ليقوم من مكانه مقاومًا شحوم كرشه، حين بلغا فرعون لكز الحارس ظهريهما بعصاه وهمس:

- اسجدا لرب الأرض.

نظر موسى في عيني الملك ولم يحرك ساكنًا. اكفهر وجه هامان وانفجر الغضب فيه فالتقط خنجرًا من حزام حارس قريب فتحفّزت أسلحة الباقين. اقترب من موسى وأخيه شاهرًا النصل فاستوقفه الملك:

- دعه يا هامان.

كزّ هامان على أسنانه فنفخ أنفاسه في وجه موسى ثم صاح بانفعال:

- لقد قتل ذلك الخائن رجلًا من قبيلتي.

أجاب موسى:

. كُنت في ضَلال فقتلته خطأً

صاح هامان:

. ولِم فررت؟

. علمت أنكم لن تسمعوني أو تُصدِّقوا.

مسح فرعون على شعره الكثيف:

. دعه يا هامان، فالفتى الذي ربَّيناه وليدًا ولبث فينا من عمره ما لبث، صار رجلًا.

ثم التفت لموسى بابتسامة:

. لم يكن لك همٌّ سوى ركوب الخيل في الصحراء وزيارة الخرائب، ثم فعلت فعلتك في جُنْح الليل وفررت، لم أرسل وراءك من يقصّ أثرك فيقتلك، وها أنت تعود من الجُحر الذي كنت فيه! لماذا؟

. لقد أتاني راعي السماوات والأرض فجعلني من المُرسلين.

نظر فرعون إلى هامان وإلى قارون الذي اقترب، ثم انفجر الضَّحك، حتّى الفتيات وغلام قارون والحرّاس ضحكوا، واقترب الملأ والأصدقاء من تحت السقيفة ليتابعوا المَشهد. تبادل هارون وموسى النظرات حتّى هدأ الصَّخب فقال فرعون:

. موسى! طريح الماء، أصبح رسولًا! رسول مَن؟

. رب العالمين...

اهتز قارون:

. انتظرا حتّى يعرف بنو القبيلة الخرف الذي جئتمونا به. وأنت يا هارون، يا ناسك القبيلة، هل صدَّقت كلمات

أخيك...؟

قاطعه فرعون:

ـ مهلك، انتظر، للتو قال: «رب العالمين»! أنا لم أرسل أحدا!

عقب موسى:

ـ أتحدث عن رب السماوات والأرض وما بينهما، ورب آبائك الأولين.

نظر فرعون لهامان وقارون:

ـ ألا تستمعون؟ لقد قال: «رب السماوات والأرض ورب آبائنا الأولين».

أردف قارون:

ـ لا بد أن الجذام المنتشر في خرائبكم تسلل إلى عقليكما.

وصاح هامان:

ـ دعني أقطع رأسيهما.

رفع خنجره فتحفز موسى ووضع هارون خلفه:

ـ يا فرعون إني رسول الراعي، جدير بي ألا أقول إلا الحق.

أطل الغضب من عيني فرعون:

ـ تناديني بفرعون دون لقب؟

ـ تقف عاريا وتطلب لقبا؟

. لقد نفد صبري، قُل لي ما الذي أتى بك قبل أن يطير رأسك ورأس ذلك النحيل البائس؟

. أريد أن تُرسل معي بني إسرائيل.

قارون:

. ماذا تعني يا ذاهب العقل؟

. أعني أن ترحّل بني إسرائيل من بين الأحلاف.

. إلى أين؟

. إلى أرض الرب الواسعة.

أردف قارون:

. ومن أنت حتّى تتحدّث نيابة عن بني إسرائيل؟ ألستَ شمسُ الصحراء أبي زعيمَ تلك القبيلة؟

. وأنا رسول رب العالمين لتلك القبيلة، خير من رجل لا يستحي قتل عشيرته.

اضطرمت النار في وجه قارون فنظر فرعون للملأ من الأثرياء الذين وقفوا عن قرب يتابعون:

. كنتم تسألونني لم أحتقر تلك القبيلة العفنة؟ ها هي النوايا تصعد إلى السطح، يُريدون أن يخرجوا من الأحلاف لينضموا للحيثيين في الجنوب حين يقاتلوننا. يقاتلون إخوانهم.

تمكّن الغضب من موسى:

. الآن بني إسرا... ئيل إخوانكم؟

ضحك فرعون:

همس هارون في أذن أخيه:

. اهدأ يا ابن أم.

قال فرعون:

. كانوا إخوانًا حتّى أدركت نواياهم حين ملكت العرش، لا يكفيهم الاستئثار بالذهب، ولا ممارسة الربا، بل ويتناسلون كالخنازير، يريدون ليستولوا على حُكم المصر، متمسّحين في نسل من الدجالين والمشعوذين ادّعوا يومًا اتصالهم بالسماء.

. اتركهم ليرحلوا معي وسأكفيك شرّهم.

. إلهك المزعوم هو من أمركما بذلك؟

. نعم.

. أين يسكن إلهكما؟

أردف هارون مخففًا عن موسى غضبه:

. في كل مكان، هو الذي جعل الأرض ممهّدة وسلك لكم فيها الخيرات، هو الذي ينزل الماء من السّماء، وهو الذي يُخرج النّبات من الأرض، وهو الذي يُحيي ويُميت، إنّ في ذلك لآيات لأصحاب العقول.

. وماذا عن الأمم الأولى يا صاحب العقل؟ هل إلهك هو من دمّرها؟

أجاب موسى:

. من كذب وادّعى نفسه إلهًا يأتيه عذاب السماء.

التفت فرعون للملأ الذين تابعوا المُحادثة في شغف:

- يا أيها الملأ، ما علمت لكم من إله غيري.

ثم نظر لهامان:

- لم لا توقد على الطين يا هامان فتجعل لي صرحًا لعلّي أطّلع إلى إله موسى؟ إنّي لأظنّه كاذبا.

ضحك الملأ فالتفت إليهم موسى:

- لقد جئتكم ببيّنة من عنده لعلّكم تصدقوننا.

ابتسم فرعون ورفع حاجبيه:

- أبلغوا المهرجين من الأقزام أن اليوم يوم راحة، فقد أتانا مُهرّجان جديدان.

نظر موسى لأخيه قبل أن يرجع للوراء خطوتين، رفع عصاه فتحفّز هامان وتوارى قارون خلف كتفه. أما فرعون فداعب عضوه مُستهزئًا حين ألقى موسى عصاه، ما إن لامست الصّخر حتّى تلوّت، ثم استحالت ثعبانًا أسود لامعًا في طول رجلين. فزع الملأ وركضت الفتيات ومن ورائهن قارون يهز لحمه في خفّة حتى انكفأ على وجهه أرضًا. رفع هامان خنجره وتراجع للخلف، وسجد الحرّاس على الأرض باسطين أيديهم متضرّعين. أما فرعون فتيبّس مكانه من الخوف، يُواجه الثعبان بعينين جاحظتين وفك تدلّى، وارى عُضوه المخضّب بكفّيه حين اقترب الثعبان وانتصب، نافخًا أوداجه حتّى باتت عيناه المشقوقتان في مستوى رأس فرعون، أصدر فحيحًا مُقبضًا بلسان مشقوق لونه كالدم. توقف الزمن لدقيقة قبل أن يشرع فرعون في الرجوع للوراء خطوة فأتى الثّعبان بهزّة للأمام وصاح بفحيح مُفزع قبل أن يزداد اقترابًا وعلوًا. نظر فرعون لموسى دون أن يحرك عينيه عن الثّعبان:

- موسى، التقطه كما ألقيته.

نظر إليه موسى ولم يعقّب فنظر فرعون للملأ من حوله ثم ثنى رُكبتيه فجثا، فما كان من موسى إلا أن انحنى والتقط ذيل الثعبان فتصلّب قبل أن يعود لسيرته الأولى: جذع خشبي عتيق.

قام فرعون والعرق يغرقه، نظر للملأ حوله، لهامان الذي جحظت عيناه في غضب مكبوت، ولقارون الذي سقط أرضًا وتهدّجت أنفاسه، ثم صاح:

- كيف تجرؤ على الإتيان بسحر الجيبتيين إلى قصري؟

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هي ناصعة كأن الشمس فيها:

- إنما الآيات من عند ربّي.

ضرب النّصوع أعين الناظرين فسحرها، لم ينبس أحدهم بكلمة حتّى ضم موسى قبضته وفتحها فرجعت إلى لونها الخمري. قال هامان:

- إنّ هذا لساحرٌ عليم.

التقط فرعون إزارًا فوضعه على خصره ثم التفت إلى الملأ المسحور وأشار لموسى:

- ما لي أراكم لا تنطقون؟ سحرت أفاعيل الجيبتيين أعينكم؟ ربيب القصر، ابن الخرائب، يريد أن يُخرجكم من أرضكم!

قال موسى مقاومًا غضبه:

- أرض الفيروز ليست أرضكم، إنما هي جزء من أرض الجيبتيين التي اجتاحها أجدادكم، وإن كل ما يريد ربي هو أن تتركوا بني إسرائيل ليخرجوا منها.

قال أحد الحاضرين:

- لقد رأيتُ مثل هذا في ساحات الجيبتيين

وعقّب آخر:

- نعم، إنما هي أفاعيل سحرة «واست».

قال فرعون:

- ماذا ترون فيمن يُريد شق أحلافكم وذهاب قوتكم؟

قال قارون وقد نفض ملابسه وإن لم يقترب:

- أجئتنا بسحرك لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا؟

وعقّب هامان:

- تكسر أحلافنا فيكون لكما الملك وكنوز الأرض.

قال موسى:

- ما نبغي إلا خروج بني إسرائيل من أرض مصر.

قال هارون:

- وما جئنا به لا يقدر عليه السّحرة، اسألوهم إن كنتم لا تعلمون.

نظر فرعون للملأ من حوله ثم لهامان الذي أشار له بالاقتراب ثم همس في أذنه:

- أريد أن أقتله، لكن تلك العصا...

قاطعه هامان:

- لا تقتل اللعين فثعبانه سحر أعين أصدقائنا ولا نملك مثل سحر الجيبتيين لنرد كيده. علينا أن نهزمه أولًا ثم نقتله. رأيي أن ترجئ تحدّيه ونرسل إلى مدن الجيبتيين، قرية «أنصنا» تمتلئ بسحرة الثعابين، لنأت بهم فيكيدوه ويهزموه.

نظر فرعون لعصا موسى ثم قال لهامان:

ـ وهل ينصفنا سحرة الجيبتيين؟

ـ سنجزل لهم الهبات ونعدهم الحظوة.

ـ تلك مهمّتك.

قالها ثم التفت لموسى:

ـ سأتركك لتعيش يومًا آخر مع أخيك الهزيل، وسآتيك بسحر مثل سحرك ليظهر للناس كذبك، اجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت.

نظر موسى لهارون ثم أردف:

ـ قبلنا التحدّي، أين؟

ـ مكان وسط بين خرائبكم وقصري.

عقّب هارون:

ـ ليكن اللقاء يوم العيد، فالناس تحشر وقت الضّحى.

ـ اعلما، لقد بدأتما حربًا، عليكما تحمّل عواقبها، ومن ورائكم قبيلتكم، مثلما تحمّل الجيبتيون عواقب جنون ملكهم «كامس».

هز موسى رأسه ثم مضى منسحبًا، هزّ عصاه بالقرب من فرعون الذي رجع خطوتين فكتم الملأ ضحكاتهم وتابعوا موسى وأخاه حتّى اختفيا، فالتفت فرعون وسحب الخنجر من يد هامان فأغمده في صدر حاجب الملك الذي وقف بالقرب، سقط الرجل على ركبتيه شاهقًا فقبض فرعون على رأسه وهمس في أذنه:

ـ لن تحضر يوم العيد، ولن تسعد بعرض السّحرة. لأنك أدخلت هؤلاء الأراذل إلى قصري.

قال الحارس والدماء تفيض من فمه:

ـ لم أكُن... أعرف. أنهما ساحران.

ـ لأنك تنتمي لخرائب إسرائيل.

في طريق الخروج رافق الحرّاس الأخوين. عن بُعد، ينظرون إليهما بهيبة وللعصا برعب. حتى مر موسى بمسكنه الذي تربى فيه فوقف يتأمله. جناحًا مُلحقًا باستراحة الملكة.

ـ موسى!

التفت فرآها. لم تتغير. شعيرات بيضاء تناثرت بحياء، وتجاعيد خفيفة حول الفم والعينين. أمّا البشرة فمالت للذبول وإن لم ترجع إلى المهق. ابتسم موسى فاقترب منها. إلتقط يدها فقبّلها.

ـ حسبتُ أنني لن أراك ثانية حتى هرعت إليّ خادمتي بخبر ظهورك المُفاجئ. أنسيت أختك يا موسى؟

ـ عار عليّ أن أنساك يومًا يا راحيل. أنت كل ما بقي لي في ذلك المكان.

ـ أين كنت؟ وماذا حدث عند البُحيرة؟

نظر موسى للحراس الذين حاصروه ثم التفت لها:

ـ لا أظن أن الحراس سيصبرون على بقائي داخل الأسوار.

هزّت راحيل رأسها متفهّمة:

ـ سنلتقي قريبًا.

في طريق النخيل تلفّت هارون خلفه أكثر من مرّة حتّى قال موسى:

- لن يتبعنا.

- للتو استثرنا جبارًا يقتل بلا رادع. لقد كاد قلبي يقفز من صدري في اللحظة التي خرج فيها من الماء.

- لقد عشت في ذلك القصر سنين ولم أعهده إلا جبانًا خائبًا لا يوتد إلا أعزل أو ضعيفًا.

مشيا للحظات ثم سأله موسى:

- ماذا عن السّحر الذي وعد به؟

- لن يكتفي بصنّاع الحيل الرديئة بسوق هوارة. سيرسل في طلب سحرة الثعابين من الجنوب. إنهم رحال يقيمون على حدود القرى. لا يدخلونها ولا يأكلون في بيوتها. يدهنون وجوههم بالنيلة الزرقاء ويحملون جوالات حمراء تحوي ثعابينهم وأشياء أخرى.

- عليهم أن يواجهوا ثعبان الرّب.

- له الغلبة بإذنه.

- سمعت فرعون وقد قال إن على الجيبتيين تحمّل عواقب جنون ملكهم «كامس». ماذا فعل؟

- في معركة ببلدة «أمبوس» تلاقى جند فرعون بجند «كامس». الفتى كان يرفع شعار أبيه «سقنن راعي» ليستنفر جيشه. حاصر البلدة حتى انتصر على جند فرعون. تمشّى بينهم يتفقد القتلى قبل أن تأتيه الطّعنة من أحد جرحى جند فرعون لتقضي عليه. ملك آخر للجيبتيين يُقتل على يد فرعون.

- ومن يملك «واست» الآن؟

- أخ له يُدعى «أحمس»: اسم يعني بلغتهم «هلال السماء».

☥

☥

☥

في حانة نيلوس.

تعوّدت الأعين تجنب الرّكن الذي يربض فيه، أسد هربت فريسته؛ غزالته. يلهث بلا زئير فوق مائدة شمعتها لا توقد. في يده كأس لا تكاد تفرغ حتّى تمتلئ، يعب منها ولا يسكر. صامت كمعبد. يرمق عازفات الناي بصدر تحرقه لواعج الهوى. ففي اللحظة التي رأى فيها آثار قدميها على رمال الشاطئ بجانب خطوات الكاهن، نسي كلابه حتى هامت وتفرقت في الطرقات بحثًا عمن يطعمها، نسي حبّه الذي تربى فيه، نسي الرقص ونسي الطعام، نسي التنفس.

كان يعلم أن جذورها متشعّبة في صدره، وأن شعرها مجدول في ضلوعه، لكنه لم يدرك مدى غرسها حتى انتزعت قلبه ورحلت. اعتلى من أجلها كل أنثى وقعت عليها عيناه، اعتلى بشبق بقسوة، حتّى لم يبق إلا إناث كلابه.

فالأنثى لا يمسح عرقها سوى أنثى مثلها.

ولكن..

هل هناك عرق كعرق ناديا؟

شفتين كالتّوت، كشفتيها؟

خصر كخصرها؟

غنج كغنجها؟

ساقين كأعمدة المعبد مثل ساقيها؟

في كل مرة، وحين يفرغ ما فيه من حزن وغضب وصريخ ودفقات، يزيح الأنثى ويشرد، ليدرك رويدًا أنه يخدع نفسه.

فما تلبث رائحتها أن تنتشر في صدره، في أنفه.

وما يلبث شعرها المموج أن تخرج خصلاته من فمه، أذنيه، من عينيه.

وما تلبث أناملها الصغيرة ذات العظام اللينة، ما تلبث أن تعتصر قلبه بين ضلوعه حتى تتكسر أظافرها.

لو وطئ نساء الأرض.

لو وطئ البحّارة ذوي اللّحى أو وطئ الغلمان.

لو وطئ حيتان البحر، وقواقع الشطآن.

لن ترحل نادبا من صدره، فهي الهوى الذي يحيا به

ويموت دونه.

أما الحلم الذي يراه نائمًا أو مُستيقظًا ويبتهل للإله أن يحققه، هو أن يلتقط ريحها فيجوب البحار ويتسلق الجبال، مُصطحبًا معه المخلص الأخير، سيربيروس، حتى يجدها. لن يعاتبها أو يلومها، سيقبّل الثغر الذي قتل ويمص أنامل اليد التي طعنت، ثم ينهل روحها، من بين ساقيها، ثم يترك كلبه ليمزقها، ويتأملها، حتّى يأكلها الدود ويصير ذبابا أزرق.

وحتى ذلك الميعاد، على صاحبات العروش، صاحبات الفروج أن يعرفن جيدا...

من هو آرام.

لم يكن يجرؤ على الاقتراب من المائدة سوى الساقي الذي أشفق عليه من الألم، وعلى حانته من الركود، يضع أمامه الكأس تلو الكأس لأيام طالت، حتى جذب الكرسي يومًا وجلس، تأمل آرام لدقائق ثم ربت على كتفه وهمس:

- يتساءل الناس عن فتى الفتيان.

أجاب آرام بعد سنتين:

- قل لهم إن آرام قد مات.

- ومن الماثل أمامي إذن؟

- روح كلب تتلبس جسداً.

- لا يفل النساء إلا النساء، وليس في إليوسيس أكثر منهن، اغترف ما شئت حتى تمتلئ.

- اصمت، يكفي أنك آويت الجيبتي في حانتك.

- لم أكن أعلم أنه ساحر للنساء.

أمسك آرام بتلابيب الساقي وشدد حتى التفت رواد الحانة:

- ناديا ليست نساء، ناديا خُلقت لي.

تركه بعدما هزّ رأسه مؤمّنًا، هندم السّاقي قميصه ثم همس: لديّ شيء قد ينفعك.

نظر إليه آرام في نفاد صبر فأردف:

- شيء يخص الكاهن، تركه سهواً ولم أجد في نفسي ميلًا للتخلص منه.

لمعت عينا آرام وسحبت رئتاه نفسًا عميقًا لم يملئها منذ زمن، ثم قام فاتبع الساقي.

☥

☥

☥

«هناك شاب في الخارج يقول إن لديه معلومات عن الكاهن»

حين مَثَل بين يديه جثا في إجلال ثم وضع البرديات. التقطها مَردخاي بشغف. قلّبها بعينيه فقرأ همسات من ألف وثلاثمائة سنة. همسات التيه. المدونات التي خطّها موسى فترة إقامته بأرض الفيروز. اضطرب قلبه فرحًا وهو يتصفحها قبل أن يلمس نقصها وبتر صفحاتها. التفت لآرام:

- من أنت؟

- آرام بن غازور الإسكافي. السيدة راعوث هي زوج جدّي، وشاءول كان صديقي.

- نعم. شاءول. أنت ابن شانا المخبولة؟

هز آرام رأسه وكزّ على أسنانه:

- نعم يا سيدي.

- امرأة جميلة رغم ما أصابها. أورثتك شعرها وعينيها. ألا زالت على قيد الحياة؟

- نعم يا سيدي.

. أدعو الرب ألا يطول نسلك ما طال عقلها من خبال.

زفر آرام ولم يعقب، استطرد مُردخاي

. أين بقية البرديات؟

. هذا ما تركه الجيبتي في الحانة قبل الهرب.

. تركها؟

. وجدها الساقي مُلقاة في ركن وراء برميل، لم يدركها في الظلام حين فر في عجالة.

. لم تأتني لأنك مهتم لأمر البرديات؟

. الفتاة التي صاحبت الكلب الجيبتي، كانت حبيبتي.

هز مُردخاي رأسه وقام.

. هل تعرف لهما وجهة؟

. أرادها أن تذهب معه إلى الجنوب لتقابل أباها، مُجرم قتل أحد أبناء «دلتا» ثم فرَّ إلى المُستنقعات.

. مم، هل تكلمت مع الجيبتي؟

. عرض عليّ ذهب المعبد نظير خروج باديا معه، وعدني بسرقته إن وافقت.

. ذهبُ معبد سمنود؟ لن يذهب إلى المعبد. ماذا سمعت أيضًا؟

. قال الساقي إن الجيبتي أسر له بأنه يرغب في تلقي العلم في معبد «أون».

لم يعقب مُردخاي، اقترب من آرام حتى رأى انعكاس وجهه في عينيه.

- أكانت الفتاة جيبتية؟

- عازفة ناي من راقودة.

- الفتيات لا ينفخن الناي إلا لمن يتقن الغناء.

احمر وجه آرام غضبًا فابتسم مردخاي.

- مؤلم؟ أتحدّث عن الفقد، لكنّه أمر متوقع، أنت لم تكن لتتزوج منها على أي حال أليس كذلك؟

- لا، أنا أذهب للمعبد في كل سبت.

- وليس بك علّة تحملها على الفرار؟

انتفخ أنفا آرام فأردف مردخاي:

- ماذا تعمل يا آرام؟

- أخوض المصارعات بكلابي المدرّبة.

- كلاب، ممم، لقد جئتني لأنقذك من لهيب الاشتياق، لأتيك بالكلبة التي هربت منك، الكلبة التي أحرقتك، العيب عيبك أن تترك فتيات «دلتا» المكرمات لتطأ كلبة من راقودة، لا بأس، ليكن ذلك دافعًا لك كي تصل إليها، وللكاهن الذي.. أعجبها، أو يكون ما حدث لك عارًا على عار أمك.

لمع الخبال والحنق في عيني آرام:

- سأحرق راقودة إن أمرتني، اسأل عني حي «دلتا» وستعرف من هو آرام.

- وفّر طاقتك وخفّف عن الغضب، الكلاب عالية النباح تموت في الحلبات أولًا. اسمع وأنصت، فاليوم سيكون أول أيام عمرك، وما سأقوله قد يطفئ نارًا لا يطفئها بحر.

سكتت أطراف آرام واحنى رأسه احتراماً

☥

☥

☥

«بنداء كنداء حوريات البحر لم تكف ناديا يومًا عن مناداتي، رائحتها تراود صدري منذ رحلتَ مغاضبة، صوتها المبحوح خلفه يهمس في أذني، يمزقها، حتى كدت أكتب اسمها بين حروف قصة نبي الرعاة. فهي الشجرة، وهي نار الجبل، وهي الثعبان الحامي. يا ناديا، يا رسولة الغزلان، لتكفّي عن إرسال موجات الزبد الخمري، لتكفّي عن إرسال رحيقك الذي أسكر تماسيح النهر، لتكفّي عن غنجك الذي أخرج جذور الأشجار من الأرض وأنضج الثمار حتى سقطت. فالترجمة التي بين يديّ وصية كاهن، لن تتحمل أوراقها المهترئة نارك، أو ماءك، ستذوب على شفتيك أحبارها وستحترق البرديات وصاحب البرديات، فالنبض لا يكف عن ترديد اسمك، والدم الذي يدور في العروق يكاد من فرط سخونته أن يحرق جلدي، جلدي الذي باركته مسحًا وتقبيلًا، حتى امتلأت المسامُّ منك وفاضت»

أغمض الأجفان فاحترقت عيناه، ثم فتحهما فوجدها، تستند بكتفها على الباب. ذهل فقام:

- ناديا! كيف دخلت إلى المعبد؟

أجابت بهدوء:

- تسلّقتُ الأسوار.

جذبها كاي وأغلق باب الخص:

ـ إن راك الكهنة فسيقولون...

قاطعته:

ـ سيقولون زوجة زارت زوجها الذي تركها حزينة بعد أول لقاء.

ـ لم أقصد أن...

أغلقت فمه بقبلة مصّت فيها شفته السفلى ثم أردفت:

ـ لم آت هنا لاجترار الأحاديث. لقد جئت لأقول لك.. إني مُخطئة. ليس عليك تحمّل عاري، ورغبتي الحميمة في الخروج بروحي من ذلك الجسد المدنّس. لقد فكّرت فيما حدث بيننا. ولا أجد تبريرًا لما فعلت إلا غضبًا لا يجب أن ينصبَّ عليك، ففي النهاية أنت لم تعدني بشيء.

ألجمته الكلمات. كأن واحدة أخرى تتكلم. نظرت في عينيه فقرأت ما يدور بخلده فابتسمت:

ـ كأن واحدة أخرى تتكلم هه؟

ابتسمت ملء فمها الواسع وأحاطت بذراعيها رقبته وتنفست فيه:

ـ ألا تعرف أن في جسدي تعيش امرأتان؟

ـ مع من قضيتَ ليلة أمس؟

ـ سأحلق شعري وأجدع أنفي إن مسّتك العاهرة يومًا.

ـ وأين هي الآن؟

أشارت نادبا إلى حيث ترقد العاهرة في ركن الغرفة. تسيل من أنفها الدماء:

ـ ها هي. صفعتها من أجلك.

نظر كاي للركن الفارغ ثم التفت لناديا مبتسماً:

. كفاك لهواً.

. لتنس أمر الزواج، ولنستمتع باللحظة التي نحياها كأنها آخر لحظاتنا.

. نتربى في المعابد على صدق الوعود. ما كنت لأخذلك أو أخذل وعداً قطعته في المستنقع مع أبيك.

. وماذا عني؟

. أنت سكنت السمع والبصر والفؤاد. ولم أكن لأتخذك عشيقة دون أن تنالي بيتاً يليق بك ولقباً. لكني..

. البرديات. زوجتك التي تخلص لها أكثر من أي شيء في هذه الأرض. ششششش. اصمت يا قمي. لم أتسلق الأسوار حتى أتكلم عنها. لم يعد يعنيني إلا أن نبقى معاً.

قالتها ودفعته فوق الحصير ثم جلست فوقه فأردف كاي:

. الحب محرّم في المعابد.

. لسنا في المعبد. نحن أمام البحيرة. قدس الأقداس وراءك. والجنة أمامك.

خلعت ثوبها وألقته فوق وجه العاهرة النازقة هامسة بحدة:

. لا أريد أن أسمع لك صوتاً.

التفت كاي إلى حيث تنظر:

. ماذا قلت؟

. لا تعبأ. إنها تلك اللعينة التي تجلس في الركن.

ابتسم كاي

. أنت مجنونة بحق!

تهدجت أنفاسها:

. جُننت بعشقك أيها الكاهن.

قالتها ثم سجدت بشفتيها على شفتيه، أحاطتهما، ابتلعتهما، ثم أفرغت عسل نحل الأرض في جوفه.

قبل همسات الفجر فتح كاي عينيه، التمسها بجانبه فلم يجدها، جلس فحكَّ عينيه قبل أن يراها، تجلس عارية فوق المصطبة، فوق البرديات! في يمينها بردية وفي يسارها البوصة.

. ماذا تفعلين؟

بعينين لا ترمشان رمقته للحظات ثم ابتسمت:

. ألن تعلمني القراءة؟

نظرتها بعثت التوتر في صدره، قام بهدوء فاقترب منها:

. بلى، ستتعلمين.

. خطّك يشبهك، نحيف.

التقط كاي منها البردية فأردفت:

. سيقول الناس عن ناديا إنها تركت زينة اليهود لتحب كاهنًا.

رمقها كاي قبل أن تستدرك:

. بل تركت زينة اليهود لتحب رجلًا حقيقيًا. لتكتب ما شئت أيها الكاهن، ولتبق بقربي، فلم أخلق إلا لك.

شعرها.

قاوم كاي عبقها، طعم شفتيها، وسياط شعرها التي ألهبت صدره، ثم نزل مياه البحيرة، جلس فيها بشرود حتى صفعت الشمس وجهه، فتح عينيه فرأى أمّه ماثلة أمامه، تجمدت أطرافه، تأمل ابتسامتها البيضاء، عينيها الحنون، ضوء الشمس على شعرها الأسود الحالك. اقتربت، تدفع الموجات الرقيقة نحوه. تخرج يدها من المياه مقلدة ثعبانًا كبيرًا يتلوّى. الثعبان الذي هاجم سفينة البحّار التائه. دارت من حوله هامسة بالقصة التي طالما روتها بشغف:

- حين هبّت العاصفة غرقت سفينة الكاهن الطيب ولم ينجُ سواه، تشبث برمث خشبي فألقته الأمواج في بحيرة غريبة، وجد فيها المأوى والطعام، وأنثى، خيّل إليه أن فيها كل ما يتمناه، وبينما كان يصلي للراعي شكرًا ويقرأ البرديات، اهتزت الأرض، وفجأة، برز من المياه ثعبان عملاق، تقدم نحوه فسأله: ما الذي جاء بك إلى الجزيرة أيها الكاهن؟ ارتعد كاي، ثم تشجّع ورفع صوته: أحمل وصية للكاهن الأعظم، ولا شيء سوف يمنعني من تنفيذها. ضحك الثعبان: أيها الكاهن، أنت شجاع، لكنك لست في مأمن، لست في مأمن.

سكتت فالتفت حوله يبحث عنها فلم يجدها، اختفت كأن التمساح ابتلعها، غاص في هلع يبحث عنها قبل أن ينتشله صوت:

- كاي، ماذا تفعل؟

أفاق كاي من شروده فوجد كاهن المعبد يقف على ضفاف البحيرة، خرج إليه فحثا:

- لم تحضر صلاة الشروق؟

- سهرت على البرديات فغلبني النعاس.

- ألم تذهب إلى زوجك؟

- سأطمئن عليها بعد الغروب.

- نعم، لكن... أخشى انتهاكًا مثل انتهاك معبد الأسوار السبعة.

- كلماتك تحمل رائحة غير محببة، هل حام الشك حول أحد كهنة معبد سمنود؟

انقبضت رئتا كاي واندفع الدم إلى جبهته:

- لا يا سيدي، لكن مقتل الكاهن الأعظم يوجب الحذر، لم تعد لي ثقة حتى في نفسي.

- الكاهن الأعظم لم تكن لتخفى عليه هيئة النجوم.

- تعني أنه أدرك مقتله؟

- وإلا ما أخفى البرديات؟

شرد كاي فاسترجعت عيناه جسد الكاهن وعنقه المفتوح بين يديه فانتابته رعشة.

- لم الموت يا سيدي؟ لم اختار الرب تلك الوسيلة لينهي وجودنا في الحياة؟

نظر الكاهن للسماء ثم ابتسم:

- لم خلقنا من الأساس؟ ذلك هو السؤال الأصعب.

- ألم نبن تلك المعابد لنجد الإجابات؟

- لقد بُنيت المعابد لأن فقراء العقول لا يقتنعون بأن الراعي لا يحدّه مكان، بل ولا يحد حياته موت، لذا كان على القدماء أن يبنوا له بيتًا وينحتوا لملائكته المقرّبين تماثيل ليعرف الناس هيئتهم فتؤمن الأعين فالقلوب.

- وكيف نعبُده بلا معابد؟

- أهو في حاجة لعبادتنا؟

- لقد خلقنا لنعبده

ـ أيفتقر إلى عباد يُجلونه ويوقرونه؟ أهو في حاجة لنا وهو الكمال في ذاته؟

ـ إذن لقد خَلقنا فقط، لأنه يُحبُّنا.

ابتسم كاهن «أون»:

ـ نعم، إنه الحب فقط ما يجعل أفعاله غير المعقولة، مبررة ومنطقية. هذا إن استطعت أن تبرهن أنه هو من خلقنا.

أجاب كاي بعد صمت:

ـ ربما لا أستطيع.

ـ لكنك تستطيع أن تبرهن أننا نحن البشر قد خلقناه، بالحب أيضا.

ـ نحن؟ خلقنا الإله؟ كيف؟

ـ اليهود خلقوه غضوبا خطاءً، ملائما لطبيعتهم، وأسموه «يهوه». واليونانيون خلقوه عاشقا يهوى النساء، منافسا لشهواتهم، وأسموه «زيوس». ونحن، خلقناه في الماء وجعلنا له عرشا يحمله ثمانية من الملائكة المقرّبين، وأسميناه الراعي.

ـ من فيهم هو الراعي الحقيقي؟

ـ أتعرف قصّة الأسود الثلاثة؟

ـ لا.

ـ حبس الحّراس ثلاثة أسود في غرفة مُغلقة يتوسّطها غزال مذبوح. اقترب أول الأسود وأكبرها من الغزال لينهشها، فصبّ الحّراس ماء ساخنا فوق الأسود كلها. احترقت فروتهم فتفرقوا. ثم اقترب الأسد الثاني من الغزال فتلقوا جميعًا دفقة الماء الساخن نفسها. ثم اقترب الثالث فزأر الأسدان الآخران تهديداً، تردد وابتعد. لقد فهمت الأسود أن الاقتراب من تلك الغزال يعني الحرق بالمياه. ومر يومان والأسود تتضور جوعًا، حتّى انفتح الباب وسحب الحراس أسدا من الأسود

قبل الدفع بأسد جديد إلى الغرفة، وإذا به بتلقائية يقترب من الغزالة لينهشها، فما كان من الأسدين إلا أن ضرباه وهدّداه بالزئير، فهما يعلمان أمر الماء الساخن الذي سيضربهم جميعًا ولا يعلمه الوارد الجديد الذي اتخذ ركنًا لا يعلم ما جريمته. بعدها بيوم، سحب الحراس أسدًا قديمًا ودفعوا بأسد جديد، ففعل نفس الشيء، اتجه للغزالة فهدده أسد قديم وأسد جديد، ثم تم سحب الأسد الوحيد الباقي من الأسود التي ذاقت المياه الساخنة ودفع بأسد جديد، هكذا أصبح في الغرفة ثلاثة أسود لم تحرقها المياه الساخنة، فما كان من الأسدين إلا أن ضربا الأسد المستجد وهدداه مغبة الاقتراب من الغزالة، دون أن يسأل أحدها، لماذا نخاف تلك الغزالة؟ وماذا سيحدث إن أكلناها؟

.إذن... لا أحد يعرف الراعي حقيقة

.سيظل اسمه الـ [هُ] لكل نفس لم تتخذ طريق البحث عنه، لكن إن ملأك اليقين بأنك ستصل، فستصل، فالمعلم لا يظهر إلا إذا تجهز الطالب للعلم واشتاق إليه. هكذا قال إدريس المعظم. الإجابة هي «الاشتياق» لمعرفته، تلك السخونة التي تعتري أسفل رئتيك وتبث في العروق هاجسًا واحدًا لا يتبدل أو يخفت، أن تدركه، وتتبع خطواته، حتى وإن تحطمت أعمدة معبدك، حتى وإن أغرق النهر إيمانك القديم، إيمانك المريح.

قالها ثم وضع يده على كتف كاي.

.لا تدع أفكاري العجيبة تزيد تخبطك، فأمامك خمل تخطى السبعين، البرديات الآن في عهدة معبد «أون»، المعبد الذي يحج إليه حكماء الأرض منذ عهد المعظم ثلاثًا إدريس، لا تخش عليها شيئًا، أسرع في ترجمتها واقرأها على أذني، فالبصر يكف والعمر يطوى طي البرديات، وكم أشتاق إلى سماع كلمات مانيتون.

هز كاي رأسه وانحنى في تبجيل، قبل أن يعود إلى غرفته.

☥

☥

☥

يوم العيد كان حدثًا سنويًا، تحتفل القبائل فيه بيوم الانتصار على الچيبتيين وقتل ملكهم «سقنن راعي». تملأ القبائل ساحات هوّارة والأسواق منذ الشروق، يعلّقون الزينات ويرفعون الأعلام، وينصبون التمثال الخشبيّ الذي يُجسّد ملك الچيبتيين فوق ظهور الحمير. يضعون على رأسه تاجًا من الفخار، في العينين بيضتي نعام، وحول الصّدر قطعة من لحم عجل مكسوة بثوب ذهبي. يزفونه بالدفوف والنايات ويمرون في الحارات لترش عليه النساء زخّات الغيظ والحقد، ثم يتّجهون بالتمثال إلى شاطئ البحر المزدحم حيث يلهو الأطفال ويتزاحم الباعة والعائلات في انتظار نفخة البوق، بعدها تنهال الجموع على التمثال فيُسقطونه ويركلونه ويكسرون تاجه، ثم يطعنون لحم العجل على صدره بالسيوف والسكاكين، ويفوز من يكسر بيضتي النعام في محجري العينين تمثيلًا لما حدث يوم المعركة، قبل أن يحرقوا الرّفات ويلقوه إلى البحر.

حين أضحى النهار نُفخ في البوق ثانية، نفخة طويلة مميّزة تعني أن ما سيُعلن أمر ملكي. انتظر الناس حتى لاح الموكب عن بعد، يسبقه حراس يفرقون الناس إلى أطراف ساحة السوق الكبيرة ويأمرونهم بالسجود. توقّفت عربة هامان فنزل منها ثم عربة قارون يجرّها ثمانية عبيد أشداء، ثم اقتربت العربة الملكية. نزل فرعون بزيّ مزركش مرصّع بالفيروز والعقيق، فوق رأسه تاج العجل وأمام أنفه وفمه فك أسد مشدود برباط خلف صدغه. نظر للرءوس الساجدة قبل أن يتّجه إلى منصّة خشبية فرشت بالسّجاد، جلس على عرشه المذهب ومن ورائه على منصة أصغر جلست راحيل وراء حجابها، أشار فرعون لحامل البوق فنفخ نفخة رفع الناس بعدها رءوسهم

دون أن ينظروا إلى وجه ملكهم الذي اقترب منه هامان وهمس:

. السّحرة الچيبتيون ينتظرون إشارة.

. ائتني بهم.

أشار هامان للسّحرة السبعة فاقتربوا خاشعين. نظر فرعون في وجوههم:

. هل تعرفون ما سيحل بكم إن خذلتمونا.

قال كبيرهم:

. يا أيها الملك...

نغزه زميله فاستدرك:

. يا رب القمر والصّحراء. نحن خيرة سحرة الثّعابين في إيجيبت، جُحورها منازلنا وجلودها ملابسنا. هزمنا سحرة الكُوشيين، وطمسنا ألاعيب اللّيبيين، لنا الغلبة أينما حللنا. لكنا قوم طالنا الفقر وضيق الحال. هل لنا أجر إن كنّا نحن الغالبين؟

. نعم، ستتركون أرض إيجيبت وتعيشون في مصري، بجانب القصر. وسيجزيكم قارون الجواهر والأحجار

وأشار لقارون الذي جلس فوق كرسي مُنخفض محشو بالريش فهزّ رأسه مؤمِّنًا

أجاب كبير السحرة:

. سنُدخل السرور إلى الأعين والقلوب.

قالها ثم انحنى وابتعد. توسط هامان الساحة ثم أشار للحارس فسمحوا لموسى أن يدخل الساحة ومن ورائه هارون. أمّا مريم فراقبت ما يحدث من بين الرءوس المتزاحمة. رفع هامان صوته:

ـ أيها الناس، هل تتذكّرون ذلك الفتى المدلّل؟ ربيب القصر الّذي فرّ من هوّارة يومًا، فر بعدما قتل رجلا من يهودا؛ قبيلتي، ها هو الآن يأتي على قدميه، بعدما عاش بين قبائل الحاقدين في الشرق عشر سنوات، أتعرفون ما الذي أتى به اليوم؟ أتى وأخوه الهزيل الواقف خلفه ليُخرجكم من أرضكم.

سرت الهمهمات وتنافست الرءوس ارتفاعًا فأردف:

ـ نعم، ابنا بيت عمران، ابنا خرائب المنبوذين، تعلّما السّحر الجبيتي وطلبا خروج قبيلتهما من بينكم، لتنفكّ عروتكم وتذهب قوتكم، لينضمّوا بعد ذلك إلى أعدائكم في حربهم.

صاح موسى:

ـ ويلك! أتفترى على راعي السماوات والأرض كذبًا؟ سيهلكك العذاب.

قال هامان:

ـ ها هو ابن الخونة ينضح بما فيه، يدعو إله الجبيتيين ويعدكم العذاب.

قال هارون:

ـ إنما الراعي هو رب السماوات والأرض، إله الرّعاة والجبيتيين، وإله الأرض.

رفع هامان عصاته الذهبية:

ـ ها هو يبتغي لكم إلهًا غير إلهكم، رب الصحراء الذي تجسّد في جسد ملككم، فرعون.

علت أصوات العامّة:

ـ المجد لفرعون، رب الرّعاة والصحراء ورب القمر.

هدأت الهتافات فرفع هامان صوته:

- اليوم نزل الرب من قصره ليشارككم يوم عيدكم، يوم مقتل ابن آوى الچيبتي، وليستعيد معكم انتصاره الأخير على ابنه «كامس» بطعنة من أضعف جندنا، وليُريكم في ذلك الفتى عبرة، لتُدركوا أن عين الإله لا تنام، تراكم في منامكم وفي يقظتكم، وحين تصطادون السمك في النهر أو البحر، وحين تزرعون التمر والكروم، تحرسكم، وتحافظ على رابطة الأحلاف، رابطة الدم التي عقدها «ساليتيس» يوم أورثنا رب الصحراء والقمر تلك الأرض.

قالها ثم نظر للملك:

- ليأذن لنا الرب في بدء التحدّي..

قاطعه موسى رافعًا صوته:

- وماذا إن كنّا الغالبين؟

ساد الصمت، اتّجهت الأعين لفرعون على عرشه ولهامان الذي بُهت. لم يكن لهزيمة موسى وأخيه بديلًا. قام فرعون من فوق عرشه ونظر للناس ثم قال:

- على الناس أن تستمتع بالسِّحر، وعلى الرب أن يُقرِّر أمركما.

ثم أشار فرعون للسحرة فالتفوا حول موسى في نصف دائرة، واضعين أجولتهم الحمراء بين أرجلهم. ساد الصمت والترقّب حتّى صفّق كبيرهم فضربت الدفوف والنايات في نغمة چيبتية غريبة على الآذان، ثم خرجت من بين الأكتاف ثلاث فتيات لم تُخفِ جُلودُ الثّعابين أثداءهن، تمايلت خصورهن والأطراف ثم رقصن بحركات الثعابين، قبل أن تُلقي إحداهن بقنينة فخارية بين مُوسى والسَّحرة، انكسرت فأصدرت دُخانًا أبيض له رائحة طيبة عطّرت الأنوف وأغشت الأعين، حينئذ فكّ السَّحرة أجولتهم، وضعوا أقنعة جلود الثعابين على وجوههم اتقاءً لتأثير الدخان والتقطوا عِصيهم والحبال. تقدّم كبيرهم من موسى الذي اضطرب صدره من تلك النغمات الغريبة ورقص الفتيات حوله:

. أتلقي أم نلقي؟

نظر موسى إلى قناع الثعبان فوق وجه الرجل ثم التفت لهارون الذي هز رأسه تجاه الساحر فابتلع موسى ريقه وقال:

. بل ألقوا.

همس الساحر:

. إنكما ميتان.

ثم رجع للوراء خطوات ونادى بأعلى صوته:

. بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون.

ضربت الطبول بهدير هز الصدور ونفخت النايات قبل أن يلقي السحرة بالعصي المربوطة بالحبال. سكنت على الأرض فرفعوا أيديهم للسماء بقبضات مغلقة. رددوا حروفا مبهمة بلهجة جيبتية ثم فتحوا كفوفهم فنثرت الأصابع ألوانا شتى. وإذا بالحركة تدب في العصي والحبال. اهتزت ثم تموجت فتلوت. ببطء كأنها حية تتنفس. ضربت الدهشة الرءوس وعقل موسى. عيناه لا تكذبان. العصي تستحيل ثعابين لامعة. تتحرك. يرفع أصحابها أياديهم لليمين وللشمال فتتبع أوامرهم. ثم ينزلونها فتسكن. قبل أن يوجهوها إلى الأمام. إلى موسى وهارون. زحفت الثعابين مقتربة. حاصرتهما. أما الفتيات فاقتربن وفتحن أفواههن بألسنة مشقوقة الأطراف مصبوغة. يصرخن بصوت صم الآذان. انحبست الهمهمات. ووقف فرعون واضعا يديه في خصره فخرا. ونثر قارون العملات تحت أرجل السحرة وهمس هامان في أذن أحدهم بأن الرب قد ابتسم من أجلكم. وسقط قلب موسى تحت وطأة الشك. ماذا لو كان هؤلاء السحرة قد سمعوا نفس الصوت؟ أو رأوا نفس الشجرة المضيئة؟ كان ذلك حين رن الصوت في عقله. الصوت الذي سمعه عند الشجرة: «لا تخف».

تلفت حوله بغتة فلم ير في الدخان أحدا: «إنك أنت الأعلى».

سمعها فأغمض عينيه وسحب نفسًا لصدره قبل أن يرفع عصاه إلى أعلى ثم يلقيها، بين الثعابين. نظر السَّحرة إليها وترقّبت أعين الناس، ومدّ فرعون بصره من تحت التاج، لحظات من السُّكون أيقظت الهمهمات بين الناس ورسمت البسمة على شفتي فرعون قبل أن تضطرب العصا بحركة خفيفة أخذت تتزايد قبل أن تلين وتنتفخ فتتحوّل لثعبان أسود لامع يبث الفحيح بلسان مشقوق. اضطرب قلب فرعون وتيبس السَّحرة، نظروا لبعضهم غير مصدّقين، تحفّزوا، ثم ركضت فتيات الرقص وعلت الهمهمات حين انقض ثعبان موسى على أحدها فابتلعه، ازداد هياج السَّحرة فتخبّطت أيديهم والأكتاف، واشتبكت خيوطهم الشفافة، ثم التقم ثعبان موسى واحداً آخر فصرخ الناس تشجيعًا، ثم الثالث فالرابع فاهتز فرعون على عرشه وصرخ في هامان الذي ضرب ظهر أحد السَّحرة وتوعّد زملاءه، ثم التقم ثعبان موسى الخامس والسادس قبل أن يُحاصر السابع، نظر السَّحرة لموسى الذي لم يحرّك ساكنًا، ولفرعون الذي اشتعل غضبه فخلع فك الأسد، ثم لثعبانهم الأخير الذي أكله ثعبان موسى قبل أن يزحف راجعًا لصاحبه الذي انحنى فالتقطه، تيبس وتصلّب قبل أن يستحيل عصا خشبية كانت يومًا جذعًا في شجرة.

خرّ السَّحرة ساجدين والناس من حولهم، سحب فرعون خنجره وتحفّز الحراس وإن لم يجرءوا على الاقتراب، صرخ فيهم أن اقتلوهم، فنظر إليه الحراس ولم يتحركوا من الروع، ركلهم هامان ففرّ اليائسون منهم وحاصر من بقي السحرة الذين قام كبيرهم واتجه لموسى، رفع قناعه الجلدي وقال:

. ما جئت به ليس سحرًا نعرفه أو ألاعيب بصر، ما جئت به لم يأت بمثله إلا إدريس العظيم.

. ذلك فعل خالق إدريس.

انحنى الساحر:

. الجلال له ولرسله وللجذع الذي بُورك.

لم يُمهله حرّاس الملك، سحبوه فكوموه فوق زملائه أمام قدمي فرعون وحاصروا موسى وهارون عن بُعد قبل أن يشتّتوا دائرة الناس ضربًا بالعصي.

ـ يهزمكم فتسجدون! دون أن آمركم بالإذعان! إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر.

قال كبير السحرة:

ـ لم نقابل رسول الرّاعي من قبل.

ـ رسول! صدّقتم مزاعمه؟ سحركم يا خبراء السحر؟

ـ ما أتاه ليس بسحر، وأنت لست بإله؟

ـ كيف تجرؤ؟

صرخ فرعون حتّى طار لعابه:

ـ إنها لمؤامرة ومكر ضمراه في مدينتهما.

عقّب هامان:

ـ بل سحرهم موسى وأخوه لمّا دخلوا مصر.

قال كبير السّحرة:

ـ لن نميل إليكم بعدما رأينا علامة الراعي.

نزل فرعون عن عرشه وأمسك بتلابيب كبير السّحرة:

ـ تلك الأرض التي تقف عليها لا يظلّها إلا ظلّي. سأقطّع أيديكم وأرجلكم من خلاف وسأصلبكم في جذوع النّخل لتعلمنّ أينا أشد عذابًا وأبقى. ولتدعوا راعيكم أن يأتي فينقذكم.

ـ اقضِ ما أنت قاض. لن تكره سحرة إيجيبت على عبادتك. فالعمر مضى. رأينا فيه ما رأينا. وحقيق علينا أن ننهيه بشرف.

التفت فرعون لحرّاسه:

- عند الغروب سامر بطريق النخيل، أريد أن أطّلع إليهم مصلوبين، وسأشرف بنفسي على تقطيع أمعائهم وإطعامها للكلاب.

سحبهم الحراس والوجل يملؤهم، نظروا لموسى وهزّوا رءوسهم، فنظر فرعون لموسى والغل يفيض تحت قدميه. أشار لهامان وقارون، ابتعد بهما عن الحراس ثم التفت:

- قلتما إن هؤلاء هم خيرة سحرة إيجيبت!

- للوغد علم لم يبلغوه.

- لنسجنه أو ننفيه بعدما نسلبه عصاه.

- كيف وما إن تغادر العصا يده حتى تستحيل ثعبانًا يصرع ثعابين السحرة؟

- لقد فرّ الدم من رأسي حين نظر ناحيتي.

- لنقتله ونصلبه في بوابة الخرائب.

- بل نغرقه في اليم بعصاه بعدما نربطها في يده بحبل غليظ.

- إن أمرت بقتله لا أضمن أن يهرب ثعبانه فيتسلل لفرشنا، ولن يستطيع ذلك الشاحم منه هربا.

- لنحرق العصا ونحرقه.

- ونقتل أهل بيته حتى يكون عبرة.

- ماذا لو كان الصوت الذي سمعه حقيقة؟

التفتا إليه:

. ماذا تقول يا سمين الكرش والعقل؟

. أقول إن ربّما، أن، إله الجيبتيين قد...

. قد يطوّك خير من فتاك المُدلل.

. لم لا تُغريه بالجواهر؟

. سأضع تلك الجواهر في مؤخرتك. أيبدو لك الفتى ممن تلهي أعينهم الجواهر؟

. إنها لعنة قبيلتك التي لا تزول.

. تربّى ذلك الفتى في قصري، لم أعرف عنه سوى العناد والجنون، كان يختلي بنفسه فوق الجبال ويكلّم الخيل ويعطف على أراذل العبيد، وحين أعنّفه يضيق صدره فيحتبس صوته.

. تلك علامات الجنون.

. ماذا سنفعل في العصا؟

. ويده الناصعة المُضيئة؟

. لنبترها.

. لم لا تقول شيئًا مفيداً؟ نحن لا نعرف ما يُخفيه في أكمامه من سحر.

. وقد فضّل السّحرة الموت على أن يطيعوني!

. سحرهُم.

. نعم، وسيبقى السّحر حتّى تصلب أطرافهم.

- بعدما أفقدنا هيبتنا؟

- إن الحراس يخافونه، إن عصوا الأوامر فسيستفحل الأمر ويتفاقم

نظر إلى موسى فلمح في عينيه تحديًا، وفي الناس ترقبًا، وفي الحراس رعشة، ثم التفت فإذا براحيل تنظر إليه من وراء حجابها. قال هامان:

- إن الشعب لا يُصدّق، وإذا صدّق فإنه ينسى، مثل طفل يبكي بحرقة ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، كأن شيئًا لم يكن.

- راحيل تحبّ الوغد.

- وستنساه كما تنسى خيولها التي نفقت.

ساد الصمت لحظات حتى قطعه فرعون:

- اتركوه.

ثم همس في أذن هامان:

- لا يمسه أحد بسوء حتى لا يلقي عصاه.

☥

☥

☥

في جَنح الليل تسللت راحيل إلى الخلاء مُلثمة، سارت بحمارها حتّى اقتربت من اليمامة؛ صخرة أطلق عليها ذلك الاسم لأنها على هيئة طائر راقد، انتظرت تحت نور القمر للحظات قبل أن ترفع صوتها:

- أعرف أنّك هنا.

خرج موسى من خلف الصخرة فابتسمت.

- أتيت بعصا السحر؟

- قبل أن تصير ما صارت كانت عصا لغنمي.

- تزوّجت؟

- ولي ولدان وبنت.

ابتسمت راحيل:

- لا أنسى يوم التقطناك من الماء، الآن يا صغيري لك أولادٌ هم لي كالأحفاد.

- لم تتزوّجي؟

- ومن يجرؤ؟

حك جبهته في حرج فأردفت:

- لن أسألك عمّا حدث أمس، لكني أسألك عمّا أتيت من أجله. ولا تقول لي إنك أتيت لإخراج بني إسرائيل من الأحلاف.

- هذا ما أرسلت من أجله.

- وما شأن إلهك بالمنبوذين؟ قد كانوا يومًا ذوي شأن حتى فسقوا.

- إلهي يتوب على ظالمي أنفسهم كي لا يظلموا غيرهم.

- ونحن، آل فرعون؟

- كل من آمن له الحرية في الخروج معنا.

- أنت تعرف أبي، وتعرف أنه لا يذعن.

- أعرفه كما تعرفين أنت أنه ليس إلهًا.

لمعت عيناها في نور القمر:

- وإن لم يوافق يا صغيري؟

سكت موسى ولم يُعقّب. أردفت راحيل:

- سيلدغه ثُعبانك؟

- ثعباني آية له كي يصدّق.

. هو من فرّق بين القبائل، تحالف مع يهودا لكثرة جندها، ومع قارون ليقهر بني إسرائيل ولسيطرته على مناجم الأحجار، أما بقية القبائل فيُوقع بينهم ويبث الفرقة ليضعف شأنهم ويثبت عرشه.

. دعه يتحمّل تبعات ما فعل، ومن رضي الذلّ فليتمرّغ في الطين راضيًا.

. إنها رسالة ربي لا مفر من تبليغها.

. وهل وافقك كُبراء بني إسرائيل؟

. الذلّ تمكن منهم وغلّف القلوب، ما إن يخرجوا من تحت نير أبيك ويتبعوني حتّى يدخل الإيمان قلوبهم.

. إن لم يقتلك أبي فسيكونون هُم قاتليك.

. سأبلغ رسالتي ولو لم يتبعني أحد.

. بنو إسرائيل لا يعبدون إلا الذهب.

. أنا منهم.

. إنهم يدّعون قرابة جدك يعقوب.

. صار بيننا مُصاهرة وقرابة.

. أنا من ربّيتك.

. لم أنس يومًا ما فعلته من أجلي أنت وأمك.

. ستحرق نارك ستائر غرفتي.

. اتركي القصر واتبعيني.

ـ لن يمسوك بسوء ما دمت حيًا أتنفّس.

ـ أنت حالم يا صغيري، سيُوتد أطرافك في نخلة أمام بابي كي يشمت بي.

ـ إن معي راعي السّماء والأرض.

زمّت شفتيها في ابتسامة مبتورة ثم نظرت لصخرة اليمامة خلفهما:

ـ أتذكر تلك الصخرة؟ كنت ألاعبك عندها كل يوم لعبتك المفضّلة، لعبة الاختباء، كنت تستتر خلفها، وكنت أدّعي جهلي بمكانك حتى تسعد، كل يوم، حتى جاء صباح، ذهبت فيه لأبحث عنك خلفها فلم أجدك، جلست أنتظرك، حتّى برزت من خلف تلك الشّجرة الكبيرة وأخرجت لسانك.

ابتسم موسى فأردفت:

ـ كنت تظنّ خداعي وقد ادّعيت الدهشة، لكن عقلك لم يفطن وقتها أنّ في ذلك الوادي لم يكن هناك إلا تلك الشجرة.

قالتها ثم أسدلت قلنسوتها وركبت حمارها فرحلت، نظر موسى للصّخرة ثم لنجوم السماء قبل أن يتّخذ طريقه إلى خرائب المنبوذين.

☥

☥

☥

في اليوم التالي وقف موسى وهارون أمام القصر الذي أغلقت أبوابه فزعًا. نادى في الحراس بأنّه يريد مقابلة الملك. لم يجرؤ أحد على إجابته فضرب الباب بعصاه مرات ومرات:

. إن لم يقابلني فسأترك العصا عند الباب.

بعد دقائق فتح أحد الحرّاس كوّة بالباب فاقترب موسى. تلجلج الرجل ثم قال:

. سيكلّمك الملك من الشرفة الغربية المطلة على النهر.

هزّ موسى رأسه ثم سار بأخيه غربًا حذاء سور القصر.

الشرفة الغربية كانت تطل على فرع النهر. مساحة واسعة تقع فوق السور على ارتفاع عشرين ذراعًا. تظلّلها شمسيّة كبيرة وعريشة عنب متدلية الأغصان. وتمثالان كبيران للإله «ست» على الجانبين. هامان وقارون وشيوخ العشائر كانوا مجتمعين. استدعاهم فرعون منذ خرج موسى من خرائب الإسرائيليين. خرج عليهم ولم يكن النوم قد زاره في الليلة السابقة. محتقن العينين ثائر النفس يحتسي مزيج اللوتس لتهدأ نفسه وتسبح في الأحلام. قاموا تبجيلًا وانحنوا حين حضر فلم يلق سلامًا. جلس ثم أشار لهم فجلسوا. عدا كبير قبيلة بني عبيل. قال:

ـ لقد جاءت رسلي بالأخبار من عند صاحب الثعبان، عرضوا عليه الذهب والفضة نظير رحيله أو تسليم العصا فوجدوه راسخ العزم عصبي المزاج لا تثنيه الكلمات. أغلق الباب في وجوههم فاختلوا بهارون أخيه الذي قال إن رحيل بني إسرائيل أمر لا يقبل المجادلة.

أردف كبير قبيلة بني عفار:

ـ لم لا نتركهم فيخرجون من بيننا وراء ذلك الفتى؟

وعقب كبير قبيلة بني نظرون:

ـ ما هم إلا وباء. ستأكلهم شمس الصحراء أو تقضي عليهم قبائل الشرق.

صاح فرعون:

ـ أنتما قبيلتان من الخصيان. تريدونني أن أترك الفتى وقومه الأراذل ليفسدوا أرضي ويفكوا تحالفنا؟

ثم قام فرفس إناءً فخاريًا كبيرًا فكسره:

ـ أفيقوا.

قال هامان:

ـ نذبح الأعناق حتى نستأصلهم

وعقب كبير قبيلة بني خيبر:

ـ ما رأي كبيرهم؟

قال قارون دون أن يقف:

ـ ليس لي فيهم إلا عمال مناجم الفيروز. أما الباقون فلا دية لهم. ولكن ماذا عن الثعبان؟ وذلك النور الذي

يضيء يده؟ أخاف أن يصيبنا الموت أو تطاردنا لعنة.

كان ذلك حين دخل الحاجب وأسرّ في أذن الملك بكلمات دفعت بالدماء إلى وجهه. نظر إليه في ذهول ثم قال للملأ:

- إن الفتى وأخاه يقفان بالباب.

ضرب الاضطراب الوجوه وتململت المؤخرات على الكراسي. يرمقون ملكهم وينتظرون قراره. نظر للحاجب وقال:

- اصرفه، لا، انتظر. دعه ينتظر. لا، دعه يأتي من خارج القصر ليحدثني من تحت الشرفة.

قال هامان:

- ماذا يريد؟

سلت فرعون رمحًا من يد حارس:

- الخنازير تتبع مصائرها.

صاح هامان:

- نعم. ولنستدع الجند فيمثلوا بجثتيهما.

هنا قام حزقيل الذي لم يجلس منذ بداية اللقاء:

- أتقتلون الرجل لأنه اختار رب الجيبتيين؟

قال فرعون:

- لأنه كاذب. أليس لي ملك مصر وأنهار إيجيبت تجري من تحتي؟ إن كان للجيبتيين إله فأين هو؟

ـ ساحر كذّاب.

ـ إن كان كاذبًا فعليه كذبه.

قال كبير قبيلة بني نعيف:

ـ قول لا بأس به.

صرخ فرعون:

ـ أتريدني أن أعفو عن ذلك المهين مُضطرب الكلام؟

ـ إني أخاف أن يطولنا ما طال آباءنا. أنسيتم قوم نوح وعاد وثمود؟ وقد قال يُوسف صاحب الخزائن يومًا نفس الكلمات ثم قتل..

ـ على أيدي المنبوذين.

ـ ولم يبعث الربّ رسولًا منذ ذلك الحين، الآن يأتينا ذلك الفتى فنستهين بما يقول؟

ـ ما أشير عليكم إلا بحكمة القمر والصحراء. وما أهديكم إلا سبيل الرّشاد.

قال حزقيل:

ـ لتذكروا كلماتي يومًا.

قالها في اللحظة التي التقط الجمع فيها صوت الطرق المُنتظم. طلوا برءوسهم من الشرفة مُزدحمين. قبل أن يُفسحهم فرعون بطرف الرّمح. لمحُوا مُوسى يسير أمام أخيه. يضرب السور بعصاه في طرق منتظم. أصابهم الوجل وتهدّجت الأنفاس، يرمقون الأخوين بفزع بدا في ملامحهم كلما اقتربا. قلتت من موسى ضحكة:

ـ عصا الغنم أخافت الرّعاة.

أجابه هارون:

- عصا الغنم لا تُخيف إلا الغنم.

اقتربا حتّى وقفا تحت الشرفة. رفع موسى صوته:

- الخوف لا يضرب إلا صدور الكافرين.

ألقى فرعون رُمحه فاستقر على بُعد أذرع من موسى.

- سيشقّ الرمح التالي صدرك إن مسّت كلماتك رءوس العشائر.

- لا أتحدّث إلا إليك.

- قل لي إذن. كيف كان صوت إلهك؟ أكان يُشبه صوتي؟

- الرّاعي يتحدّث إلى العقل.

- المجذوبون يدّعون اتصالهم بالسّماء. تأتيهم العلّة حين يقضون الليل في الخلاء. مثلك. ولكن ماذا عن هارون؟ هل يكلمه ربّك المزعوم أيضًا؟

قال هارون:

- من ازدرى الراعي ورسله خاب سعيه وهلك

- كم أنا مُشفق عليكما. فمن جميع قبائل العماليق لا تختاران إلا المنبوذين فتطلبان خروجهم!

- ذلك أمر ربي.

- دع ربّك يقل كلماته أو يُرينا جسده أو أطرافه. إني أدعوه إلى وليمة.

قال موسى:

ـ ومن الذي أخرج الزرع وخلق الماشية التي ستقدمها في الوليمة؟

قال فرعون:

ـ روح رب القمر والصحراء التي تسكن جسدي.

عقّب هارون:

ـ لم لا تخلق لنا الآن ناقة أو عجلا؟ أو تحيل ماء النهر خمراً؟

لم يجرؤ أحد من الملأ على النّظر في وجه فرعون. صمت للحظات ثم قال:

ـ ولم لا يحيل ربك المزعوم ذلك الماء خمراً؟

نظر إليه موسى بصمت حتى ضحك الملأ. أردف فرعون:

ـ هيا، إني أتحداه أن يرينا قدرته.

تلقى عقل موسى الصوت فأغمض عينيه للحظات، ثم فتحهما ورجع للوراء خطوات، رفع عصاه فوق المياه الجارية ونظر إلى فرعون:

ـ لقد قبل الرّب التحدي.

وضرب بعصاه سطح الماء الجاري. رجع فرعون للوراء خطوة، ينظر لموسى وعصاه، وللنهر الذي لم يحدث شيئاً. ساد الترقّب لحظات قبل أن يرفع فرعون صوته:

ـ لعل الشيخوخة طالت إلهك فضعف سمعه.

صاح قارون:

ـ اذهب يا ابن عمران، فبطن السوء التي أنجبتك لن تتحمل رؤيتك. سوّدت وجه إسرائيل يا كالح البشرة

نظر موسى لهارون بعينين سبح فيهما الغضب، قال من بين أسنانه:

- عابد العجل يسبّ أمنا. سأمزّق أمعاءه إن طالته يداي.

- اهدأ يا أخي، فقباع الخنازير لا يرد عليه.

قالها ثم التفت لقارون:

- وإن الرّب لا يُحب الخائنين.

عقّب هامان:

- سنتبع نسلك ونسلك حتّى نفنيهم عن بكرة أبيهم.

التفت موسى لهارون ثم هز رأسه:

- هيّا بنا.

- إلى أين؟

- إلى مكان لا يطوله الماء.

صاح فرعون:

- إلى أين يا سحرة السوء؟

لم يُجبه موسى. ابتعد ومن خلفه هارون. ضرب الضّحك جلساء الشّرفة ورفع فرعون صوته:

- أخبر إلهك أن الدعوة قائمة، وأني لا أنام. وبلّغ بني إسرائيل السّلام. أخبرهم أن بقاءهم في الخلف لم يكن يومًا اختيارًا. فالدبابير التي تُغادر أعشاشها تُقتل.

- لو كان للسَّحرة قوة لاستأثروا بالعروش.

عقَّب هامان:

- سآمر الجُند أن يسحقوا غرورهما.

قال فرعون:

- بل انتظر حتّى يقابلا أهليهما بالخيبة فينفجر الخوف فيهم. سأحاصر خرائبهم وأحرقها على أهلها، ولتستبدل عمّالك يا قارون من قبيلة أخرى. ستكون أنت آخر إسرائيلي على قيد الحياة، والمفارقة، أنّك لا تهوى النساء.

ضحك قارون واهتز شحمه قبل أن تنقلب سحنته حين نظر خلف كتف فرعون. رفع سبابته:

- النهر!

التفت فرعون فوجد الماء وقد انحسر. تراجع حتّى ظهرت الأرض من تحته. نظر الملأ بعضهم إلى بعض وإلى فرعون الذي تابع السمك يتلوّى فوق الطمي، ثم اقترب من السّور فتدلّى. يحدق في النهر الذي تعرّى، قبل أن يلتفت للملأ الذي ضرب الوجل قلوبهم وتعالت الهمهمات بينهم وتخبّطت الأرجل:

- لقد سحر الملعون ماء النّهر.

قبل أن ينهي جملته التقطت الآذان هدير مياه. موجة كبيرة اقتربت باندفاع، تحمل فوقها أخشاب قوارب، بقايا منازل وأسماكًا نافقة. ضرب الهلع صدور الحاضرين وتعالت أصوات الحرّاس. يأمر بعضهم بعضًا بغلق أبواب لم تمنع اندفاع الماء إلى أرض القصر وجنباته. تأمل الملأ عرباتهم والخيول تنجرف قبل أن يفروا ناحية الجبل محتمين. يرمقون الناس على الضفاف يتعدون في يأس. يطاردهم الماء مكتسحًا البيوت والمواشي من حولها. صرخ فرعون فيمن حوله وركل الحراس ركلًا، ثم صعد إلى قمّة قصره ليتابع أبنيته التي غرقت. الخيول التي نفقت. منازل عشيرته التي تساوت بالأرض. تماثيله التي سقط اثنان منها وتصدّع الثالث. صعد الناس فوق

النخيل يستغيثون، وبدأت الجثث في الطفو على سطح المياه الغاضبة.

عند الغروب ضعُف اندفاع الماء. علم فرعون أنّ النّهر قد أغرق هوارة وما حولها. شرّد عشر قبائل يدينون له بالولاء وأغرق بهائمها، أسقط ساقية قصر قارون العملاقة وتخلّل الغرف الفخمة. في طوفان لم يطل أرض جاسان العالية التي سكنها العبيد والأرذال من بني إسرائيل. أمر عمّاله بتوزيع الأغذية والأقمشة على المشرّدين الذين صعدوا المرتفعات، وقبع في شرفته يطحن الضروس ويتابع الماء المندفع. حتّى أشرقت الشّمس عن مشهد صادم. هوارة غارقة حتّى مستوى صدور الرجال، يعومون عومًا وسط صرخات تأتي من كل صوب وعويل يصمّ الآذان. الأرض تجاهد في شرب المياه. الابتهالات ترتفع إليه كي يرحم شعبه من غضب لا يعرفون سببه. لا يجرؤ على إبداء الأسباب أو تبرير غضبة ليس لها دافع. كما لم يملك أن يجبر النهر على التراجع أو الانحسار. يقاوم السخرية التي تحرق صدره. فالحائط الذي أمر ببنائه ليعزل أراضي الإسرائيليين وخرائبهم هو ما حماهم من بطش المياه. ولم يجرؤ على كسر الحائط لتندفع المياه فيخرج الثعبان عائمًا ليلتهمه. ضرب الحائط بسيفه وحطّم الأثاث قبل أن ينظر لمرآة من الفضّة انعكست فيها صورته:

«ذلك الذي أتى من العدم بثعبان مبين ويد مضيئة كان جروًا صغيرًا في قصري يلهو بين الأقدام. كيف تجرّأ؟ كيف أظهر السحر الجيبتي في قصري؟ اللعين أحيا ثعبان الحماية الذي يعلو تيجان الجيبتيين. الثعبان الذي كسرته جنودي على رأس «سقنن راعي». أتكون تلك هي النبوءة التي أتتني في المنام يومًا؟ نهايتي على يد طفل يولد في ظل حكمي؟ في بيتي! كيف لم أنتبه؟ لم لم تهرسه عربتي يومًا أو تأكله سباعي؟ لأنني أطعت زوجة سقيمة وطفلة برصاء. أخذتُ مائي فأصبحتُ من بعدها عقيمًا. وحيدًا على عرش تتربص به القبائل وتخفي خناجر الغدر. فالملعونون قبلوني إلهًا ليحاصروا عرشي. يسجدون لي بقلوب ساخرة ونظرات شامتة. يستخفون بي ويتحينون ارتخاء ذراعي»

ضرب المرآة فكسرها:

- «لن أسمح لهم، ولن أسمح لثعبان أسود أن يهزم رب الأرباب».

والفجوات التي تثقبها، كنت أظن أنني سأرى عين الإله تطل منها أو أصابعه تمتد، حتّى راودت نفسي يومًا أن ألقاه، فعليّ أن أعرفه ويعرفني، أو يلعنني ويسحق عظامي فتكفّ الأسئلة في رأسي، انتظرت الليل أن ينزل وتسلقت الجبل فدخلت فجوة صغيرة قادتني إلى نفق مُظلم، جثوت على أرضه ورفعت يديّ مبتهلًا بالأسماء التي أعرفها، مُنتظرًا لإجابة، انقضت السّاعات والخوف يملأ جنبات صدري، صوت الريح ينفر جلدي وعواء ذئب ينفض ظهري، قبل أن أفتح عينيّ بحذر، ولم أجد شيئًا، قمت، مشيت فتعثّرت في بقايا عظام، ثم تجرأت فرفعت صوتي في الفراغ: «ربّ، رب الجبل، رب السماء، جئت إلى مسكنك لأعرفك، دعني أراك حتّى يطمئن قلبي، أو اقبضني إليك فلا أتطلع لذلك الجبل الذي خلب لبي واستحوذ على عقلي، إن كنت موجودًا فأصدر صوتًا، قل شيئًا، تذمّر، هزّ جبلك بغضب، إن كانت لديك رسالة فسأبلغها، أو تراءَ لي فأنحت هيئتك لقومي لعلهم يعبدون، أتعرفان ماذا حدث؟ لم يحدث شيء! أشرقت الشمس فلم أرَ إلا التراب والعظام الباقية، حفرت اسمي بسكيني على حجر، ثم نزلت من الجبل قاصدًا الإجابات الشافية، حتّى وجدتها عند شيخ تخطّى المائة عام، قال لي يومها: «يا فرعون، إن حكايات الآباء الأولين تحكى لتخيف الأطفال، والكبار الذين ينوون فسادًا، إنما الرب يعيش فيك، بداخل صدرك ورأسك، أنت الخالق والمخلوق، القوي والضّعيف، أنت الفاعل والمفعول به، إلى أن يتجلى إله من العدم ويظهر عليك فتسجد».

قال موسى:

- ها هو قد تجلّى وبعث إليك بالآيات.

- عن أيّ إله تتكلم؟ إله يُبيد عبيده ويُغرقهم بالماء والمرض؟ ذلك ليس بإله، بل شيطان يُفسد القرى ويُفرّق بين القبائل، أثبتا لي أنه موجود، ليظهر بجسده في تلك القاعة، أو في الخلاء إن كان ضخمًا، أو ليتحدث فأسمعه، أم أنه خجول لا يستطيع؟

نظر مُوسى لهارون الذي أجاب:

- الراعي قادر على كل شيء.

- لم لا يقتلني إذن؟

- لا يُسأل عن حكمته في بقائك، ولكل أجل ميعاد.

- تلك إجابات العاجزين.

- أرنا قدرتك إذن، روّض النهر الغاضب، أقشع السماء التي امتلأت جرادًا، وأوامر الضفادع والأسماك فتكف عن التكاثر، وأرجع الماء شفافًا كاشفًا كما كان.

بُهت فرعون، نزل الدرجات فاقترب منهما غير عابئ بعصاة موسى أو يده، وضع قوسه على الأرض ورفع قناع العجل عن وجه ملأته البثور:

- الإله يعيش خلف ذلك الوجه الذي أفسده سحركما.

قال موسى:

- اترك بني إسرائيل لتغادر الأرض فنتركك في سلام.

- لم أعرف التهديد يومًا ولم ينل مني وعيد، فجندي سيأكلون المتمردين إن أمرت كما يأكل الجراد الزروع.

قال هارون:

- ألم تر ما حدث لصاحبك قارون ولداره؟ وقف في شرفته بغرور، نظر للسماء وتحدّى الراعي فتصدّعت الأرض من تحته وخرّ البناء فانخسفت به الأرض.

- قارون كان خنزيرًا غبيًا، ترك قصر رب القمر واحتمى بقصر البشر.

- لتبق على عرشك، ولترحل بنو إسرائيل.

- إن خرجت بنو إسرائيل انفرط العقد، ستتجرأ الأحلاف أن تنفصل أسوة بقبيلتكم.

. ذلك أمر ربّي، ودين في رقبة الرّعاة عليك تسديده.

. تلك ليست كلماتكما. تلك كلمات فتى «واست» صاحب الأسد. بعد مقتل أبيه وأخيه يخوض معركته بالسّحر بدلًا من القوس والفرس.

. إنّ ملك الچيبتيون الطوفان والجراد والقمل والضفادع لأرسلوها قبل مائة عام.

. وإن لم أذعن لكما؟ سيقتل ربّكما المزيد من الناس؟

كزّ موسى أسنانه:

. كأنك تعبأ بهم وقد فرّقت بينهم وقتلت منهم!

. أقتلهم كي لا يقتلوا بعضهم

. وتحبَل زوجاتهم كي يحمدوك؟

. أنتما تُريدان ذلك العرش، ليقول الناس إن فتيي الخرائب أخضعا فرعون؟

. إن خضعت للرّاعي خضعت الناس لك. ولا نبغي إلا الرحيل في سلام

سكت للحظات وأطرق برأسه للأرض ثم قال:

. اكشفا سحركما فأرسل معكما بني إسرائيل.

نظر موسى لهارون ثم هزّ رأسه:

. سنبتهل للراعي رفع عذابه. وسنمهلك ثلاثة أيام حتى تأمر برحيل بني إسرائيل.

رمقهما فرعون للحظات ثم أسدل القناع فوق وجهه وانسحب.

خلال ثلاثة أيام [illegible]

الطيور والكلاب بأكل الضفادع والأسماك النافقة. ورجع الناس للأسواق يفرشون بضاعتهم ويتحاورون في أمر بني إسرائيل وفرعون. متحاشين الاقتراب من منازل المنبوذين التي تأوي موسى. الأمير المتمرِّد الذي اجتمع مع أخيه برءوس بني إسرائيل ليقترحا عليهم طريق الخروج إلى الشرق. ترك موسى لهارون الكلام. فهم يعرفونه وهو يعرفهم:

- لقد اتخذ أخي طريقه منذ عشر سنوات إلى الشرق. يعرف مسالك الوديان والطرق الممهدة. سنتجه بعد الالتفاف حول اليم جنوبًا ثم للشمال الشرقي فوق البحر. ثم ننتظر أمر الراعي.

تبادلوا النظرات في وجوم ثم قال كبيرهم:

- انتظار أمر الراعي كانتظار المطر في ميعاد. لن يصبر الأطفال والنساء والعجائز.

- الراعي لن يتركنا بعدما أمرنا بالخروج من الأحلاف.

- نقدِّر الآيات التي أتيتنا بها ولكن...

قال موسى:

- لكنكم تقبلون الذل على الخروج لأرض الرب الواسعة.

نظر كبير العشيرة لموسى بغضب مكبوت ثم وجّه كلامه لهارون:

- قل للأمير السابق إنّ عشيرتنا التي تربّى بعيدًا عنها عاشت في تلك الأرض مائة عام. مشينا على أرضها وشربنا ماءها. استنشقنا هواءها وقرأنا سحابها. وعرفنا بالتجربة أن كل من غادرها إلى الشرق. ضاعت سيرته واندثر أثره. إن كنا ستغادرها مطرودين...

قاطعه موسى متحفزًا:

- بل ستغادرونها مكرَّمين. تبيعون القمر لتشتروا رب القمر.

التفت إليه:

. تظن فرعون سيصدقك الوعد؟

قال هارون:

. عليه أن يواجه الراعي إن لم يصدق.

وعقب موسى:

. وعليكما أن تواجهوا انتقامه إن رضيتم بالذل والهوان.

فار وجه كبير العشيرة.

. من أنت لتتكلم عن الذل والهوان؟

. رسول الراعي إليكم.

ضغط هارون على يد أخيه وتوسط المجلس:

. فلتعذروا أخي، فما يحمله ثقل تنوء به الأكتاف. الراعي يفضلنا على القبائل بالإيمان والوصال. أمرنا أن نخرجكم لتكونوا أحرارًا، ليورثكم ما جاء به إبراهيم يومًا.

. أرض الفيروز؟

. بل الإيمان، الملة الحنيفية، ملة إدريس.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول كبير العشيرة:

. والسيادة؟ ستكون لكما؟

تبادلوا النظرات ثانية ثم قال كبيرهم:

- سنأمر أهلنا بالرّحيل، وحين نأمن طريقنا ونبتعد عن هوّارة، سيكون بيننا حديث آخر.

قاموا فرحلوا بلا سلام، التفت هارون لأخيه:

- كدت أن تحدث صدعًا يا ابن أم.

- أسمعت قولهم؟ يمنون على الراعي الاتباع؟

- عقول الشيوخ لا تأمن إلا بما تعرفه.

- لقد جالست شباب العشيرة فوجدت فيهم آذانًا مُصغية ورغبة في الاتباع عن هؤلاء المخرفين.

- يجب علينا تجنب الصدام. شباب العشيرة لا خبرة لهم، وهامان يُغدق الأموال ليشتري ولاء الكبار الذين يحركونهم، لولا خوفهم من فرعون لأذعنوا وتراجعوا.

- من يتخلّف فسيفنى ويندثر.

لم يكد ينهي جُملته حتى ارتفع صوت رُسل الملك، رجال يسيرون فوق الحمير ويُنادون بالأخبار في الأبواق النحاسية:

- يا أهل هوّارة، لقد صعد ربّ القمر والصّحراء على فرسه إلى السّماء فأمر السّحاب بالانقشاع، والأرض بالابتلاع، والنهر بالسكون، ثم أبطل سحر ابني عمران اللذين يريدان إخراجكم من أرضكم التي أورثتموها أبًا عن جد، فلتبتهلوا لرب القصر، وتكاتفوا فلا يفتنكم سحر الجيبتيين، وإن تكرّرت النّكبات فحاصروا خرائب الإسرائيليين وأحرقوها، أفنوهم حتّى لا تكون فتنة، حتّى لا يزول المصْر الذي وهبه لكم رب الصحراء سوتخ المتجسد في قلب مليككم.

التفت هارون لمُوسى:

. غدر بنا رأس العجل.

. سيشمت بنا شيوخ العشيرة.

مسح موسى رأسه ثم زفر غضبا:

. سأضرب بعصاي النهر ثانية.

. إن فعلت ستتحزّب القبائل ضد بني إسرائيل ليؤازروا الههم المزعوم. سأذهب إلى الشيوخ فآمرهم بسرعة التجهّز للرحيل.

. انتظر يا هارون، لن يترك القبيلة لترحل. هو يعلم أن في خروجها نهايته.

. ماذا ستفعل إذن؟

ساد الصّمت ثقيلًا مقبضًا للقلب. استمعا لنداء المبلّغين مرات ومرات قبل أن تلمع عينا موسى. قام مصعوقًا فلف عصاه بقماش كثيف وأخفى وجهه تحت قلنسوته.

. اذهب إلى شيوخ العشيرة وشبابها فأبلغهم أن أمر الرب قد أتى ولا تراجع. ليحزموا أمتعتهم ولينتظروا عودتي.

. أين ستذهب؟

فتح موسى الباب وخرج دون أن يجيبه.

☥

☥

☥

وتراوده ناديا.

مرات ومرات، تنتابه بلا ميعاد. تمزّق خلوته وتبعثر البرديات لتعتليه، كطير يقبض على فريسته. تلتهم شفتيه قبل أن تستلقي، في حقل العنب، في البحيرة، في الخلاء وفوق الجبل، أو حتّى فوق البرديات. تسقيه الغرام كألف امرأة تموج في جسد واحد، شبقة راضية، متأججة هائمة، خاضعة حرون، صارخة هامسة، من يقف في وجه الشمس حين تَشرق؟

من يقف في وجه النهر حين يغضب؟

من يقف في وجه العشق إذا تملّك قلبًا وتغلغل شغفًا؟

ثم تفيق ناديا..

من سكرة الغرام فتشرّد. تحدّث نفسها همسًا ثم تصرخ، ثم ترقص قرب النهر بعاطفة تَركّع الأشجار، حتى تتصبب عرقًا. فهي دون الرقص نحلة دون الزهر، قبل أن تنزوي إلى ركن، تجحظ عيناها وتمتنع عن الرمش، ثم ينساب الدمع في صمت حتى تمسك بصدرها ألمًا وتشتكي مرضًا في القلب ولدت به. يحتويها كاي ويربت على ظهرها فتذهب في ثبات يحبس الدم في ذراعه. يتأملها وهي نائمة فيبتسم. فساقية عقلها لا تكف عن الدوران، والثور الهائج الذي يجرها أعمى يَصارع الذباب.

ثم تفيق من سكرتها فتتحدث عن الهروب والزواج وأسماء الأطفال والحب في أطراف الأرض وفي مياه النهر، ثم تأتي سيرة البرديات، ضَرتها التي لم تكف يومًا عن مراقبتها. ضرّتها التي تمنعها عن كاي، تدفعه دفعًا أن ينهي ترجمتها، أو أن يحرقها، فالبحر لن يتبخر حين يقرؤها، والإسكندر العظيم لن يعود إذا سمع عنها، واليهود لن يتركوا الإسكندرية إذا انتشرت سيرتها بين الناس. اترك البرديات في المعبد لكاهن يُكملها، فلم تخلق للكهانة بل خُلقت لحضني، لنرحل إلى المستنقعات، نلقى أبي فيباركنا، ثم نتجه جنوبًا، إلى الصعيد. نسكن بجانب النهر وندير حانة أو نُزلًا، نشاهد النجوم كل يوم، ونمارس الحب فوق التلال وفي الغيطان وبين عيدان القمح، حتى نشيخ معًا، ونموت معًا فندفن معًا. ينظر إليها كاي ولا يعقب، يبتسم، ثم يحكي لها عن أمر نبي الرعاة فتعقد ساقيها وتنتبه، جاحظة العينين كقرد حذر، تهيم في القصة كأنها تعيش أيامها، تسب فرعون وتضحك على سيرة قارون، وتتوحد مع امرأة موسى رجل السماء، قبل أن يطلب كاي الخلوة ليتمم ما عزم أن يُنهيه وأقسم، تتركه بعد قُبلات حارة فيذهب إلى بردياته.

لتظهر عاهرتها قرب العرائش.

حُبلى في الشهر الأخير، تسير بصعوبة متكئة على عصا كعصا موسى، تقترب وتقترب، ثم فجأة، تسحب من ثوبها كُرة ليف مُنتفخ فتلقيها في وجه ناديا وتضحك بصخب، ثم تزعق في أذنها:

- ما فتأت آتيك بالغيب الذي تظنينه ضربًا من العبث حتى يُصيب.

- إن كُنت تبحثين عن السعادة لتلتهميها فارحلي، عشق الفتى ضرب جذوره حتى حُشاشة كبدي.

- إنما جئتُ لأبشرك، أنت حُبلى.

ارتعشت عينا ناديا:

- أنت كاذبة.

- تأخرتْ دماؤكِ.

- ذلك أمر يحدث.

- نادرًا. ماذا ستسمّي الطفل إن صدقت نبوءتي؟

لاح التصديق على وجه ناديا فانعقد لسانها ونظرت إلى بطنها. أردفت عاهرتها:

- سميه آرام. اسم الرجال. أو كاي على اسم والده. فالكاهن لن يرى ابنه طالما البوصة والدواة بين يديه. لكن. ربما كان للخبر وقع مثير في أذنيه. وقع قد يقنعه بالالتفات إليك.

- كاي دون الترجمة لن يعيش.

- وأنتِ دون كاي لن تعيشي. احرقي الترجمات. دون أن يدري. حادثة سيحزن بعدها قليلًا. ثم يتوجه إليك. ستكونين محرابه ومذبحه. ستكونين قدس أقداسه.

- لكنه لن يصبح كاي الذي تُحب.

- سيكون كاي الذي تحبين.

ألقت كلمتها ثم انسحبت، تاركة أنامل ناديا تداعب سرّتها.

☥

☥

☥

منتصف الليل.

لم يأتِ تلك المرّة بهيبته المعهودة، لا حرس، لا خيول ولا عربات. اقترب من الباب فقرعه قبل أن يفتح كاهن شاب، رفع شمعته فأضاءت الوجه قبل أن يفتح الباب على مصراعيه وينحني إجلالًا. تقدم الضّيف حتّى مسكن كاهن المعبد مختار، دلف غرفته وانتظر حتّى فرغ من صلاة الليل ثم أسرّ إليه:

- رئيس القصر بالخارج.

لم يكد الكاهن الصغير ينهي كلمته حتى دلف مَردخاي إلى الغرفة الصغيرة:

- الكاهن الأكبر مختار.

ضيق مختار عينيه الضعيفتين:

- سيدي، يا لها من مفاجأة

- ليحرص ذلك الشّاب على أن يُبقيها مفاجأة حتّى أرحل دون أن يستيقظ أحد.

نظر مختار إلى الكاهن الصغير:

- التزم الصمت، وأتنا بمشروب.

قرّب مُختار كُرسيًا لمَردَحاي ورفع فتيلة المصباح:

- كيف حال الملك؟

- بخير، يرسل إليكَ تحياته المُحمّلة بالود.

- لِمَ لم تنبئنا بقدومك حتى نعد استقبالًا يليق برئيس القصر؟

- الأمر الذي جئتك به لا ينبغي أن يُعلن.

ملأ الاهتمام وجه الكاهن:

- أرجو أن يكون خيرًا.

- جنازة الكاهن الأعظم اقتربت، ولم نُعلن بعد عن تنصيب كاهن للچيبتيين.

- المُراسلات تفيد بتنصيب «متري» نائب معبد الأسوار السبعة كاهنًا أكبر.

- لقد جئتك لنسوي هذا الأمر، فالكاهن «متري» تدور حوله شكوك.

- أي شكوك؟

- منذ سنوات ونحن نتبع أثر خائن نشك في انتمائه للسلوقيين.

ضرب القلق ملامح الكاهن:

- ما تقوله أمر جد خطير.

- ما قلته يجب أن يظل سرًا حتى لا تضطرب قلوب الفقراء. مقتل الكاهن الأعظم، سرقة البرديات، اختفاء ذهب خزينة

غامت عينا الكاهن في شرود قرأه مَردخاي فالتزم الصّمت حتى غمغم:

. أي لعنة أصابت الكهانة، أي عار! تلك ليست أفعال رجال الراعي، أنا أعرف متري، تلونا صلواتنا تحت النجوم يومًا، أكاد أجزم أن في الأمر سوء فهم، هذا رجل صالح وديع، ما كانت يداه لتريق الدم.

. بالطبع لم يتورط الكاهن متري في إراقة الدماء، فهناك كاهن صغير يدعى كاي، تولى تنفيذ تلك الفعلة الشنعاء.

ارتعشت يدا الكاهن وتهدّجت أنفاسه فأكمل مَردخاي بنفس الهدوء الذي بدأ به:

. لذا كان على القصر تحرّي السّرية والدقة في اختيار المُخلصين من الكهنة لمنصب الكاهن الأعظم، تمهيداً لمسح المعابد وتطهيرها من جُرذان السلوقيين، وقد وقع الاختيار عليك لما عرفنا فيك من سيرة نقية ومن حكمة و...

بتر مَردخاي كلماته ثم استطرد:

. يجب أن نتحلى بقوة التحمل والصّبر في مثل تلك الظروف السّيئة.

ساد الصمت، لم ترمش عينا الكاهن اللتان تريان مَردخاي طيفًا ملونًا يتحرك، اقترب الأخير منه وهمس:

. أم أن... صدرك يخمشه أمر لا تُفضل البوح به.

ساد الصمت لحظات أدرك خلالها الكاهن أن مَردخاي لا يسأل، مَردخاي يخبره:

. البرديات أتت إلى المعبد مع بحارة في مركب، تركوها ورحلوا.

. جيد جداً، أين هي؟

. في خزانة قدس الأقداس.

فض الكاهن مختار قفل الخزانة وأخرج البرديات، وضعها بين يدي مَردخاي الذي جلس فقلب الأوراق فحصًا، أدرك بدايات قصّة موسى حتى تفاصيل «الخروج» من المصر، نظر للكاهن:

- أين بقية البرديات؟ والترجمة؟

- ذلك كل ما جاءنا...

لم يلتفت إليه مردخاي، كأن لم يسمعه، طقطق فقرات رقبته ونظر في البرديات، مشى بعينيه على كلمات مانيتون:

«إن بني إسرائيل فرزوا سير رُسل السماء الأقدمين واستحوذوا على نسل آدم، أول من ملك اللغة من سلالة البشر، ثم نسل نوح، استأثروا به واستبعدوا كل من عداهم من البشر، سفّهوا أصولهم ولطخوا سيرتهم واستولوا على بركة إلههم المزعوم يهوه الذي ادعوا أنه أغرق الأرض كلها في حين لم يطل الغرق سوى قوم نوح، فكيف يُغرق الراعي الأرض بمن عليها من أجل حفنة من العصاة؟ وما ذنب الذين لم تأتهم الرسالة؟ وما ذنب الجيبتيين الذين اتبعوا إدريس؟ لمَ لم يغرقوا وتغرق أرضهم؟ وكيف لمركب ما صُنع قبلها مركب، أن تحمل دواب الأرض كافة؟».

لم يكن مردخاي يرى حروف مانيتون، كان يرى اللوحة التي طالما رآها في بيت أمّه، لوحة «نوح» في قاربه المُستدير ورءوس الحيوانات تطل من الفتحات، طالما سأل نفسه تلك الأسئلة، كيف وضع «نوح» حيوانات الأرض جميعًا في قارب؟ هل وضع دببة الشمال ونمور الشرق وأفيال الغرب والأسود؟ هل وضع الناموس والديدان والفراشات والنحل والنمل؟ هل أغرق كل مُسطّح في الأرض وكل زرع؟ كيف وصحف إدريس الثلاثون لم تذكر أن الطوفان قد زار إيجيبت، صحف إدريس التي ترجع إلى خمسة آلاف عام! اللعنة على مانيتون، اللعنة على راسم تلك اللوحة، اللعنة على من كتب أساطير الأولين.

مسح مُردخاي رأسه ثم اقترب:

- أين كاي؟

رمقه الكاهن بصمت طال فابتسم مُردخاي ومد أصابعه إلى صدر الكاهن، أزاح بهدوء السبحة التي تتدلى من رقبته، السبحة التي تتدلى أمام القلب، ارتعشت عينا الكاهن واضطربت أنفاسه قبل أن يكبس مُردخاي باليد الأخرى على فمه بغتة ويضرب بقبضته موضع القلب، صرخ الكاهن صرخة مكتومة فأبركه مُردخاي على الأرض بهدوء حتى لا يسقط

فتنكسر عظامه الهشة. استوى الظهر المحني على الأرض فاستعمل مُردخاي ثقله في الضغط على الصدر وسط مقاومة ذراعين فقدتا القوة. لحظات من الألم والارتعاش حتى ارتخت القبضة. تعانقت الأصابع المعروقة في وداع أخير وجحظت العينان. أسبلهما مُردخاي في عطف وربت على خد الكاهن قبل أن يسوّي السُبحة فوق صدره. لحظات ثم قام فأعاد المنضدة إلى قواعدها وهندم ملابسه. قبل أن يُنادي خادم الكاهن. أتى الفتى مُهرولا فصعقه المشهد. انحنى فوق مُعلمه فحصًا فلم يمهله مُردخاي خلق الفكرة.

. المسكين حين سمع أمر الكاهن الذي سرق البرديات وتسلل إلى المعبد لم يتحمل قلبه الصّدمة. شهق شهقة أخيرة وانسابت روحه.

رفع الخادم عينيه المذهولتين في خشوع.

. أتقصد كاي يا سيدي؟

ابتسم مُردخاي وهز رأسه إيجابا.

☥

☥

☥

تسللت تماسيح مَردخاي لأول مرة إلى بُحيرة المعبد، يُجيدون السباحة دون صوت والغوص تحت الماء، حاصروا الخُص الخشبي من جهاته الأربع، قبل أن يخرجوا زحفًا شاهري سكاكين مسنونة، اقتربوا من الأخشاب المتلاصقة فتسللت الأبصار خلالها تلتمس أثر كاي، الظلمة كانت سائدة والشمعة لم تزل تُصدر دُخانها، قبل أن يهوي أحدهم على باب الخُص فيكسره، جاسوا خلال الغرفة فلم يعثروا على مرادهم، لا برديات ولا بوصات ولا كاهن قيل لهم إنه شرس يُقاوم، ضربوا بأيديهم أبواب الغرفات الخشبية فأخرجوا الكهنة تحت تهديد السلاح، جمعوهم في بهو الأعمدة قبل أن يمّر عليهم مَردخاي واحداً واحداً، نظر في الوجوه فلم يجد لكاي أثرًا، قبل أن يميل عليه خادم:

- لا بد أنه ذهب لامرأته يا سيدي.

قبل عشر دقائق.

بزرقته المائلة إلى البياض توهجت الجوزاء على وجه البحيرة، نجم حار فتى العمر لم يخذل كاي يوما، تعودت عيناه في جلسات التأمل رؤية النّبض الثابت فيه والاهتزاز الطفيف، تلك الليلة كان الوهج يميل لصفرة غير مُحببة، صفرة لا يأتي بعدها خير، نبض طويل متباعد كنبض كهل يموت، تأمله كاي لدقائق حتّى التقط جلبة في المعبد وصوت أقدام تتحرك في همّة، هناك زوار مفاجئون، تلا متن الحماية في سرّه وهو يلملم بردياته من الخُص، ثم ركض فتسلل من المعبد، قفز السور واهتدى بنور القمر حتى وصل عرائش العنب، أيقظ ناديا هامسا:

. استيقظي، علينا أن نرحل الآن؟

بفزع فتحت عينيها:

. ماذا حدث؟

. تغيّر لون النجم.

رمقته باستنكار ولم تملك إلا اتباعًا. سارا بخطوات معكوسة كي تبدو طبعة أقدامهما خارجة من النهر وليست متّجهة إليه، حين بلغا الضفاف حرر كاي المراكب الراسية قبل أن يقفزا في واحدة. ضرب المجاديف بعزم حتى ابتعدا. ترمقه ناديا بوجل وأنامل ترتعش، وتتابع أعين التماسيح المضيئة التي تتبع المركب في خشوع. لم تتحدث ناديا حتى رأت البرديات بين قدميه. اعترت جسدها رجفة فهمست:

. أنا حُبلى...

توقّف كاي عن التجديف، وتوقف عقله عن التسبيح. سحب نفسًا إلى صدره ثم نظر إلى عينيها للحظات قبل أن يكمل التجديف بهمّة. رمقته لثوانٍ ثم أردفت:

. كنتُ أدخر تلك المفاجأة لوقت أفضل، لكن، لا أعرف ما حملني على البوح! سيكون طفلًا مثاليًا، ابنًا لكاهن وراقصة، يا لها من خلطة! أعتقد أن يدورك القيت يوم النهر، مثل نبي الرعاة الذي تتبع سيرته، أليس ذلك ساحرًا؟

كزّ كاي على أسنانه ثم زفر تعبًا فأردفت:

. ماذا سنسميه؟ ربما عزيز على اسم والدي. لا، انتظر. أريدها أنثى، وسأسميها مليكة، لطالما أحببت ذلك الاسم.

لاحظت شروده المتعمّد فبددت الصمت بضحكة عصبية:

. سأعلمها الرقص ونفخ الناي، وستصير محور حياتي وآمالي. لن أتركها لحظة، ولن أسمح لرجل بجرح قلبها.

لم يجد كاي ما يقول، فصدره متخم بالوجوم وفائض بالاضطراب رغم هدوء ملامحه. الجوزاء لم يخذله يومًا، يوم تصفرُّ

أشعته تصير الأحداث إلى غرابة وتخبط، إلى جنون، رصدها قبل مقتل الكاهن بأيام واليوم يتابعها وهي تأتيه بنبأ وليد في الغيب، ابن لطريد يحمل لعنة، أردفت:

. لولا البرديات التي بين قدميك لعلت وجهك الابتسامة التي أعشقها،

. لنؤجل فرحتنا حتى نصل إلى برامي،

قامت من فورها فرحة فاحتضنته وقبّلت شفتيه حتى مال المركب، توقف عن التجديف وتركها تنهي ما تفعله حتى عادت لمكانها بابتسامة واسعة، وعينين لا ترمشان،

☥

☥

☥

حين علم مَردخاي باختفاء كاي وفاته حَمل بنفسه جَسد الكَاهن مُختار، سجاه بالكتان الأبيض فوق سريره، وأمر بتحضير الجسد لجنازة تليق به. ثم ضمّ برديات مانيتون بالحزام ودلف إلى الخُص الخشبي الذي سكَنه كاي قرب البحيرة، جلس على كرسي من القش وسحَب نفسًا طويلًا فاشتم رائحة الفتى الجيبتي، تفقّد دواة الحبر والبوصة التي تركها في عجالة، أمسكها بيده ولامس الحبر الأسود ففركه، ثم تفقّد العلامات والأرقام على الجدار، علامات تنظيم الكتابة وعدد الأيام، الفتى يكاد يَنهي ترجمته، ملحمته، ترَك البرديات الأصلية في خزينة المعبد لكنه احتفظ ببردياته، لم يعد يؤمن بأحد، لا بكهنة المعابد ولا بإله المعابد. «كم يَعجبني إصراره، يَدهشني، يَذكرني بنفسي حين كنت أجمع قصاصات التوراة من الصدور والبيوت لنحفظها في بيتنا لحين يأتي الوقت لننشرها في حي يليق بها، كنت أجمعها في صندوق خشبي يشبه النعش في بيت راعوث؛ أمي الفاضلة التي لم تدّخر وقتًا ولا جهدًا لرفعة شعبنا المقدس في السماء، الملعون في الأرض، من عبيد الأرض، كنت أفعل مثلما يفعل ذلك الجيبتي، أجري كأن الأسود تطاردني، فالمَعابد فقدت قَدسيتها، ووهن حرّاسها، تخلّوا عنها كما تخلى الإله عنها، هجرها من أجل إله اليونانيين، وسيهجرها إله اليونانيين من أجل إله آخر، فحروف البرديات المقدسة إما تستحيل توراة يسير وراءها شعب يستحق نعمة الإله، وإما قصصًا شعبية ومآثر متوارثة تَحكى على آذان الناس فيذكرون بها مجدًا لن يَطاولوه، ولن تزيدهم إلا تخبطًا وجنونًا، قبل أن تمتد يد الحذف والإضافة والتحسين، لتتحول الكلمات إلى أوعية جوفاء، فتفقد قدسيتها وقيمتها، في صدور أصحابها..

زفر مُردخاي بصبر، تأمَّل الورود التي زيّنت النافذة الصغيرة، والقماشة الموضوعة تحت مخدَّة الفراش، التقط منها شعرة أنثى فاحمة واشتم عرقًا شهيًّا، ماءَ عذبًا يأثر الرجال «تلك أصعب ابتلاءاتك أيها الكاهن المسكين، أن تأتيك الدنيا بين فخذي امرأة، تسقيك رحيقها حتّى تثمل، تصير إلهك الذي تعبد، حتى تغيب شمسك فتسقط، في هاوية لا قرار لها».

ابتسم مُردخاي وضم برديات مانيتون وغادر الخُص.

☥

☥

☥

في الطريق، وبين معبد «أون» والمَستنقعات، أوى كاي ونادبا إلى قرية نائية استطعما أهل بيت فيها فضيفوهما، أكلا بنهم وحكيا قصّة مزيفة عن رحلة عودة مزعومة لسمنود، ثم ظهرت ابنة صاحب البيت، فتاة ناهدة، جميلة باسمة وإن كانت لا تشبه نادبا، صبّت اللبن لهما ووضعت الفاكهة فأثنى كاي عليها أدبا، ثم طلب منها حبرًا فاعتذرت، فهم أهل بيت لا يعرفون الكتابة، خرج كاي من البيت فبحث بعينيه في الحقول حتى وجد شجرة «سنط» باسقة، فمسح من جذعها الصمغ وخلطه فوق نار بهباب إناء طبخ، حتى صار المزيج حبرًا تشربه البرديات، التقط من الأرض بوصة، شذّبها بسكينه وشرع في العودة للبيت الذي آواه حين وجد نادبا واقفة وسط الحقل، تهتز ساقاها باضطراب والحَمم من عينيها تتطاير، اقترب:

. ما بك؟

. أعجبتك ابنة صاحب البيت؟

. ماذا تقولين؟

. رأيت الشغف في عينيك، أثنيت على الطعام وعلى اللبن الذي قدّمته، كأنها أخرجته من ثدييها!

ضحك كاي من قلبه:

. أيتها الغيور! كيف النظر إلى غيرك وعشقك يملؤني؟

أزاحت يده بغضب:

. لقد ابتسمتَ لها ثلاث مرات وابتسمتْ، أحدكما منسجمين.

. ليست في جمالك؟

. لم؟ فهي بيضاء وثديها ناهد، تجيد الطّبخ وصوتها رقيق حين تغنّت بالكلمات لابن شقيقتها، العاهرة كانت تثيرك.

. ناديا! الفتاة ليست عاهرة، لم تتعد ما للضيوف من حق إكرام ولم أتعد حدود المجاملة.

. ما بالك اغتظت حين قلت عاهرة؟ لأنها ابنة لأب يرعاها وأم حنون؟ لأن لها بيتًا له سقف وباب يحميها؟ أم لأن شعرها ناعم؟

التقط أناملها:

. ناديا، لا أرى إلا سواك، إن اشتعلت بي رغبة فلم أكن لأظهرها أمامك.

. لقد رأيت بعينيّ كيف تنظر إليها، تكاد تلتهمها.

. هذا لم يحدث.

تقلصت أناملها بغضب:

. وشقيقتها أيضًا قد لاحظت، نحن النساء نفهم بعضنا بعضًا من نظرة عين، أما الرِّجال فهم الرِّجال، تظنون أنفسكم أسودًا وأنتم الضباع...

. ناديا، احذري يا حبيبتي، فإن غضبي داكن كلون شعرك.

. الآن تهددني!

. بل أحذرك مغبّة أن تثيري بُركانًا خامدًا.

. بُركان! ما أنت إلا كاهن بارد المشاعر، سأقضي ليلتي في ذلك البيت، وسأتسلّى برؤيتك وأنت تنهل من ابتسامات بيضاء البشرة.

واندفعت مغاضبة إلى البيت. وقف كاي في الحقل لدقائق محاولًا تهدئة أنفاسه التي تهدّجت، وإطفاء النار التي أشعلتها ناديا بلا داعٍ في صدره، استيعاب تلك الروح النارية لا يخلو من حريق للقلب والعقل. فهي الماء والنار معًا، والناس عندها إما أحباء أو أعداء. تابع مشيتها التي تهز كل خلية في جسدها حتّى أغلقت الباب في غضب، استدار مبتعدًا، حتى إذا أتى الغروب أوى مختنق الصدر إلى مذود البقر. تنحّى في رُكن فأشعل الحطب وشرع يُكمل ترجمته حين اقتربت ناديا كقطة خمرية، قطة خائفة تتسلل. نظرت إليه للحظات ثم جلست فكومت ساقيها ودفنت جسدها في حضنه. قبل أن تغط في سُبات عميق. تأملها كاي للحظات ثم قبّل مفرق شعرها حين لاحظ خطًا جديدًا، تحت خنصرها في طرف الكف، خطًا غائرًا لم يره حين كانت تحت آرام. لم يكن ذلك الخط سوى حفر لاسمه في قلبها، رفع كفّه ونظر لنفس الموضع مقارنة، فوجد خطًا يماثله، له نفس الانحناء ونفس العمق. ذلك خط ناديا. رغم الوهن ابتسم، ثم وضع قلم البوص على الورق وشرع يترجم:

ها أنا أخرج منك مرّة أخرى يا هوّارة.

يا عوّارة.

يا مدينة الظلم والجبروت.

يا خرقًا في قدس الملكوت.

لا تسأليني لماذا ضاق صدري وتحجّر لساني.

لماذا كرهت أرضك التي سار عليها جدّي، ولماذا ماتت الأماني.

صدّقيني.

لا أحمل ضغينة،

سوى أنك أسلمت نفسك رهينة

للغرور

للسقوط

للفناء والثبور

فصرت مهينة

الزئير كان هادرًا، سمعه حراس الأبراج وصيادو البحيرة الشمالية فتبادلوا النظرات، ثم ترحموا على ملكهم الراحل وأبيه من قبل، فالحزن مازال يملأ الصدور والغل ينهشها نهش الضباع، فمن شهد المعركة حكى للآخرين، الملك الشاب؛ كامس، ابن سقنن الراعي، بعد ظفر على جيش فرعون يسير بين أسرى الرعاة، يتأملهم، يلتقط بعض أقواسهم ليفحص صنعتها، وينظر في الأعين والأطراف، والغائط المتخلف منهم، ثم يُملي لكاتبه ملحوظات، فلون الأعين يفضح الأمراض، والأطراف تكشف سير الدماء في العروق والقدرة، أما الغائط فيشير لنوعية الطعام وطبيعته قضى الساعات في تفقد الجرحى ثم اقترب من الموتى المكدسين ليفحص أصحاب المقامات منهم، وإذا بجسد يتحرك، في سرعة عقرب، بلا تدبر، يغمد الخنجر المسنون في فخذ الملك الذي تراجع خطوة فهوى بسيفه على رأس الغدر ففصلها، ثم نظر لجرحه، وللدماء التي فاضت على ساقه، سب رب الرعاة ثم سقط، حمله الحراس إلى مرقد مريح تظله شجرة، وجاء طبيب، قبل أن ينظر في الجرح هز الملك رأسه في يقين، الجرح عميق، طال عرق الحياة في الفخذ، مسألة وقت.. قبل أن تنحدر الشمس ارتخت القبضة، بين يد أخيه الصغير الذي ولد في وقت الهلال فسمي باسمه؛ أحمس، بكى أخاه الأكبر ثم دفنه، ودفن معه خنجره، ثم اعتلى العرش ولم يبلغ العشرين، بعد أب وأخ قصمتهم المنون، تؤازره أم مكلومة اسمها «إياح حتب» أي قمر الزمان، فقدت حبيبها فخاضت المعارك من فوق العربات خلف بكريها، ضد رعاة الشمال، تسترجع قطعة أرض فتعود مستبشرة، تسبقها الأخبار الحسنة، ليتهلل الناس حين يرون موكبها وابنها فيهتفون باسمها «محوي محوي إياحو» أي مرحبًا مرحبًا بالقمر، ثم تقتال بكريها فتخرج «إياح حتب» للناس بريها الأرض

وعقد الفيروز. تبتسم بعينين دامعتين، تحمل اللوتس وتفرق أقماع العطور، وتضع ابنها في قبره، ثم تلتفت لأخيه الأصغر فتضع التاج على رأسه وتأمر الناس بالدعاء، من القلب.

لم يكد الحاجب يقرأ الرسالة التي أتته من الحراس حتّى خرج إلى الطرقة التي تنتهي بغرفة الملك، سار على البلاط الأملس حتّى بلغ الباب فطرقه مرتين، التقط صوت السلاسل تكبل عنق الأسد ثم أذن له بالدخول ففتح الباب وكان الملك يفحص أنياب الوحش الرابض.

. لقد أمسك الحرّاس بعين من أعين الرّعاة.

دون أن ينظر إلى حاجبه أجاب:

. ائتني به.

. هُنا؟

. نعم، فربّما رغب الأسد في وجبة تُخفف ألمه.

حين انفتح الباب عن الأسير هاله المشهد، الملك الذي يتردد اسمه في هوارة يجلس القرفصاء ليُداعب أسداً هائل الحجم داكن اللبدة غزيرها، لم يبدُ كما وصفته رسُل الجزية، فهو متوسط الطول خمري البشرة واسع العينين كثيف الحاجبين رقيق الشفاه، وشعره أجعد قصير. فرغ من فحص أسنان الأسد ثم التفت إلى الأسير المُكبّل، تأمّله للحظات طالت ثم أمر حراسه والحاجب بالانصراف.

. ما اسمك؟

. موسى بن عمران.

. من أين جئت؟

. من هوّارة.

- تتكلم الجيبتية بلكنة أهل البلد!

- تعلّمت الحكمة في معبد «أون».

- ما الذي أتى بك إلى واست؟

- جئت إلى واست، رسولًا.

قام الملك من رقدته فاقترب بيد تقبض على طوق الأسد:

- لا يكفّ الخنزير عن مُفاجأتي، يقتل أخي ثم يبعث الرسل بالشروط.

- لستُ برسول من فرعون، بل أنا رسول له.

- رسول له ممن؟

- من راعي السماوات والأرض.

حكّ الملك ذقنه ثم ابتسم:

- هل تعرف عدد أسنان الأسد؟

نظر إليه موسى ولم يُعقّب. قبض أحمس على فك الأسد ففتحه ثم أردف:

- للأسد ثلاثون سنًّا. تلك الأنياب الكبيرة يقبض بها على فريسته، يخنقها حتّى الموت ويُمزق لحمها، وتتولى تلك القواطع اختراق الجلد وتقطيع العضلات وفصلها عن العظام، ليبتلع اللحم في كُتل كبيرة، فلا وقت للمضغ، لأن الضّباع ستتجمّع، والنّسور ستتهافت. عادة لا يأكل الأسد إلا حين يجوع، لكنه يميل لنهش العظام وتكسيرها إن كان في أنيابه ألم.

- لست رسول الراعي إليك، بل لفرعون، ملك مصر.

نظر إليه أحمس ثم هز رأسه:

- لم يعُد للصبر احتمال.

ترك الطوق. ارتعدت فرائص موسى حين تحرك الأسد تجاهه بهدوء، عابسا متألمًا يكز أسنانه ويُصدر زئيرا مكتوما.

- لا زلت تصر على أنك رسول الراعي؟

- أمهلني.

- الأسد لا يُمهل.

ودوّى الصوت في صدر موسى.

- أغمض عينيك.

سحب موسى نفسًا طويلًا ثم أغمض عينيه. اقترب الأسد حتى بات على بُعد ذراع منه، ثم توقف، ثنى قائمتيه الخلفيتين وألصق صدره بالأرض وسط دهشة أحمس الذي صاح في وحشه:

- انهض.

لم يستجب الوحش. أمال رأسه في استرخاء وسكن إلا من تنفس يخفض بطنه ويرفعها. نظر أحمس لموسى الذي فتح عينيه وأخرج يده من جيبه بيضاء مضيئة.

- أرجو أن يكون ذلك مقنعًا لك فتصغي.

واستمع أحمس خاشعًا لكلمات موسى بعدما ربط وحشه وهدأت أطرافه. لم يقاطعه ولم يعارضه، حتى سكت. أطرق برأسه إلى الأرض ثم نظر لضيفه وقال:

ـ يا خادم الراعي، ما قلته جد خطير.

ـ على يديك قد تكون بداية النهاية.

ـ لكن! لماذا الآن؟ ولماذا أنا؟

ـ لا يظهر الراعي إلا إذا تجهز الطالب للعلم واشتاق إليه، وما جئت إليك إلا لمعرفتي بسيرة أبيك وأخيك، والانتصارات جندك المُتوالية على ملك الرعاة

ـ كم نفسًا في قبيلتك؟

ـ ستمائة وخمسون شابًا في سن الجُندية، وألف وأربعمائة ما بين النساء والشيوخ والأطفال.

أطرق برأسه للأرض ثم سأل:

ـ هل أمرك الراعي بزيارتي؟

ـ إنما عليّ التدبير وعليه المُباركة.

قام أحمس فمشى حتى الشرفة، فتحها وخرج فتبعه موسى. أشار أحمس لمدينة المضاءة بالشموع:

ـ عند تلك المدينة توقّف جُند الرعاة، مات من شعبها الكثيرون حتى لا يتقدّم «ساليتيس» فيسحق البقية الباقية من الصَّعيد، ثم ضيّق الأمر على أعناقنا حتى رضخ الآباء لجزية الأرض، واتفقنا على السلام حتّى ترجع إلينا القوة التي فقدناها، ثم رفض أبي تسديد خراج الأرض، ناوش الخنزير فاختبر قوّته ثم هاجم بجيشنا بعد عقد تحالف مع مدن الجنوب، لكنه قُتل، بيديْ تلك وضعته في التابوت مشجوج الرأس، فاقدًا عينه مُشوّهًا. فتح أخي كامس شفتي أبينا بالخطّاف ليتكلّم في السماء، وتولّى من بعده المُلك سنوات، ثم قُتل غدرًا. هل تظن أن في الأمر اختيارًا؟ فالأم مكلومة والقلب محزون، والناس يسيرون في الأرض بين الوجوم واللّهف، يكاد قلبي يتوقّف عن النبض ورئتاي عن التنفّس حتّى أعود برأس فرعون إلى «واست».

- ما مدى استعدادك؟

نظر إليه أحمس ثم ابتسم:

- تعال معي.

قرب إسطبلات الخيل أخرج الحراس عربة حرب، تأملها موسى في إبهار حين مسح أحمس على ظهر الحصان:

- عدم توافر الخيل واحتكار هوارة للبوابة الشرقية لإيجيبت دفعنا لتقليل قوة عرباتنا من ثلاثة خيول لاثنين، مما أجبرنا على تقليل عدد الراكبين من ثلاثة رجال إلى اثنين، على أن يقوم السائق بدور حامل الدرع ليتفرغ الرامي لعمله. باتت العربات أسرع وأخف، وأقدر على المناورة والالتفاف، خاصة بعدما استبدلنا الألواح الخشبية الغليظة بألواح رقيقة تنثني بالحرارة، ثم دعمنا الجدار الخارجي للعربة بطبقة رقيقة من البرونز، ومؤخرًا استبدلنا الحربة بالقوس المركب. باتت الرميات عالية السرعة بعيدة المدى، تصل إلى أربعمائة ذراع، تقضي على العربات المعادية قبل أن تصل إليها. ثم بدأنا في تطوير صندوق الركوب، لم يكن ثابتًا أثناء الركض في الأراضي الوعرة بما يسمح برمي السهام، لذا حركنا محور العجلات من منتصف صندوق الركوب إلى مؤخرته بحيث يقع مركز ثقل العربة الجديد هنا، بين المحور والخيل، وهو ما زاد من ثبات العربة تحت رامي السهام. بقي لدينا أمر أخير، فصلنا العجلتين عن المحور الخشبي بحيث تتحرك كل عجلة بشكل مستقل عن الأخرى، تمتص الصدمات وتقاوم الوعورة.

أطلّ الانبهار من عيني موسى:

- انتقلتم من الدفاع إلى الهجوم بذكاء!

- المضطر يعبر البحر سباحة. لقد أقسمت يوم قتل أخي أن أوتد أطراف فرعون بلبوصًا.

- ماذا تعني بلبوصًا؟

- بالجيبتية تعني عريانًا كما ولدته أمه.

ضحك موسى ثم أردف:

. احرص على سرّية الزيارة، فبعض اللحظات الفارقة لا تأتي في العُمر مرّتين.

. هذا صحيح، بقي أن نختار وسيلة تواصُل.

. موعدنا السبت، وحين تتأهب، سأعرف.

هزّ أحمس رأسه موافقا ومدّ يده بسلام، نظر موسى إليها فأردف أحمس:

. ذلك سلام الجيبتيين.

وضع موسى يده في يد أحمس مبتسمًا فشدّد عليها ولم يعقّب.

قبل الفجر بساعات تسلل نصف بني إسرائيل في جماعات صغيرة كما تسللوا يوما خلف جند أول ملوك الرعاة إلى أرض الفيروز، تاركين خلفهم من لم يؤمن بدعوة الأخوين. يحملون أمتعتهم وأطفالهم، وصررًا صغيرة تحوي ما كنزوه تحت أخشاب الأرضيات وفي شقوق الحيطان. خرجوا عبر خرق ضيق فتحوه في الجدار العازل لخرائبهم، ثم اتجهوا شرقًا. يتلفتون خلفهم ويتربصون المتطفلين، متحاشين حراس القصر والأعين التي لم تنم، حتى بلغوا حدود هوارة فخطب موسى فيهم بأن الطريق طويل، وأن الراعي يسير معهم، وأن يتوقعوا الشر من فرعون فلا يتراخوا أو ييأسوا حتى يخرجوا من أرضه. رفع الشباب أيديهم مؤمنين ورمقه الشيوخ بشك. كان ذلك حين وصلت الأنباء فرعون. دخل هامان القصر فأحدث جلبة.

ـ أتيتك بالبشرى، لقد خرجوا.

ـ من الذي خرج؟

ـ المنبوذون.

كزّ فرعون على أسنانه في صمت وصعد الدم إلى رأسه، توقف عقله عن التفكير فتحجرت عيناه وتيبست أطرافه إلا من أصابعه، يداعب بها شعر ذقنه الكثيف والحلقات النحاسية فيه. تأمله هامان ثم قال محاولًا كسر شروده:

ـ تخلصنا من الجذام والأحقاد، لم يعد علينا حصارهم أو تحجيمهم، لنحرق خرائبهم ونورث أرضهم قومنا المخلصين.

. تخلّصنا من الجُذام والأحقاد، لم يعد علينا حصارهم أو تحجيمهم، لنحرق خرائبهم ونورث أرضهم قومنا المخلصين.

أجاب فرعون بعد صمت:

. أرسل في المدائن فاحشد الجند من كل قبيلة.

. نحشد جندنا للمنبوذين؟ إنهم لشرذمة لا يتخطون الألفي نفس. ستبتلعهم الصحراء؟ أو يقضي عليهم الفلسطينيون إذا عبروا إليهم أحياء؟

ضرب الشّباط أنف فرعون:

. شرذمة يريدون أن يسخروا مني، قد يستعينون علينا بقوم آخرين. سنتبعهم، ربما نجد الفرصة فنقضي عليهم في الخلاء. انفخ بوق الاستنفار في القبائل.

خرج هامان فانتفخت عروق الكبرياء في رقبة فرعون. قام لخزانته فارتدى درع الحرب وخوذة العجل الذي تمثل قرونه هلال ربّ القمر. التقط فأسه وقوسه ثم خرج يضرب الأبواب والجدران ويصرخ في الحرس ليحشدوا الجند من قبيلته وجند القبائل المجاورة ويعدّوا الخيل. اعتلى عربته فتراصوا خلفه استعداداً. قبل أن يصيح صيحة مدوية ويضرب ودك الحصان.

كان ذلك حين شارف موسى شاطئ البحر. أشار بيده للقبيلة أن تتبعه شمالاً ليلتفوا حول الجبل متجنبين المستنقعات، متخذين الممر الضيّق الذي يفضي إلى الوادي. انحرف السير ما بين شيوخ متذمرين يركبون الحمير، وشباب متحمس يدفع العربات في صمت ويحملون المتاع، والكل في شرود ينظرون لبعضهم بعضاً في تساؤل، ولموسى وأخيه في أمل وشكّ. لم تنس أعينهم الآيات التي أتى بها في ساحة الاحتفال، لكن كيف لعقولهم أن تسلّم بما يقول. كيف يعبدون ربًا لا يرونه؟ ربًا لا يعيش في القمر! ربًا ليس له تمثال ولا حجرا لولا اضطهاد فرعون لهم والعصا التي يحملها موسى لتركوه وأخاه ليصلبا في جذوع النخل، ثم يمروا عليهما فيسترقوا النظر ويذكروا عيوبهما، ثم يطرقوا برءوسهم أرضاً ويغضوا البصر، كما يفعلون كلّما ذبح فرعون

من قطيعهم شاة.

بعد دقائق من الانحراف جنوبا لاح الفتى المتأخّر. شاب له ساقان خفيفتان يمشي في مؤخرة الرَّكب ليَطلعهم على من يتبعهم. شقّ الصفوف بأنفاس متهدجة حتى وقف أمام موسى.

. فرعون وهامان وجنودهما يتّبعوننا بالخيل والعربات.

. كم تبعد المسافة بيننا وبينهم؟

. ساعة.

انتشر الخبر في لحظات فسار الارتباك في نفوس القبيلة وعلت الهمهمات. ثم رفع كبير العشيرة صوته

. هذا ما حذّرتكم منه. لن يهدأ بال رأس العجل حتى يُحاصركم فيذبحكم ويُلقي بأجسادكم إلى البحر.

صرخ موسى:

. اخرس يا عبد الطاغوت.

استنكرت الأعين وهزّت الرءوس فأمسك هارون بعضد أخيه وهمس:

. اهدأ يا موسى. ذلك كبير العشيرة

ارتفع صوت من بعيد:

. لنُسلّم أنفسنا إليه ونُبدي الندم لعلّنا نرجع إلى منازلنا.

وصوت آخر:

. بل يتقدّم الأخوان فيقابلان فرعون ليصدوا عنا الأذى.

تعالى أوار موسى غضباً وثقل لسانه

ـ إن نطق أحدكم باليأس، سأسلط عليه ثعبان الرب فيلتهمه. ما لكم ترضون بالذل وتذعنون لشياطينكم؟ من لم يؤمن بالراعي الذي أخرجه فليعد إلى الخرائب. وليقبل أن يُقتل أبناؤه وتستحيي زوجته لتخدم فراش فرعون.

ضرب الصمت أبناء القبيلة. ينظرون لموسى والخوف يتسلّق سيقانهم ويعبث بالقلوب. بدأ البعض في حمل أمتعته وبكت النساء في عويل وعفرن بالتراب رءوسهن. صاح كبير العشيرة:

ـ اليمُّ عن يمينكم، والبحر أمامكم. أمّا ممر الجبل فيلزمنا يوم لنعبره. لتسألوا رسول الراعي أين نذهب ما دمتم نصدّقونه.

همس هارون في أذن أخيه:

ـ ماذا سنفعل؟ تكلّم يا ابن أم. إن شيوخ القبيلة يبثون الفرقة ويُمزقون القوم. لنأمرهم فيحتموا بالجبل ولننتظر أنا وأنت. لتلق عصاك أمامه ولتخرج يدك لعلّه يتفهقر.

نظر إليه مُوسى ولم يُعقّب، ثم أعرض وابتعد مُوليًا وجهه للبحر. ناداه هارون ولم يلتفت فرجع إلى الجُموع مُحاولًا بث الصّبر في النفوس:

ـ يا قوم، كُنتم تتمنون زينة قارون وداره، وها هي قد انخسفت في الأرض وغارت به وبكنوزه كأن لم تغن بالأمس؟ ألم يكن منكم قبل أن يُكذب علامات الرّاعي؟ طغى وتكبر واتبع سبيل الجنون. هكذا فعل الآباء يومًا. قوم عاد وثمود وأصحاب الشجرة. أين هم الآن؟

علا صوت:

ـ تفتأ تذكرنا بالبائدين وفرعون يقترب بعرباته!

التفت هارون لأخيه الشارد في البحر كتمساح ميت. مُغمض العينين لا يلتقط همهمات ولا عويلًا. لا نداء استغاثة ولا صياح شيوخ العشيرة. فقط صوت الموج الهادئ يضرب أذنيه في رتابة. ينتظر وينتظر. في سكون عجيب لم يختبره من قبل. سكون من لم يعد يعبأ أو يخاف. سكون من أيقن الموت واستعد لاستقباله. فاقدًا

الإحساس بالوجود من حوله لا يشعر إلا بقدميه المغروستين في الرمال ويديه القابضتين على العصا، العصا التي ستستحيل ثعبانا وتهرب إلى البحر حين يأتي جند الملك «يا ليتها تبتلعني أو تلدغني». كان ذلك حين شعر بيد تلامس كتفه فانتفض. التفت فرأى مريم تمد يدها بتمرتين:

ـ كُنت تطلب التمرات حين ينتابك الحُزن.

هز رأسه في ألم:

ـ جسدي يفور يا مريم، لم ينتبني يومًا غضب كغضبي على هؤلاء اليائسين.

ـ أفتهم أنفسهم، أورثتهم المهانة لؤمًا وخسةً ودناءة. لكن، عليك الآن أن تقرِّر أمرهم. فكلمات هارون لم تعد تؤثر أو تصد الكائدين.

فجأة تعالت الصرخات واضطربت الجموع. الغبار تصاعد في الأفق خلف عربات تهرس الأرض هرسا. قالت مريم:

ـ إنا لمُدركون.

نظر موسى للسماء وهمس:

ـ لا تتركني.

فجأة شعر بنبض قلب يضرب عصاه. يهزها، التفت للبحر وسط الهلع والركض. سمع الصوت فانصاع دون تردد، خاض المياه المالحة حتى منتصف جسده. نادته مريم فلم يستجب، ركض هارون ناحيته ليجذبه، كان ذلك حين رفع عصاه عاليًا، وهوى بها على رأس موجة تقترب.

وانفلق الماء بين قدميه في هدير صمَّ الآذان، تباعد كأن سكينًا خفية تشقه شقًا لتنكشف الرمال والقواقع والأحجار. التفتت القبيلة فخرست الأصوات واحتبست الأنفاس. الشق يزداد اتساعًا، حائطان من الماء جرت الأسماك فيهما، لم يملك فمًا ليتكلم أو عينا لترمش. الثعبان بدا لُعبة أمام ذلك السِّحر العظيم. بلغ حائطا

للقبيلة ينظر في وجوه حيّرها الروع، بدت عربات فرعون أقل رهبة في النفوس، يرمقون الماء بأعناق تلوّت، حتّى صرخ فيهم موسى:

- سنعبُر البحر، من هنا.

ساد الصّمت لحظات قبل أن ينبق أحد الشيوخ:

- ما أتيت به شيء عظيم، لكن، أتأمرنا أن نخوض بحرا؟

- بل يأمركم الراعي، إن كنتم له مؤمنين.

وقال آخر:

- ألا ننتظر؟ ربّما سقط علينا الماء؟

نظر موسى لهارون الذي تبلل جسده ولمريم التي بكى أطفالها ثم رفع صوته:

- سأسير في طريقي، من أراد أن يتبعني فليفعل، ومن لم يرد فليبق ليواجه رأس العجل.

تبادلوا النظرات ثم تلفتوا حولهم ينظرون لغبار صار عاصفة.

على بُعد ساعة كان فرعون يتقدّم العربات، تشد يمينه لجام ثلاثة أحصنة هوجاء، في يُسراه خنجر، وفي فمه كلمات تخرج من بين الضروس: «طفح الكيل. أقسم أن أغمد ذلك النصل في قلب المتلعثم على مرأى ومسمع من قبيلته المنبوذة، قبل أن أبقر بطونهم وأوتد أطرافهم في الأرض ثم أحرقهم أحياء. شرذمة رعاع يقودها ساحر مجنون تَشمت بي القبائل وتلبسني لباس المهانة والتحقير! لأجعلنهم عبرة للقبائل ليعرفوا من هو ربهم الأعلى، وليعرفوا أن الأحلاف لن تتفرق. الأرض أخذناها بشرف وكانت صحراء جرداء، ثم مصّرناها فجعلنا فيها سكنًا وزرعًا وحصنًا وتجارة، مصرًا تتحاكى بها أمصار البلاد. الآن يُريدون أن يعودوا بنا للبدو؟ لتتحكم معيزهم وخرافهم؟

ثم أشار لهامان وكان في عربة تجري بجانبه فجذب لجامه يمينًا فاقترب، رفع فرعون صوته:

. خذ وجُندك ناحية اليم وسأحاصرهم من ناحية البحر في كمَّاشة، ولا يمسن أحد الفتى.

هزّ هامان رأسه ورفع علمًا صغيرًا فيه رسم تمساح فاغر فاه، ثم انحرف بعربته يسارًا فتبعه جُند قبيلته في ذراع ستقابل ذراع فرعون بين البحر واليم.

في تلك الأثناء كان موسى وهارون ومريم بأبنائها قد خاضوا أرض البحر، ساروا فوق الصخر الناعم مُتّقين قدر الإمكان الانغراس في الرمال المبللة، أول من تبعهم كان الشباب، ساروا بحذر يتجنبون لمس حائطي الماء، ثم تبعهم الناس بتردد، وكان آخر من استجاب الشيوخ فوق عرباتهم المجرورة، لم يكن من الصعب إدراك الشاطئ المواجه، ففي تلك البقعة يضيق البحر في قناة صغيرة قبل أن يصب مياهه في اليم، أخذت رُءوسهم تتلفت بين الشرق والغرب، بين جبال الشاطئ الآخر وغبار عربات فرعون، وأصوات طبول يضربها جيشه ترويعًا، لم يتخلف أحد عن اتباع موسى ولم تملك العقول حلًا آخر حتى وإن كان رسولهم مجنونًا، حين بلغوا نصف المسافة وصلت عربة فرعون أمام البحر المشقوق، هاله المشهد وجنوده ورفعت الخيل قوائمها في خوف وفزع، نظر لهامان الذي اقترب بجنده قبل أن ينزل عن العربة، لامس الماء الصاعد بأصابعه ثم صاح ليسمع فرعون:

. جعبة ذلك الفتى لا تنتهي.

أطرق فرعون للأرض برأسه وكزّ على أسنانه:

. أرسل جُنديين، إن عبرا بسلام فسنتبعهما.

أشار هامان لجنديين فوق عربة فاقتربا:

. استكشفا الأرض.

نظر الجنديان إلى بعضهما البعض بتردد قبل أن يقول أحدهما:

تلقى الجندي طعنته في الرقبة فسقط بين قدمي هامان الذي التفت للآخر

. هل عليّ أن أكرر كلماتي؟

تقدم الجندي مرتعشًا صوب الماء، دلف إلى الشق في حذر، سار فوق الأحجار متجنبًا الرمال المبللة، يتلفت خلفه فيرى وجه فرعون فيهرب بعينيه إلى الأمام في روع، حتى ابتعد لمسافة أربعين ذراعًا فنظر هامان لفرعون:

. لا آمن مكر السّاحر، ولا آمن الأرض المَبللة.

. داهمك الجُبن أم نال منك ابن الخرائب؟

. بل العربات ثقيلة برجالها والخيول مُنهكة.

. لينزلوا عن العربات فيسيروا بجانبها.

. لم لا نلتف خلف اليم فنلحق بهم.

. ستتحاكى القبائل بأني خفت خوض البحر وراء المنبوذين.

. هذا خير من أن يطبق علينا الماء فنصير حكاية شعبية.

. إن لم أتبع هؤلاء المجذومين فلن أعبد في تلك الأرض أبدًا.

نظر فرعون للبحر في وجل حين تعالت أصوات جنده وتوترت الخيول، اتخذوا وضعيات دفاعية وضيّقوا انتشارهم حين شق الصفوف جندي كشّاف، اقترب فقفز من فوق حصانه والجروح تملؤه والتعب، نطق بأنفاس مقطوعة:

ـ عربات الجيبتيين اجتاحت هوّارة، حرقوا الحصون وجاسوا خلال الديار، تصدّت لهم بنو «الأزرق» وبنو «عبدين ضخم» وبنو «قطران» فأسروا منهم رجالًا وقتلوا الكثير.

نهش الغضب ملامح فرعون:

. من قائدهم؟

. ملك الحيثيين، أحمس. ترك قواته في المدينة وخرج بجيش من العربات قاصدًا اللحاق بنا.

نظر فرعون في الأفق فلمح الغبار. نفس الغبار الذي أثاره جنده منذ ساعات، ثم ميزت عيناه العربات والخيول، وميزت أذناه زئير أسد. نظر فرعون لهامان في هلع ثم نفخ صدره وصرخ:

. خيانة. إلى البحر. إلى البحر.

قالها وقفز فوق عربته. ضرب الخيل فصهلت وتحركت، تكاد تطير من غضب آمرها وخفة العربة بعد أن أسقط منها الرامي وحامل الدرع. ثم تبعه جُنده وهامان ومن ورائه جند قبيلته. كان ذلك حين شارف موسى الشاطئ المُقابل للبحر وكان أول الخارجين في سلام. التقط يد مريم وحمل عنها أطفالها، ووقف هارون ليُساعد الشيوخ والنسوة في الخروج. في تلك اللحظة كان أحمس فوق عربته طائرًا، يُراقب مُؤخرة جند فرعون يتزاحمون أمام شق بالبحر لم يرَ له من قبل مثيلًا. ملأه التساؤل وراودته نفسه أن يُبطئ فيُرسل كشافًا ليخبره بما رأى، لكنه تذكر مقابلته برسول الراعي، وتذكر ما قاله وما فعله من الآيات، فرفع شعار أبيه وأخيه على الأعلام وضرب أوراك خيله مُرددًا:

. بعض اللحظات الفارقة لا تأتي في العُمر مرّتين.

كان جُند فرعون قد بلغوا مُنتصف المسافة حين وصلت عربات أحمس أمام شق البحر. رفع شارته فتوقفت العربات. نزل بين ذهول جنده فلامس الماء الصاعد. اقترب مُساعده:

. ماذا ترى؟

. أرى أن ننتظر هنا. فالنزاع لم يعد بين رجُل الرب ورجُل العرش. لقد تدخّل الراعي.

يأكله:

. ماذا تنتظر؟ اضرب بعصاك البحر فيصير الماء حائلًا بيننا وبينهم فلا يصلوا إلينا.

همّ موسى بضرب عصاه حين تلقى الكلمات:

. اترك البحر على حالته.

أنزل موسى عصاه وهزّ رأسه نفيًا فنظر إليه هارون وقد أدرك أن الرّب قال كلمته. اقترب رجال القبيلة يتقلون أبصارهم بين جيش فرعون الذي خاض الماء وراءهم، وموسى الذي أمرهم بالابتعاد عن الشاطئ. لم أخذهم الهلع فركضوا حين لاحت عربة فرعون، يضرب خيلها بقوة وفي ملامحه الرُّعب والغضب يتصارعان:

. يا ابن أم، إن خرج من البحر فسيأكل لحمنا أحياء.

. رأس العجل دخل البحر صاغرا. لقد حصر فتى واسيت.

. أتعني أن هوارة...؟

. سقطت، إن لم يعبر فرعون البحر فلن يعود لمدينته.

. اضرب البحر إذن كي لا ينتقم منّا.

. لن أدعه يقول إن موسى فرّ من مواجهتي.

. سأبقى معك.

. بل اذهب فطمئن القبيلة واعتنِ بالضعفاء.

هز هارون رأسه ثم ابتعد. كان ذلك حين رفع فرعون قوسه وسدد سهمه نحو صدر موسى، فجأة ضربت عجلته صخرة قاسية فانكسرت وانقلبت العربة وسقط الخيل بعضه فوق بعض. تدحرج فرعون فوق الرمال قبل أن

يقوم وقد أصيب بجرح في خده وانكسرت قوسه. ألقاها تحت قدميه واستل خنجره في غل واقترب. بات على بعد عشرين ذراعًا من موسى.

- ألق عصاك ولتواجهني رجلًا لرجل.

نظر إليه موسى وابتسم، ثم ألقى عصاه. فجأة ارتجت الأرض وارتفع هدير المياه، ثم انهمر الماء من حول فرعون فاختلط صريخ الجند بصوت تكسير العربات بصهيل الخيل. نظر خلفه فهاله المشهد، حوائط الماء تتكسر وتتساقط. أفاق فركض نحو موسى والهلع يملؤه، قبل أن تضربه موجة عاتية فتطوي جسده.

☥

☥

☥

حين عاد البحر لحالته وهدأ الموج خرج بنو إسرائيل من خلف الجبل وحاذوا شاطئ البحر شمالا حتّى وصلوا إلى مصبه في اليم، متبعين اتجاه الموجة الهائلة. العربات المحطّمة والخيل الغارقة والدروع كانت تزاحم الجثث الطافية، منتفخة، منبسوطة الذراعين، أعينها بيضاء ولحمها متهتك، وقفوا لدقائق ينظرون لبعضهم غير مصدّقين، قبل أن يهمّ الفتية بالبحث عن الملك؛ فرعون. انقضت الساعات في فحص الجثث وإخراجها لانتزاع ما يمكن انتزاعه منها، قبل أن يصرخ أحدهم حين عثر على جثة هامان. أخرجوه فجردوه من ملابسه وأسلحته، فقئوا عينيه وقطّعوا خصيتيه قبل أن ينهاهم هارون عن العبث بالجسد لأنه عهدة الرب، علقوه من قدميه في جذع نخلة ثم شرعوا بالغوص بحثًا عن فرعون، جلس موسى على صخرة يتأمل قومه وما يفعلون حين أتاه هارون فجلس بجانبه صامتًا حتى تكلم.

- الشباب يصارعون النّهار للعثور على جثته، لكن اليم بعيد القعر، أما الشيوخ فيقترحون العودة إلى هوارة حين تتأكد أعينهم من موته.

- هؤلاء المخابيل! كيف نعود وقد أمرنا الراعي بالرحيل عن أرض الجيبتيين؟

- ماذا عن باقي القبائل؟

- سقوط هوارة سقوط لكل القبائل، مسألة وقت أن نبقى في تلك الأرض.

- ماذا عنّا؟

- سنكمل مسيرتنا مع شروق الشمس و...

بتر موسى كلماته شروداً، عيناه كانتا تراقبان فتى تجمّع الناس من حوله:

- من هذا؟

- أحد أبناء سامر، أمه من بني إسرائيل، يحفظ كلماتك ويقلّد نبرة صوتك ويتبع خطاك.

- ماذا يفعل؟

سأل موسى ولم ينتظر جوابًا، نزل من فوق الصخرة فاقترب، الفتى كان يخطب في الجمع بغضب والوجوه من حوله بين مُصدّق ومُستنكر:

- تلك زينة تحمل اللعنات، سيصهرها الرّب ويصبها على رءوسكم...

- ماذا تقول أيها الفتى؟

تفرق الجمع احتراماً فوقف موسى أمام الفتى الذي انحنى ثم سجد على الأرض:

- سيدي، كليم الراعي، أسجد إليك تبجيلًا و...

قاطعه موسى:

- قُم يا فتى، ماذا تفعل؟

جلس السامري على رُكبتيه:

- إن القوم حين حزموا أمتعتهم ليغادروا هوارة، لم يردوا الرهونات إلى أصحابها، ولم يعيدوا زينة القبائل التي أمنوهم عليها للصهر والتصنيع أو التخزين، حُليًا وأساور من الذهب وأحجارًا...

قاطعه موسى:

- ثم؟

- إنما أحثهم على دفنها في هذه الأرض المباركة هبة للإله فيباركنا ولا تلحقنا لعنة.

أشار موسى للناس أن يتفرقوا وجذب عضد الفتى مبتعدًا عن الآذان:

- كيف تتقول على الرب بأنه يتلقى الهبات ليجنبنا اللعنة؟ أأخبرك الرب بهذا أم تجتهد فيما لا تعلم؟

- إن الذهب الذي نحمله ملعون، زينة الطغاة الذين تبعوا الملك. وما حدث لقارون وقصره خير دليل، إن كان قدّم للرب قربانًا أو...

جذب موسى قميصه بغضب وهمس في أذنه:

- من أنت لتتكلم باسم الإله؟

- أنا...

- اخرس واسمع. نحن في موقف عصيب، هؤلاء أناس هجروا ديارهم وعبروا بحرا، وهناك جيش من الجيبتيين يقبع خلف ذلك الجبل، وأنت تريد أن تحدث صدعًا!

- يجب عليك معاقبة من حمل وزرا بغير حق.

- ليس ذلك من شأنك.

- لكنك كليم الراعي ورسوله، والرب لا يقبل أن.

صرخ موسى:

- لا تتكلم بفم الرب.

ودفع الفتى فأسقطه أرضًا. ساد الصمت لحظات نظر فيها موسى لكفّيه فتذكر ما فعلته منذ عشر سنوات، ثم نظر للناس الذين تابعوا الموقف حين اقترب هارون فهمس:

- يا ابن أم، إن القوم لم ينسوا.

قاوم موسى غضبه حتّى زفر نفسًا حارًا، ثم هم بالرحيل فأحاط الفتى السامري بساقيه مُحتضنًا ورفع صوته:

- امنحني شرف لقاء الرب على يد كليم الرب.

فك موسى أصابع الفتى من حول ساقيه وهمس:

- اغرُب عنّي.

كان ذلك حين ارتفع صوت:

- وجدتُ خوذة العجل.

ركض هارون ناحية صاحب النداء فاستدركه موسى:

- أخبرهم ألا يمثلوا بالجسد حتى نتأكد أنه هو.

في أقصى اليم شمالًا، عند مدخل كهف مظلم يقع على بُعد خطوات من الماء، تجمّع الناس حول الفتى الذي يحمل خوذة قرني العجل، خوذة فرعون. وصل موسى فأشار الفتى لخوذة ولقوس ولدرع ثقيلة تحمل شعار رأس العجل، ولخطوات على الرمال تنتهي عند المدخل. تحفّز الناس وهللوا قبل أن يأمرهم موسى بالتزام الصمت، اقترب من المدخل المظلم ورفع صوته:

- يا فرعون.

انتظر لحظات ولم يتلقّ إجابة فرفع صوته:

.أظهر نفسك وسأضمن لك الأمان. لا عاصم اليوم من الرب ولا مفر.

مرت اللحظات فتأهب الفتية كالفهود الغشيمة يريدون الفتك به. نهرهم موسى بيديه وجحظت عينا هارون فيهم فتراجعوا:

.إن لم تخرج فسيدخلون إليك. لن أملك مُساعدتك.

لم يتلق إجابة فطلب الشيوخ حرق الكهف وهدد الشباب بالطعن والتمثيل. رفع موسى عصاه ثم صاح فيهم:

.سأدخل إليه، وحين أخرج لن يمسه أحدكم بسوء حتى يقرر الرب أمره.

اقترب هارون:

.فرعون يعرف كيف يضرب بالسيف.

.لقد ترك قوسه فلن يصيبني عن بُعد. أما السيف فقد تربيت على يد معلمه الذي علمه القتال.

قالها موسى ثم سحب من حزام هارون خنجره. اقترب من مدخل الكهف وسط الترقب والفضول. ثم دلف في حذر. سار خطوات ثم رفع صوته مناديًا:

.لقد سقطت هوارة في يد الجيبتيين. لم يعد لك ملجأ إلا بيننا. أعطيك الأمان لتخرج معي في سلام. هذا عهد بيني وبينك والرب الذي لم تؤمن به شاهد.

تلقى موسى صمتًا. لا شيء يعلو فوق صوت قطرات ماء تقطر من السقف. أردف:

.خير لك أن تعلن عن نفسك من أن يُخرجك الفتية. جثمان هامان معلق على جذع نخلة.

تقدم موسى خطوات فأحاطته الظلمة. تحفزت يداه على العصا والخنجر. ثم مضى خطوات إضافية:

.إن جيش أحمس قادم لا محالة.

ثم توقف للحظات حين أدرك أن الظلام يخف. عيناه تريان التفاصيل جليّة! تقدم خطوات فازداد يقيناً. النور يتسرب من ثغرة ما. الكهف ينحني لليمين. تزداد أرضه ارتفاعاً. ثم بقعة شمس تضرب الصخر من ثغرة صغيرة. ثغرة تتسع لعبور جسد! اقترب موسى فوجد حزام فرعون مُلقى على الأرض وفردة من صندله. ترك عصاه وقفز فتشبثت أنامله بأطراف الثغرة. تحامل على نفسه فرفع جسده حتّى أخرج رأسه للنور. الكهف كان يُفضي إلى ممر جبلي وعر. ممر يتفرع إلى سلسلة من جبال ومنحدرات لا أول لها ولا آخر. ترك موسى جسده فسقط. سيطر على غضبه ثم التقط عصاه. وحزام فرعون.

خارج الكهف كان أبناء القبيلة متحفزين. اتجهوا إليه ليسألوه فأخبرهم بما رأى. زمجروا كالضباع واقتحموا الكهف يصرخون، قبل أن تخرج جماعة منهم ليتعقبوا خُطاه. كان ذلك حين اقترب هارون فهمس في أذن أخيه:

. بدوي مذعور يركض منذ ساعات. لو كنت مكانه لركضت حتّى بابل.

. لن يعثروا عليه. فهو خبير بالصّحراء. لم ينس يوماً حياة البدو. من دون الجند كلهم ينجّيه الراعي!

. ربما ليقابله الذين كانوا يظنونه إلهاً.

. كلمات حكيمة. لكنها لن تشفي غليل الإسرائيليين.

. علينا أن نمضي في طريقنا. لن يفيد الانتقام شيئاً.

. سأترك لك إقناعهم. وسأتقدم لأقابل ملك الحيثيين.

التفت هارون إلى حيث يشير أخوه فرأى جحافل الجيش الحيثي تتقدم من الغرب.

بين النخيل وبعيداً عن أعين القبيلة وضع الجند كرسيين. ربض الأسد تحت قدمي سيده. الدماء على السيف ما زالت. والضربات على الدرع تركت الآثار.

. تلك أول زيارة للمصر؟

ـ تسللت مع أخي كامس مرات إلى أرض الفيروز. كان يعوّد قلبي على كسر هيبة الرعاة. نتسلل ليلًا فنقتل من يقابلنا من الجند لنترك الرعب في النفوس ثم نعود لواست، إلا أنها أول زيارة لهوّارة.

نظر موسى لجرح في قدم الأسد الرابض فأردف:

ـ وجدت مُقاومة؟

ربت على عنق الأسد وداعب لبدته الداكنة

ـ كنت أعدّه لذلك اليوم. حلم ظل يراودني منذ كان شبلًا. سأدخل به هوارة. وسيبث زئيره الرعب في النفوس. لدى القبائل جُند أشداء لكن قلوبهم غير مؤمنة. اجتحنا مُعظم الحُصون. والبقية تركناها مُحاصرة حتى نعود.

ـ وماذا عن قصر فرعون؟

ـ كان خاليًا من الحراسة حين أتينا.

ـ هل صادفتم ابنته؟

ـ ماتت قبل أن نصل إليها.

وضع موسى كفّيه على فمه قبل أن تنساب دموعه حارة. تحشرج صوته وتهدج نفسه:

ـ هل..؟

ـ قتلتْ نفسها.

عض موسى أنامله قبل أن يتمالك نفسه:

ـ لعنة أبيها لم تكُن لتفارقها.

ـ ليرحمها الراعي. هل وجدتم جثة الثعبان؟

. فرعون نجا من الغرق، أوى إلى كهف فيه ثغرة وضعته على طريق المنحدرات الوعر.

عبس وجه الملك:

. سأرسل في أثره من يأتيني به حيًا. ماذا عنك؟

. كما تعاهدنا، خرجت وقبيلتي من هوارة، وسأكمل طريقي شرقًا حتى يأتيني أمر الراعي.

. لك مني الأمان ولقبيلتك ما دمت في أرضي، استقر كما تشاء ولا تتعجّل الخروج من المصر، فالبدو الشرقيون لن يقابلوكم بالترحاب. سيكفل جندي لكم المؤن وسينصبون لكم الخيام إن أردتم.

. لدينا ما يكفينا، لكني أرجّح الابتعاد عن المصر، فنفوس القبيلة تميل للعودة.

قام أحمس مبتسمًا ومد يده بسلام:

. كما تشاء يا نبي الراعي.

صافحه موسى:

. السلام الجيبتي، لن أنساه، كما لن أنسى صاحب الأسد.

ابتعد موسى خطوات قبل أن يستدركه أحمس:

. يا نبي الراعي، هل تعرف الكتابة؟

. تعلّمتها في معبد «أون».

. ما جعل إيجيبت سابقة للأمم إلا تدوين حياتنا في الصّخر حفرًا.

ثم نظر أحمس لشيوخ بني إسرائيل وهمس في أذن موسى:

التفت إليهم موسى ثم رجع الحمس الذي أردف:

. لا أتنبأ بالغيب، إنما هي أشياء نتعلمها في الصعيد الجنوبي.

قالها ثم ربت على كتفه بابتسامة ورحل، ساحبًا وراءه جيشًا ظفر بعد شقاء.

☥

☥

☥

وضربت الشمس الشفتين الآسرتين.

تنبّهت، رفعت جفنين كسولين فأدركت أنها فوقه، مستلقية في راحة، كأنه سريرها، شعرها المموّج مبعثر على وجهه وأناملها ممسكة بشحمة أذنه. ابتسمت، ثم مسحت لعابًا سال على صدره قبل أن تقوم، داعبت بطنها والعرق الذي اختلط من الملاصقة، ثم تأملته فتنهّدت. كان يغط في خفوت والبوصة بين أصابعه لم تسقط.

- كم هو مليح ووديع!

التفتت ناديا بغتة فرأتها، تستند الباب في سكون لم تعهده فيها وفي شفتيها ابتسامة رقيقة.

- يا وجه الشؤم.

- جئت لأودعك.

- حقًا!

- لم أعهدك سعيدة مثلما أعهدك الآن، فالفرح شبع وامتلأ، والقلب شغف بالعشق، لم تعد هناك ضرورة لوجودي بجانبك، وما أتيتك يومًا إلا لأنصحك.

. غادرك الحقد أم ألعوبة جديدة تفرقين فيها بيني وبين حبيبي.

اقتربتْ منها فالتقطت خُصلاتها، لم تكن يومًا لتقاوم الخدر الذي يسري في روحها حين تضفِّر العاهرة شعرها، وتخمش رأسها بأظافرها، تغمض عينيها في نشوة حتّى ترتعش أصابع قدميها وتخفت الأصوات في أذنيها فلا تسمع إلا صوتها:

. هنيئًا لك الحياة في كنف حبيبك، في مذود للبقر أو في مُستنقع، لا يهم، فالعشق لا يهمه مكان أو زمان، أرجو فقط، أن يصير لك وحدك، فلم تنتظري الأعوام لتظفري بنصف رجل..

. نصف رجُل؟

. نعم، فقلبه معك، وعقله..

وأشارت بأصابعها للبرديات على الأرض:

. إن لم تملئي عقل الرجل كما ملأتِ قلبه، فلن تصيري مليكته، مع غيابات القمر سيسأم رحيق الجسد ، وستفقدين الشّغف الذي ترينه في عينيه، ثم تنبت بذور المُشاحنات فتسقيها بالسموم، حتّى يضيق صدره وصدر الرجال ضيق، وبعد أن كنت الملاذ، بعد أن كنت الحضن الحلوق، الدفء، ستصيرين العبء، ويفسد العشق، ستطئينه بقدميك يا حلوتي دون أن تدري، ثم تظهر من هي أنضج منك ثمارًا، ستجذبه، فقط لأنها ليست أنت، سيثني على طعامها وشرابها، ثم تراود أحلامه، حتّى يملأه الشغف بها، فيقتطفها، ويلقي بذرتك في ركن مظلم كأن لم تكوني.

. وما في بطني؟

. قد يصبح بطنك سبب نفوره، أو انجذابه.

. ماذا عليّ أن أفعله؟

لم تتلقّ ناديا الإجابة، فتحت عينيها ولم تجد عاهرتها، التفتت حولها فلم تعثر لها على أثر، قبل أن تلحظ الضفيرة

بأناملها من تحت ذراعه. نظرت فيها ثم اتجهت لكومة الحطب، بين الرماد كان لايزال بصيص نار، جذوة صغيرة، لكنها كافية لتشعل النار في حروف القصّة العتيقة. ما إن لامست النار البرديات حتّى استيقظت، أكلت بنهم وطقطقت حتّى استيقظ كاي، جلس مقاومًا الدخان الأسود الذي أغشى عينيه. قبل أن يميز ناديا، جالسة القرفصاء أمام الحطب، تمسح بأناملها الفحم المتخلف عن الحطب وترسم على وجهها خطوطًا ودوائر. ما إن أدركت استيقاظه حتّى علت الضحكة وجهها:

. لم أخبرك أنّي أجيد الرسم.

. ماذا تفعلين؟

. دعني أرسم على وجهك وأنت تعرف.

نظر كاي في الحطب ثم تلفت بحثًا عن برديات معلمه فلم يجدها:

. ماذا تحرقين؟

ابتسمت بعينين جاحظتين ولم تجبه. فقط مدّت يدها للكومة الأخيرة من البرديات وشرعت في إلقائها في النار حين قفز من رقدته وبرك فوقها كفهد جائع فوق غزال. ألقى البرديات بعيدًا وثبّت ذراعيها بقبضتيه. الشرر يتطاير من عينيه واللّعاب من فمه، صرخ في غضب لم تعهده فيه من قبل:

. ماذا فعلت؟

. فعلتُ ما هو واجب. أحرقت ما يقف بيني وبينك، ما يحجب العشق ويبطل الشغف.

. أيتها الملعونة. كيف تسول لك نفسك تقرير مصيري.

. أنا لا أقرر مصيرك، إنما أحمي عشقنا، أحمي ابنتنا.

. بأن تحرقي ثمرة يديّ!

- ولو أحرقت الدنيا بمن فيها.

- لقد مسّك الجنون.

صرخ ثم قام فوضع يده في النار غير عابئ باحتراقها، التقط البرديات فتفتتت بين أصابعه هباءً منثورًا، أغمض عينيه في حزن ثم فتحهما فنظر للبرديات التي أنقذها من يد ناديا، كانت بردياته المترجمة، عدا الجزء الذي سهر لأجله أمس، الجزء الخاص بخروج الرعاة. لملم بردياته وحزمها قبل أن يدسها في ملابسه، نظر لناديا في غضب مكبوت ثم خرج من المذود في خطوات واسعة واتجه جنوبًا. قامت ناديا فاتبعته عن بُعد، مغرورقة عيناها بالدموع ومعصورًا قلبها بالحزن والندم، تهمس في سرها ولا تجد إجابة:

«ما الذي فعلت أيتها الخرقاء؟ لو مكانه ما عُدتُ إليّ، ما وثقت فيّ؟ يا لها من طبيعة، طبيعتي، أثور حتى أحرق الفرق والزرع، لا أملك لنفسي ردعًا أو تحويلًا، ثور أعمى وُخذ بسكين في كبده، ثم أهدأ فأدرك، أني قد أشعلت النيران في أحب من عرفت، ثم تتكشف الأسباب أمام عينيّ كأني امرأة أخرى، أعرف، أعرف أن الفتاة البيضاء لم تكن لتثيره، أعرف أنه مخلص في عشقه فالأعين لا تكذب، ربما هي أثارتني أنا؟ نعم، ففيها ما كان فيّ يومًا، كان لي بيت وأم وأب، كنت فتاة مدللة قبل أن أصير عارفة إليوسيس، كنت فتاة عادية، لها حلم واحد برجل ناضج مثل كاي، حلم يتبدد الآن أمام عينيّ كدخان البرديات التي أحرقتها.

صفعت نفسها مائة مرة، ومزّقت أشواك الزروع بأناملها حتى أدمت نفسها، تسير وراءه ولا تجرؤ على الاقتراب، تنظر حولها بحثًا عن العاهرة التي دفعتها من فوق الجبل، حتى علا نحيبها فتوقفت وتوقف، هزّ رأسه ثم التفت إليها ورفع يديه فاقتربت، أرست أناملها في كفه.

- تحرقين بردياتي لغيرة التابتك!

- وأحرق الدنيا كلها، من أجلك.

- تلك البرديات تجعل لشقائي معنى، بدونها لن أكون كاي الذي تحبين، لا تهددي السلام الذي رأيته في عينيك، لا تعكري العشق الذي استولى عليّ.

. اغفر لي جنوني

أحاط رأسها بكفيه العريضتين

. يُضنيني ضعفي تجاهك، أصير طفلا أمام أمّه

انغرست في حضنه دون كلمة، بكت ثم قبّلت يديه

. لن أقف حائلًا أمام ترجمتك ثانية، سأقتل تلك الأخرى التي تعيش بداخلي إن رأيتها، سأقطع لسانها، سأمزقها

نظر كاي في عينيها اللتين ترقرقتا

. لن نتوقف حتى نصل إلى المستنقعات، هي على بُعد ساعات

☥

☥

☥

حين دلفا إلى المَستنقعات كان الليل قد وقع، نور القمر يسيل على فروع الأشجار المتشابكة ويَصل الى الأرض، الأعين المَضيئة تشتعل ببريق كالنار، والرائحة النفّاذة للملح الآسن تغمر الأنف والصدر. سار كاي وفي أثره ناديا، تقاوم الغثيان والخوف، وتقاوم النظر حولها خوفًا من أسوأ مخلوقات الليل، عاهرتها، تسمع هسيسها بين الأشجار فتنظر لكاي وتضغط على أصابعه دودًا، حتّى بلغا البركة التي قابل أباها عندها يومًا، نادى في الفضاء باسمه، مرات ومرات ولم يتلقّ إجابة،

- أيكون قد رحل؟ أو حدث له مكروه؟

- أبوك رجل تمرس على حياة المَستنقع، لعلّه بدّل إقامته، أو لعلّه يصطاد بومة أو فأرًا لوجبة الليلة.

امتقع وجهها فارتجفت، أحاطها بذراعيه وذلك ظهرها قبل أن تنتابه رعشة حين نظر لكتلة أسفل الشجرة التي رقد يوما تحتها، فقد كان الطبيب عزيز راقدًا، مطعونا في البطن... دون أن يفلتها من حضنه سلت سكّينه من حزامه وهمس،

- ناديا، عليك أن تثقي بي.

- لا أثق إلا بك.

ـ علينا أن نرحل من هنا

ـ لماذا؟

ـ أبوك لن يعود.

تشنجت ملامحها:

ـ كيف عرفت؟

نظرت في عينيه فالتفتت بغتة إلى جسد أبيها، صرخت في هلع قبل أن تدفن رأسها في صدر كاي. كان ذلك حين ارتفع الصوت من بين الأغصان:

ـ أرجو أن يكون الكاهن قد استحق الفناء.

ضربت الرعشة أطرافها وسقط قلبها على الأرض الطينية. التفتا في فزع. الظلام كان كفيلًا بمضاعفة الرعب فيهما، وضع كاي ناديا خلف ظهره وتأهبت أطرافه فشهر السكين قبل أن يتكرر النداء من مكان آخر:

ـ من يعرفك مثلي؟ من وطئك مثلي؟

ثم علت زمجرة تعرفها، زمجرة سيربيروس. غادرت الدماء جسد ناديا وانتصب شعر رأسها. أردف الصوت:

ـ ما كذبتني عيناي يومًا. كنت أراك عارية من الداخل مثل الخارج، أرى الدم حين يصعد إلى وجنتيك، أرى لعابك حين يسيل، كالكلبة، وحدقتيك اللتين تضيقان فلا تخفيان العجب. فمنذ فتح الكاهن فمه وألقى سحر كلماته لم تعودي ناديا التي ربتها يداي.

أنهى آرام كلماته ثم خرج من بين الأغصان المتشابكة، ممسكًا بجنزير رقبة كلبه سيربيروس، مقاومًا اندفاعه. أضاء نور القمر وجهًا زينه جرح غائر تحت العين اليسرى. وقف فابتسم ثم أمال رأسه يتأمل كاي وناديا قبل أن يشير إلى جرحه:

ـ جئت أباك كي أطلبك للزواج. قلت له إنني يهودي وإني سأترك ديني من أجل ابنتك. حكيت له كم أنت شهية، كم أن

غنجك وبحّة صوتك لا تغادران أذني، كم أنّك خائنة لا تحفظي عهداً. وحين حكيت عن ماضيك في إليوسيس، وكيف انتشلتك من تحت الرجال، ثارت ثائرته، طعنني بسكين فأخطأ عيني، فشققت بطنه دفاعًا عن نفسي.

بكت ناديا، بكت حتى أصدر قلبها الدقّة الناقصة، بردت أطرافها بغتة وانسحبت روحها إلى قدميها فاستمسكت بكتف كاي الذي صاح:

ـ دعها وشأنها، ألا يكفيك ما فعلت؟

ـ الآن أسمع صوتك، تغضب من أجلها؟ لم لا تزيل الغشاوة عن عينيها؟ لم لا تريها من الأجدر بحبها، كاهن أم رجل حقيقي؟

وقعت ناديا على الأرض بجانب قدمي كاي فتأهب للقتال،

ـ قاتلني إذن.

ـ لتواجه آرام، وتنلْ شرف منازلة سيد شباب حي دلتا، عليك أن تُثبت جدارتك.

قالها آرام قبل أن يُفلت الجنزير، ركض سيربيروس نحو كاي بعينين بارقتين، يزمجر في غضب شربه من يد سيده ويكشر الأنياب، لم يكن بحاجة أن يشرح له آرام ما عليه فعله، ففي الحلبات تعلّم شيئًا واحدًا، أن المخلوقات ليست إلا قاتلا أو مقتولا. قفز على كاي الذي رفع ذراعه مسددا سكينه، أمال سيربيروس رأسه فغرز الأنياب في المعصم متجنبًا النصل قبل أن يسقط فوق كاي دافنًا جسده في طين المستنقع، ملوحًا برأسه يمينًا ويسارًا ممزقًا اللحم مهشمًا العظام، صرخ كاي ألمًا قبل أن يغوص رأسه في الوحل، قاوم الألم والطين الذي ملأ فمه حتى اعتدل بصعوبة ليبحث عن السكين، لمح آرام يقترب من ناديا وينحني عليها، قبل أن يدفعه الكلب دفعًا للوحل ثانية، غاص كاي فمد يده والتقط أذن سيربيروس، جذبه ناحيته ليقاوم الدفن فرجع الكلب للوراء خطوة فخرج معه كاي، لمح ناديا على كتف آرام محمولة كالذبيحة، ضرب بيده وجه سيربيروس فأصاب عينيه ولم يتراجع الكلب عن مهمّته، فما كانت تلك الضربات لتضاهي منازلة بحلبة ديونيسيوس، زمجر وازداد شراسة وانقضاضا، لمح كاي ذراع ناديا مرتخية على ظهر آرام، تغوص معه في ظلمات الأشجار المتشابكة.

بآخر ما أوتي من قوة صرخ، صرخ من أجل ناديا ومن أجل روحه التي تُسلب منه، دفع ذراعه التي تمزقت في فك سيربيروس وضرب بيده الوحل بحثًا عن السكين، حتى التقط حجرًا، ضرب به وجه الكلب مرتين قبل أن يترك الكلب ذراعه، ويغرز أنيابه في ذراعه الثانية، سقط الحجر فضرب العينين بأصبعيه فأفلت الكلب ذراعه وعض ساقه ثم فخذه، جذب كاي ثم أطاح به وبرك على ظهره فغرز الأنياب في الكتف، ضرب بكوعه الكلب الذي طوح به، صرخ فتردد ألمه في المُستنقع، فغرز سيربيروس أنيابه في العضد، ثم وهنت المُقاومة، الطين اختلط بالدم في عينيه، وتولت المياه المالحة كيّ اللحم، الصريخ لم يعد مُجديًا، أو المقاومة، سكن كاي فسكن الكلب بعد لحظات، لما لمس الموت في غريمه، قرّب أنفه من الوجه يستشعر أمارات الحياة، قبل أن يسيل لعابه على الأذن، لهث بنفس كريه ثم وقف بقائمتيه على الصدر، ينهج ويستشعر نبض غريمه، ويتهيأ للنهش، ينتقي قطعة، الرقبة دائمًا تبدو شهية، تحسم آخر رعشات الحياة وتنهي الجدال في العروق، انحنى على كاي وفتح فمه فطوّح الأخير يده بحجر أصاب رأس سيربيروس، نبح في ألم ثم هجم على كاي الذي لم يمهله الوقت أن يقوم، هم يغرز أنيابه في ذراع كاي فتلقى ضربة ثانية أبعدته ذراعين، زمجر في غضب عارم ثم تهيأ لهجوم أخير حين نبح في ألم، ثنى رأسه لينظر إلى قائمته الخلفية، قائمته التي حُشرت بين فكّي تمساح، التف حول نفسه حتى كاد يكسر ظهره فعض رأس التمساح ولم يتأثر الجلد السّميك، اتخذ الأمر لحظات نبح فيها استغاثة بكاي الذي لم يقو على الاشتباك أو القيام، قبل أن يسحبه التمساح بعد مقاومة شرسة، إلى القاع.

رغم الألم.

رغم النزيف.

ورغم الموت المَقنع.

كان على كاي أن يقوم، فالتماسيح لن يُشبعها كلب، حتى ولو كان بحجم سيربيروس العظيم، والضباع لا تنتظر الضحية حتى تموت، بل تشرع في أكلها وهي تتنفس، بحث كاي عن طرف في جسده يستطيع التوكؤ عليه حتى عثر على ساق لم تصبها إلا كدمات، استند عليها وقام مبتعدًا عن وحل التماسيح، صرخ في ألم فالتقطت أذناه حركة خافتة ورأى الأعين المُضيئة، كان عليه أن يتبع الطريق الذي سار فيه آرام، لكن تقصّي خطواته كان مُستحيلًا في

الظلام، علاوة على أن عليه إقناع النزيف بالتوقف حتى لا يسقط مغشيًا عليه. بحث عن البرديات المتبقية حتى التقطها من الوحل، رفعها على فرع شجرة لتجف ثم مزّق إزاره بصعوبة، ضمّد ساقه وذراعه، ولم يمهله الوقت ليغطي كتفه بورق الجميز، سقط مغشيًا عليه حتى انبلج الفجر، ثم فتح عينيه بغتة لما شعر باحتراق جسده، اعتدل فزعًا فقام على ساقيه، قبل أن يسقط، استند على جذع ليستوعب ما حدث قبل أن يستدرك صراعه مع سيربيروس، التقط أوراق أشجار يعلم خصائصها، دسها في فمه محاولًا أن يستسيغ طعمها، ثم وضع بعضها على جروحه والتقط البرديات الباقية، تضرر بعضها ومحي الحبر عن بعض السطور، لفها بحزامها الجلدي وثبتها على ظهره، ثم زحف حتى الطريق الذي سار فيه أرام، بحث عن أولى الخطوات فحفظ معالمها، قدم غليظة تحمل عشقه على الكتف اليمنى، اتكأ على آلامه فقام، يقاوم ألمًا من تهتك الجروح، رتّل متون الاستغاثة وشكر الراعي في دعاء لأنه حفظ عينيه اللتين سيتقصى بهما طريق الخروج، التقط عصا تمنى أن تكون كعصا موسى، ثم سار وراء الخطوات لساعة حتى توقفت، أثر جسد ناديا مستلقية على الوحل وأثر جسد أثقل برك لدقائق بركبتيه استجلابًا للراحة، ناديا لم تفق من غيبتها، قلبها الضعيف لم يحتمل، رقدت ساكنة حتى استراح فحملها متكئًا على ساقه اليسرى، مبدلًا الحمل بين كتفيه، نظر كاي لاتجاه الشمس فوجدها إلى الشرق تسير، أرام يعود بغنيمته إلى الإسكندرية.

اتخذ الأمر من كاي ساعات طويلة حتى بلغ نهاية أراضي المستنقع، خرج زاحفًا على ركبتيه وكوعيه، يغطيه الوحل كخنزير وتكسوه أوراق الشجر وفضلات الطيور، استلقى على ظهره لساعات لم يحصها، حتى ضرب الأرض قرب وجهه خفُّ ناقة تحمل رجلًا لم تسمح الشمس بتبين ملامحه قبل أن تغرب الشمس بغتة

بعد أربعة عشر يومًا.

طريق المقابر الغربية كان يمتد من الشارع الكانوبي لينتهي ببوابة القمر، ثم ينحرف جنوبًا حيث تصطف مقابر الچيبتيين في ساحة واسعة لها بوابة يحرسها تمثال كبير لإدريس بلونه الأخضر الرائق.

قبل شهرين كان الملك قد أمر بتشييد مقبرة فخمة لها نفق عميق، نُقلت إليها متعلقات الكاهن القتيل ثم نُقشت جدرانها بالأدعية والابتهالات والمقولات التي آمن بها فرددها طوال حياته. ثم تحدد ميعاد مسيرة الوداع فتم إعلام الناس في الأبواق. تجمهر أهالي راقودة والجاليات الأجنبية في طريق المقبرة، وتغيّب اليهود. يرتدي الجمع زي الجنائز الأبيض ويرفعون سعف النّخيل، أما الأطفال فيحملون تماثيل صغيرة من الكتان المحشو بحُبوب القمح والشعير، على شكل جسد إدريس، يغمرونها بالماء العذب لينبت الزرع وتبرز عيدانه الخضراء من بين ثنايا الجسد، تمهيدًا لوضعها عند باب المقبرة، مُحملة بأدعيتهم وابتهالاتهم: «تنبت كالقمح، تنمو كالقمح، وتخلد في سنابل كالقمح».

سار الموكب مهيبًا يتقدّمه الملك وحاشيته وعلى رأسهم مُردخاي، يمشي في خشوع خلف التابوت المحمول على عربة تجرّها الخيول. النحيب والدعاء لم ينقطعا طوال المسيرة التي توقفت مرتين، مرة أمام المكتبة الكبيرة التي تدين له بالفضل، ومرة قُرب معبد إدريس الذي درّس فيه اللاهوت للكهنة. قبل أن تصل المسيرة للمقبرة، ازداد النحيب وارتفعت الصلوات تعدّد مآثر الكاهن وتتمنى له الخلود في رحلته التالية. ثم نزل الجسد إلى المقبرة وسط صمت

مهيب، مصحوبًا بأوانٍ تحوي أعضاءه، وتماثيل إدريس الحارسة، ثم أغلقت البوابات وضربت عليها الأختام، ووضع الملك إكليلًا من الورود قبل أن يُلقي خُطبة حكى فيها عن الفقيد ومآثره، كيف قابله وماذا تعلّم منه، ثم سكب كأس نبيذ على الأرض ليشربه التراب تحية وتوديعًا.

ثم رحل الملك بعدما أوكل إلى مُردخاي استقبال الوفود المعزّية، جلس في مقصورة تقيه الشمس وسمح للعامة بزيارة القبر في طابور طويل، يقفون أمام الباب المختوم، يضعون التماثيل والجعارين المحفورة بالدعاء، وسعف النخيل، ويُصلّون على الرّاحل مذرفين الدّمع. كان مُردخاي في قرارة نفسه ينتظر ظهور الفتى الجيبتي، فجُثته لم يُعثر عليها في المُستنقعات. حفّز حرّاسه أن يرصدوه إن حضر، فذلك النوع من التابعين ما كانت لتفوته جنازة معلّمه؛ مانيتون، ذلك اللعين الذي لا يموت. دائمًا ما قالت أمّه «راعوت» إن كهنة الجيبتيين مثلهم مثل الجعارين، حتى وإن ماتت أجسادها ألف عام، فإنها ما تلبث أن تتنفس وتتحرك مع أول قطرة ليمون تنزل عليها. من أجل ذلك حرص مُردخاي أن يخفّف عنها العذاب، فهي من حددت يوم دفنه في النجوم ليكون يوم نحس وكرب، ثم رافقها إلى المعبد ليلة الدفن لتنظر إلى جسد القتيل قبل غلق التّابوت. في ضوء شمعة رمقته لدقائق ثم اقتربت فتلت اللعنات وبصقت على الوجه، ثم أخرجت وريقات التعاويذ قدسّتها في الكتّان الملفوف حوله، واستبدلت جعارين الحماية على صدره بجعارين المقت لاستجلاب الكرب إلى روحه ومنعها من التعرّف على الجسد. ثم وضعت الخنافس الحية في الإناء المرمري الذي يحوي الكبد قبل أن تلتفت لابنها متهدجة الأنفاس شافية غليلها بجحوظ عينين وزبد من الحماس على جوانب الفم.

. عادت الدماء إلى وجهك يا أمي.

. لو ما أوصيتني بكتمان أمري لمزقت جسده وأكلته.

قالتها ثم جحظت عيناها:

. هل وجدت تلميذه؟

. نعم، نهشه كلب من كلابنا في المستنقعات

ـ والبرديات؟

«ألا تهدئين يا أمي؟ ألا تتركين الرجال ليتولوا مهامهم؟ لمَ لا تنزوين إلى الشيخوخة الهينة التي يصادق فيها الأجداد أبناء الأبناء؟».

أفاق مُردخاي من شروده:

ـ فقد مُعظمها في الوحل يا أمي، وما تبقّى أحرقته.

ـ أكان فيها ذكر لأحمس؟

ـ نعم.

ـ الكاهن خلّد الملعون في قائمة الملوك، وضعه على رأس ملوك الأسرة الثامنة عشرة. كان يتشدّق بسيرته، ويتجاهل شتات شعب وتيهاً وملحمة ما فتئت إلى الآن تترف.

ـ لقد أرسلت رجالاً إلى مقابر «أحمس» وقواده، سيزيلون النقوش التي تذكر اسم بني إسرائيل ليلاً، وستتولى الأيام والأتربة طمس ما تبقّى. كما أمرت بجرد رفوف المكتبة واستخراج ما دوّن عنه، سنستعيرها ولن نُعيدها، لتصير سيرته إلى زوال.

ـ وماذا عن تلاميذه من الكهنة؟ ماذا عن البرديات التي يُخفونها في الخزائن؟ ماذا عن...؟

قاطعها مُردخاي:

ـ أماه! كفى. قد نلت انتقامك الذي طلبت.

نظرت إليه «راعوث» في استنكار:

ـ تريدني أن أشيخ يا مُردخاي؟ أن أموت؟ تراني أخرف؟ إني أنتقم لحي دلتا بأكمله. أنتقم لأجدادك وأجداد أجدادك.

. إني مشفق على قلبك الذي لا يرتاح. تُهلكينه كأنك فتاة في العشرين.

. طالما أتنفس وأتكلم فسأظل أسعى لرفع اسم شعب الرب، وستظل طفلًا في عينيَّ أرعاك وأوجهك.

. أنا لم أعد صغيرًا يا أمّاه. أنا أدير قصر إله يمشي على الأرض.

ترقرقت عيناها:

. تريد لأمك الموت يا مُردخاي؟

. بل أريد لك الحياة، الراحة.

. لا راحة لي ونحن محاطون بالجيبتيين.

. أعدك أن لا تزيدهم الأيام إلا تخبطًا وانزلاقًا في الوحل.

نظرت «راعوث» إلى جسد مانيتون ثم إلى عينَي ابنها قبل أن تتهدج أنفاسها. هزّت رأسها في أسى وابتعدت. حاول أن يُمسك رسغها فنزعت ذراعها بعصبية وغمغمت بالاستياء.

أفاق مُردخاي من شروده بعد وقت لم يُحصه حين خُيّل إليه أنه سمع همسة في أذنه. همسة تنطق اسم كاي، أو ربما كلمة قاتل. تلفت حوله فلم تجد عيناه إلا الجموع في ساحة المقبرة. ثم رآه. ركض نحوه وجذب كتفه فلم يجده كاي. كان شخصًا يشبهه. لما عاد إلى كرسيه وجد على المنضدة برديات ملفوفة بحزام جلدي. برديات يعرفها. تأهبت أعضاؤه فالتقطها وابتعد إلى خيمة الاستراحة. صرف الحاضرين فيها وأمر حراسه بعدم الدخول عليه قبل أن يفض البرديات. ميّز هيراطيقية مانيتون ونهاية قصّة مُوسى التي كانت بحوزة كاي، قبل أن يستشعر ثقلًا بين البرديات. فضّ الأوراق حتى آخر ورقة، وإذا بها قبل أن ينتبه تنقض كالسهم نحوه. سوداء. تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالأعين. همست بفحيحها على عجل ثم رشقت نابيها في رقبته. أفرغت السم في لحظة قبل أن يدفعها جزعًا بيد تأخرت وصرخة يأس. وقعت على الأرض فتلوّت ثم انتصبت استعدادًا لهجوم جديد. أمسك مُردخاي رقبته في ألم وتراجع خطوات شاهرًا خنجره جاحظ العينين يحدجها بإجلال وخشية. فلم تكن المرة الأولى التي يقابلها. كم تأملها

لليالٍ طوال تتلوى في أقفاص المساجين، تقترب منهم فيتحاشونها في رُكن، يتكومون ويذودون بالأيدي والسيقان ويدفع بعضهم بعضًا ناحيتها، قبل أن تنقض في سُرعة فتخترق أنيابها ساقًا واحدة منهم. يسري الألم بعد لحظات، كما يستشعره الآن في رقبته، سخونة في موضع اللدغة، اضطراب في التنفس وضربات القلب، وخدر في الأطراف، اقترب من الباب فتوسطت المسافة، نادى في الحراس فلم يستجب أحد، فصوت المنتحبين على مانيتون والمبتهلين كان عاليًا، ثم زاغ البصر، رمش بعينيه حتى رأى الأفعى اثنتين، برك على رُكبتيه غصبًا فضرب موضع القلب بقبضته يستحثه على الصمود حين انتابه الغثيان وبردت أطرافه وتقيأ، اقترب الثعبان ذراعًا فرمى بخنجره تجاهه، تجنبه الأخير فزحف ناحية مُردخاي الذي سقط على ظهره، تحسّس موضع اللدغة الذي تورّم وانتفخ، قبل أن يفقد الإحساس بأطرافه، كان ذلك حين اقترب الثعبان، التقطت أذناه الفحيح، كأنه ينطق بالكلمات: «أنا سيدة الرمال، حارسة الملوك وساكنة التيجان، الجلال علي من زرع الحركة في أطرافي وحقن الموت في أنيابي، باسم الذي سخرني، لن أعود إلا ظافرة»، كان ذلك قبل أن تلثم مُردخاي بثلاث قُبلات في الوجه والصدر، قُبلات أقنعته بعدم جدوى الحياة.

☥

☥

☥

بعد يومين.

اهتزت الإسكندرية لخبر مقتل رئيس القصر بلدغة ثعبان. أعلن الحداد العام وتجمّع أهالي حي اليهود أمام منزل السّيدة «راعوث»، ملفوفين بالحزن مضروبين بالصّمت، عاجزة قلوبهم عن استيعاب وطأة الخبر ونكبة الفقد. فمَردخاي كان أبًا لأبنائهم، وفخرًا لشيوخهم، وقرّة عين لوالدته، سيّدة الحي التي توسطت فناء دارها فوق كرسي عال، ترتدي السواد وتغطي وجهها بخمار شفاف يخفي الأسى واللّهف. تقدم الناس منها في طابور دائري، ينحنون أمامها ويضعون الورود وشقفات الفخار المحفورة بالأدعية ويرددون الابتهال جلبًا للسكينة والصبر. لم تتحرك السيدة أو ترمش حتّى تحركت الشمس إلى غروب. رفعت يدها فتوقفت حركة المُعزين، ضرب الخبر آذان الواقفين خارجًا فتزاحموا حولها، رفعت خمارها في هدوء، وبملامح تملؤها الإرادة وصوت قوي قالت:

. بعرق جبينك تأكل خبزًا، حتّى تعود إلى الأرض، فمنها أخذت لأنك تراب، وإلى التراب تعود.

ردّد الشيوخ وراءها آيات سفر التكوين وجثا الشباب في إجلال ثم ساد الصّمت. أردفت:

. مات مَردخاي، فخر رجال حي دلتا، ابن رحمي، مات وهو يترجم توراتكم إلى لغة اليونانيين، مات كي تقرؤوها، كي تعرفوا تاريخكم، كي ترددوا مآثر أجدادكم وبطولاتهم، كي لا تنسوا يومًا أننا قهرنا ملكًا ظالمًا، كي لا تنسوا أننا هزمنا جيشه من البائدين، همج إيجيبت التي لا يستحقونها، مات كي لا تنسوا أن أرض الفيروز أرضكم التي ورثتموها عن

موسى بوعد يهوه الأبدي، مات كي لا تنسوا أنكم من يتيتم المجد لتلك الأرض، فما أنتم إلا نسل إبراهيم المقدّس، النسل المختار، حملة التوراة، حملة شعلة الرّب.

سكتت فدمعت الأعين وتردّد النّحيب في الصّدور، اتكأت على عصاتها ودخلت إلى بيتها ولم تغادره ثانية، حتّى ماتت بعد شهور قليلة.

☥

☥

☥

حين أوى كاي إلى البيت كان مضطربًا ترتعش أطرافه، كأن أسدًا غرز مخالبه في صدره فمزّق القلب وأخرج الأحشاء، فللتو كان يتقصّى أثر ناديا في مزرعة آرام للمرة الثالثة. راقب المكان ساعات طويلة قبل أن يداهمه. تسلق السور الخشبي فوجد المنزل مهجورًا والكلاب فيه ترعى والقطط بلا صاحب. تفقّد أواني الطعام المليئة بالتراب وآثار الأقدام الآدمية الوحيدة التي ترجع لخطوات آرام. «ناديا لم تدخل تلك المزرعة منذ رحلت معه. ناديا لم تعُد إليها حين خرجت على كتف آرام من المستنقع. ربما هلكت ولم تصل إلى الإسكندرية؟ وربما قتلها؟ أو اختار لها منزلًا آخر تقضي فيه حياتها؟ أم أنها ركنت إليه واستسلمت؟ فآرام عاشق قد يهب لها ما لم أستطع: الأمان. كيف لرئتيّ أن تتنفسا؟ كيف لمعدتي أن تهضم الطعام؟ بل كيف لروحي أن تستقر في أوصالي في الليل وأنا أعرف أن حبيبتي عادت إلى جلّادها؟ ستُنتهك. ستَستحلّ مثلما استَحلّت إيجيبت أمام جحافل الفرس واليونانيين. لن تنفعني الابتهالات فلم يعد فمي قادرًا على ترديدها، ولم يعد عقلي يستطيع استدعاءها. فالعشق ثم الفقد قادران على قتل ثور فتيّ في البرية دون أن تمسّه الوحوش. أيا إدريس، يا معلمي الأكبر. ألا تشفع لي عند راعي السماء كي يخفف عني الجبل الذي يجثم على صدري؟ ألا تنزعها من قلبي ومن روحي ومن أفكاري؟ ألا ترحمني من لهفة وشغف وحزن وكمد؟ فموتها بات عندي أهون من أن أراها بصُحبته. اللعنة على ابتلاء لم أظنه مُصيبتي. ابتلاء كنت أسخر منه في وجوه العباد. اللعنة على نفسي التي لم تعد ساكنة. نفسي العاجزة المضطربة. تعيش النهار لتفكّر، وتقضي الليل لتتذكر ضوء القمر على شعرها، رعشة شفتيها في النهر والجسدين جسد واحد، وصوتها المبحوح وهي تنطق اسمي».

وبكى كاي، بحرقة لم يعهدها في جوارحه، بكى كالطفل وتشنّج، حتّى أتت سيدة الدار العجوز، زوجة الرجل الذي انتشل ما تبقى منه بجانب المستنقع، كان عائدا في قافلة تجارة حين وجده ملقى، مغطى بالوحل ومتهوشًا بالجروح، وقف بالناقة قربه حتّى استشعر نفسًا في صدره فحمله ودخل به أطراف الإسكندرية الغربية حيث يقطن تجار الماشية، سجّاه في سرير ووضعت امرأته المراهم على جلده وحشت لحمه بالملح قبل أن يغرق في النوم لأيام بتأثير الحمّى ولا ينطق لسانه سوى باسم ناديا، حتّى تحسّن بعد أيام وأفاق وكان أول ما سأل عنه البرديات التي انتزعوها من عليه، وحين أمسكت جروح فخذه عن النزيف قام كالممسوس، غاب ليوم كامل ليعود في الليل وفي وجهه أمارات الموت، يقضي ليله في الدعاء للزوجين العجوزين وقراءة متون الرحمة من أجلهم، ثم ينزوي في غرفة قبلية، ليتم ترجمته التي جرّت عليه الويلات، ثم يأتي النهار فيعود لجولته بحثًا عن ناديا، متخفيًا ملثمًا برداء التجار، حتى سمع يومًا عن جنازة الكاهن الأعظم، سيوارى التراب وقاتله حر مختال يتلقى التعازي فيه، ماذا عن لقاء أخير؟ يرسم فيه نهايته أو نهاية الكاهن الذي صرعه العشق قبل أنياب الكلب! خرج كاي في الليل وتمشى حتّى بحيرة قريبة، جلس فسكن ثم قرأ السلام على سيدة الرمال، حارسة الملوك ساكنة التيجان. قضى ليلته في ترقّب، وفي منتصف اليوم التالي أتاه خبر مردخاي، فلكهنة إيجيبت سحر يؤثر في تسخير الثعابين، لا يخرج إلا لشر البشر. ذهب بعدها فتقصّى رحيق حبيبته في أركان الإسكندرية، حتّى أنهكت قواه فعاد إلى بردياته، إلى موسى وهارون وبني إسرائيل، بني الملاعين، يخلط كاي هباب الآنية بصمغ السنط وبدموع يذرفها على فراق ناديا وابن محتمل في أحشائها، دموع لم تمنعه من استكمال ما بدأ، فقبيلة بني إسرائيل كانت تقضي ليلتها بجانب اليم، ملتفين حول النيران متلاصقين، الأعين تترقب والآذان تتنصت، وموسى وهارون يمرّان بينهم ليربتا على كتف هذا ويثبتا قلب هذا، وتولت مريم أمر النساء والأطفال، تغني لهم وتحكي الحكايات السعيدة، حتّى عاد الفتية مع بزوغ الفجر يجرّون خلفهم الإحباط والخيبة، لم يعثروا لفرعون على أثر، كأنه ثعبان صحراء دفن نفسه في الرّمال. صاح موسى في القبيلة أن يستعدوا للسير شرقًا فزمجروا واستنكروا قبل أن يخطب فيهم هارون بأن الانتقام للراعي ولملك الجيبتيين من بعده، هز الشباب رءوسهم صاغرين وتهامس الشيوخ بصوت أرادوا أن يصل للأخوين: «لم لا نعود لهوارة وقد بتنا في كنف الملك الجيبتي؟ سيكون لنا الحظوة والعلو على القبائل»، ليجيبهم موسى: «هكذا أمر الربّ»، ينظرون إليه ولعصاته ثم يتهامسون فيما بينهم.

تحركت القبيلة شرقًا لثلاثة أيام قبل أن تنزل قرب معبد حتحور الجيبتي، وضعوا الرحال في طريق العير وصعد

موسى هضبة المعبد بصحبة بعض فتية القبيلة، وبينهم السامري بعدما التمس من هارون العفو فتوسط له عند أخيه الذي قبل اعتذاره، وشيخ القبيلة الذي أصرّ على مُرافقة موسى ليضمن لنفسه مكانًا في زعامة تتخلخل تحت قدميه.

حين وصلوا المعبد قرع موسى الباب، طلب من الكهنة المؤن بعدما حكى لهم ما كان من أمر هوّارة وملكها، نظر الكهنة في خطوط كفّه اليمنى حتى وجدوا علامات النجوم فضربت البُشرى وجوههم فقبّلوا جبينه وأكرموا زيارته، وزوّدوه بمؤن تكفي قومه عشرة أيام. كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها أفراد من بني إسرائيل معبداً چيبتيًا، هالتهم التماثيل والأعمدة، وأدهشتهم البحيرة المقدسة وأزياء الكهنة، قبل أن يرحلوا، حاملين زادهم عبر الطريق الوعر، التحموا بقومهم ثم تحركوا شرقًا. يقصون لأقرانهم عجائب المعبد الچيبتي والتماثيل التي شاهدوها، قبل أن يقترب الفتى السامري من موسى، مشى وراءه حتى أشار له موسى أن يقترب، في خشوع قال:

ـ لقد عرف الكهنة الچيبتيون سيدي من خطوط كفّه!

ـ لهم في قراءة الكفوف خبرة، وعين بصيرة لا تراها الأعين.

وأشار موسى لمنتصف جبينه. ضربت الدهشة ملامح السامري فأردف:

ـ هل إلههم كإلهنا؟

ـ الراعي واحد، وهم أول من عرفوه على يد نبي مثلي يدعى إدريس.

ـ لِمَ لا يكون لنا إله مثلهم؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ التماثيل؛ حين تدرك الأعين إلهها تتودد إليه وتزداد يقينًا.

ـ فإذن ماذا كنت تصلي في حوارة؟

ـ أنحت التماثيل.

ضحك موسى:

ـ الآن فهمت. أصغِ. إن ما بصرته من تماثيل مجنّحة لبشر وبعضها ذات رءوس حيوانات إنما نُحتت لتبجيل وتوقير النورانيين. يُسميهم الچيبتيون «نيثرو» أي الملائكة، حملة العرش، أعوان الراعي، جنودُ السماء المحاربين.

ـ هل يراهم الچيبتيون ولا نراهم؟

ـ لا تراهم إلا القلوب المضيئة. وذُكرت أوصافهم في صحف «سر الملكوت» لنبي الچيبتيين إدريس.

ـ وهل يحتاج الراعي لأعوان وهو خالق كل شيء؟

ـ هو خالق الأعوان أيضًا. يعهد إليهم بالمهام التي لا يقوم بها الإله. فهو محارب للشر حافظ للعدالة في الأرض وللنجوم في أفلاكها. فكل ملاك مسئول عن نجم في السماء . ووسيط بين الرب والبشر.

ـ مثلك ومثل هارون أخيك؟

ـ شيء مثل ذلك. لكن هارون إنسان وأنا إنسان.

ـ وماذا عن تماثيل العجل والهلال الماثل بين قرنيه؟ أليس ذلك برب صحراء؟

ـ يا أحمق. إن تمثال العجل ما هو إلا تبجيل لقدرة الإله في هذا المخلوق، تكريمًا لبهيمة هي مصدر الخير ليس إلا. مثل تمثال الجعران: تبجيل لقدرة الخالق في البعث.

ـ لكنهم يقدمون لها القرابين؟

ـ بل يضع الناس الطّعام والشّراب أمام الراعي ليذهب للفقراء فيعرف الخير فيهم.

ـ ألا يعرف؟

- ألا تصمت؟

- الأسئلة تخمش جبهتي وتجثم على صدري.

- الصبر من الفضائل.

- لم لا يكلمنا فنراه؟

- ألا تكفيك آياته؟

- بلى ولكن.. القوم يُريدون أن يروا خالقهم.

- الخالق لا يُرى بالعين.

- لنجعل له جسداً إذن فيحل فيه ويكلمنا.

- لا تنطق تلك الكلمات فأنت لن تفهم حكمة الجيتيين.

- وما الفارق بيننا وبينهم؟

- إنهم ملكوا العلم وعرفوا الإله وتطهروا من الجهل والدنس.

حين وصلت القبيلة إلى الشطر الأيمن لجبل الطور أمرهم مُوسى بالمكوث وضرب الخيام. سألوه ماذا يأكلون فأجابهم بأن الراعي قد سخَّر لهم المن؛ مادة لزجة حلوة المذاق تفرزها شجرة الأثل. والسلوى، طيراً مُهاجراً طري اللحم.

- كُلوا قدر حاجتكم ولا تَخزّنوا، فستأتيكم عطايا الراعي في كل يوم.

تركهم يحصرون الشجر الذي انساب منه المن، والسلوى الذي هبط على الأرض فالتقطه الفتية دون مجهود. قبل أن يقرأ الشك في أعين الشيوخ، نادى هارون.

- سأعهد إليك بالقبيلة وأصعد إلى الجبل.

- لمَ لا تنتظر حتى تستقر النفوس؟

- لقد أمرني الراعي بالخلوة فور ما أستطيع

- كم ستغيب؟

- ثلاثين ليلة.

- يا ابن أم هل تظنهم سيصدعون لأوامري دونك كل ذلك الزمن؟

- أنت منهم، يصدقونك.

- دون العصا ودونك يستذئبون.

- لا أظن بعد انشقاق البحر يعصون لنا أمراً

- إنما أخشى الشيوخ، قلوبهم مُغلفة بالحقد، يتربصون بنا ويهمسون بالمكر ليسترجعوا مكانتهم.

- هؤلاء الحمقى! منذ أيام كانوا يعيشون في خرائب، الآن يبحثون عن مكانتهم؟

- الطموح يقتل صاحبه.

- إنهم في حضن الجبل، قبائل الشرق أمامهم وجند الجيبتيين من خلفهم، أين تظنّهم سيطمحون؟

احتضنه هارون وقبّل جبينه وهمّ موسى بالصعود حين اقترب الفتى السامري.

- سيدي، دعني أكن خادمك المطيع.

- عُد يا فتى من حيث أتيت.

- سأحمل متاعك وسأسجد حين أرى إلهك، لتشملني بركته.

- إن كنتَ ساصحب أحداً من القبيلة فسيكون أخي هارون.

- هناك صوت يناديني من فوق الجبل، أكاد أجيبه، اجعلني خادمك، سأضع يدي في كل جحر حتى لا يلدغك ثعبان، أتوسل إليك.

- بل كُن بين قومك عونًا ولأخي هارون سندًا حتى أعود.

- وإن لم تعُد؟

رمقه موسى في صمت فاستدرك السامري.

- إن أثرت الراعي علينا أو منعك من العودة!

- دع الأمر للخالق.

قالها هارون فهز موسى رأسه ثم صعد الصُخر يستند عصاه، حتى اختفى.

في الأيام الأولى انشغل الناس بملء بطونهم بالسلوى، يلتقطه الفتية بلا مجهود فيذبحونه، ويجمعون المن من الشجر في السِّلال، يغمسونه في الفناو الذي حملوه من معبد حتحور، ويشربون ماء مطر من غمام يظللهم ولا يكاد يتحرك. بعد أيام ضربهم الملل والفتور، ينظرون للجبل نهارًا مترقبين عودة رسول الراعي، وفي الليل يلتفون حول النار مستدفئين مستأنسين قبل أن يضرب أحدهم الدُّف وينفخ آخر في الناي فيرقصون ويلهون حتى تخمد قوتهم. فيأووا إلى الكهوف وثنايا الصخور فيعتلون بعضهم بعضًا، شهوة وخوفًا، حتى يأتي الفجر

في اليوم الواحد والثلاثين ارتفع صوت.

- لم يهبط من السَّلوى اليوم إلا أفراخ معدودة؟ ما البديل إن كفَّت عن الزيارة ونحن بلا أقواس نصطاد بها أو

ماشية نرعاها؟ وقد أمرنا بعدم التخزين!

قال هارون بهدوء:

. نحن في كفالة الراعي، لن يضيّعنا.

ساد الصمت لدقائق قبل أن يقول قائل:

. ألسنا في اليوم الواحد والثلاثين لصعود موسى؟

رمق هارون صاحب الصوت ثم نظر للجبل الصامت وقال:

. بلى.

. أخشى أن يكون قد أصابه مكروه وقد طال به الأمد.

. ومن يخشى صحبة الرّاعي؟

. أين موسى إذن؟

لم يجب هارون فقال صوت:

. لم منعنا من صعود الجبل ورؤية الإله؟

. الراعي لم يأمر بالزيارة، وهو حاضر بيننا يرانا ويسمعنا.

. لكننا لا نراه؟

. ولا ترون الهواء كذلك، لكنكم ترون أثره. فقد أرسل إليكم الآيات وأيدكم، ونصركم على فرعون.

. وها هو فرعون قد فر من بين أيديكم!

سرت الهمهمات فالتفت هارون للصخرة التي رفع السّامري صوته من فوقها:

. أتظنونها صدفة أن يفر منكم بعدما عصيتم الراعي؟ لقد نجا لأن صدوركم تحمل الدنس والقاذورات.

ساد الصّمت ووقف هارون يتأمل السامري الذي أردف:

. أتعرفون لم لم يهبط الرسول؟

. انزل عن الصخرة يا فتى؟

صاح هارون.

أردف السامري كأن لم يسمعه:

. لأن الراعي يأبى رؤيتكم، فأنتم لم تبجلوه كما يُبجّل الجيبتيون رُسله وملائكته.

ارتفع صوت:

. ماذا نفعل؟

. رسولكم لن يهبط الجبل إلا إذا تطهرنا من الدنس، حينئذ نتلقى حكمة وعلم السابقين: الجيبتيين.

هزت بعض الرءوس واشرأبت أعناق الشيوخ في ترقب، يصغون لصوت محبب إلى قلوبهم: صوت الصدع.

اقترب هارون فصعد الصخرة بجانب الفتى السامري.

. يا قوم، تلك بذور الفرقة والعصيان تأتيكم من فم لا يعلم من أمر الراعي شيئا. لقد أمرنا بالمكوث والسكون ولم نؤمر بالسؤال.

رفع السامري صوته:

ـ لحين يأذن الراعي ويعود موسى.

ـ ثلاثون يوماً لا ندري عنه خبراً. ولا يجرؤ أحد على الصعود خلفه. ما يدرينا إن كان قد مات أو صعد إلى بيت الراعي أو...

قاطعه هارون:

ـ إن أخي في عناية الراعي. لا يظلمه ولا يقتله. إن تأخر فلحكمة ستعلمها حين يهبط.

ـ وإن لم يهبط؟

ابتلع هارون ريقه:

ـ سأتولى أمركم.

ـ بلا عصا؟ بلا علامات؟

ـ لم نعد بحاجة إليها.

ـ لِمَ لم تصاحبه في صعوده؟

ـ أمرني أن أكون فيكم.

ـ أم أنك لا ترقى لرؤية الراعي؟

نظر القوم لهارون في ترقب. قال:

ـ لا يُسأل عما يفعل وتُسألون عما تفعلون.

ارتفع صوت:

وقال آخر:

ـ لقد غضب الرب علينا فتركنا.

رفع هارون صوته:

ـ ماذا تقولون، أنسيت أعينكم البحر المشقوق والثعبان المبين؟ أنسيت قلوبكم الإيمان بالراعي؟

قفز السامري من فوق الصّخرة فمشى بين الناس يلامس أكتافهم:

ـ يا قوم، إن الراعي اختصّنا من دون القبائل، بل من دون البشر، شقّ لنا بحرًا وأغرق عدوًا، وظلل رءوسنا بالغيام وأنزل إلينا المن والسلوى، ألا نطهِّر أنفسنا ونتخلص من الأوزار التي حملناها من المصر لعله يتجلى لنا كما تجلى لموسى عند الشجرة؟ لنسترضيه ونبجله، نصنع من خطايانا جسدًا تتجلى فيه روح الراعي، لنحرق الطعام قربانًا بين قدميه فيرضى عنا ويرد لنا موسى وتتهيأ أجسادنا لرؤية الخالق.

ـ ماذا تقولون؟ لقد شق الراعي البحر لأن عدوكم فعل ما فعل آباؤكم الأولون، ثم ظللكم بالغيام وأغدق عليكم من الخيرات لتحملوا رسالته، لتحملوا ما سيهبط به موسى من ذلك الجبل.

ـ لقد قال موسى إن الجبيتيين لم يعرفوا الإله إلا حين تطهروا من الجهل والدّنس.

ـ ما بالك تفتأ تذكر الجبيتيين! هؤلاء قوم نزل عليهم رسول من قبل، تماثيلهم ليست آلهة، هؤلاء شعب عرفوا الراعي قبل أن توجدوا، لهم شأنهم ولكم شأنكم.

صرخ السامري:

ـ نحن أولى بالإله منهم، نحن قبيلة الراعي الأثيرة، إن تجلى لأحد فلن يتجلى إلا لنا.

استحسنت الآذان ما سمعتْ فسرتْ همهمات ضاع فيها صوت هارون. رفع السامري صوته:

ـ من يَرغب عن التطهر فليلزم جانب هارون، ومن أراد الخلاص فليضع حُلى القبائل والأساور وما كان على الجند

من زينة في تلك الحفرة.

اقتربت مريم من هارون وقد حاوطه بعض الفتية يريدون به إيذاء:

. ماذا تفعلون؟ تريدون أن تقتلوا من تربى بينكم؟ رسول الراعي إليكم. العار في وجوهكم، العار في أولادكم.

انسحب هارون إلى طرف الجبل بعدما قُذف بحجر من مجهول فشق جبهته وأسال دمه، تبعه من القوم فئة قليلة ليس من بينهم الشيوخ الذين كانوا أول الملتفين حول الفتى السامري، حين هدأت الجلبة سأل التابعون عما يجب أن يكون فآثر هارون انتظار أخيه عن بث الفرقة بين القبيلة حتى لا يقضوا على بعضهم البعض بلا عدو. قضى ليله في مُراقبة الجبل ومُناجاة الراعي، وفي النهار يتابع القوم يتحركون بين يدي الفتى السامري كأنهم دُمى من القش. جمعوا الحلي الذهبية والزينة في حفرة كبيرة، صهروها تحت نار عظيمة اشتعلت لليلتين متتاليتين حتى الانت المعادن وسالت فصبّها السامري في قالب مُحكم نحته من القدور على شكل عجل، حتى إذا بردت المعادن أزال السامري القالب وعمل عليه طرقًا وحفرًا لثلاثة أيام حتى بدت الملامح. أذنان، عينان من الفيروز، وأنف ثقبه كالناي وأنفذه لمؤخرة العجل فدخله الهواء والتف مُحدثًا صوتًا يشبه الخُوار، ما إن سمعه التابعون حتى هلعوا فرفع السامري صوته:

. لقد حل الراعي في الجسد، تجلى لكم من دون القبائل وأثركم.

خروا سُجدًا فالتفت السامري لعجله وسط دهشة هارون وتابعيه ورفع يديه مُتضرعًا:

. يا إله الآلهة، ألقينا أوزارنا في جوفك وسجدنا أمامك خطاة، لتطهرنا، وتُعيد إلينا مُوسى، رسولك، أو تحلل روحه في جسدي فأتكلم بفمك وأسير بقدميك، سأريق الدم من أجلك وأحرق اللحم، وسأطعن بقرونك من يأبون هيبتك.

قالها وهو ينظر لهارون وأتباعه ثم أمسك بعضو العجل المتدلي:

. مرحَى لفحولتك، لتهبنا الهيمنة على القبائل وتؤثرنا عنهم، لتكن لنا العظمة والسمُو، لنكن المختارين دائمًا

وأبدا، فما شققت البحر من أجل أحد من قبلنا.

صرخت مريم في شيخ القبيلة:

- يا كبير القبيلة! أتنكر الراعي بعد أن جاءكم موسى بالآيات؟ تعبد عجلا لا حول له ولا قوّة؟

نظر إليها الشيخ ثم أشاح بوجهه تجاه عجله كأن لم يسمعها وأردف السامري:

- خوار الحلول لا يسمعه إلا المؤمنون.

جذب هارون عضد أخته فهمس:

- لا طائل من كلماتك إلا الفرقة والاختلاف.

- ألا ترى ما يفعلون؟

- هؤلاء هم بنو إسرائيل الذين تربينا بينهم، خراف جشعة لا عقل لها، ما كانوا ليخرجوا من الخرائب دون عصا، لعمري أراهم يقتاتون الربا ويمتصّون رُهونات الفقراء كالخفافيش، لا أشفق إلا على موسى حين يعود.

- أخوك لم يهبط الجبل منذ أربعة وثلاثين يوما! أخشى أن يكون أحدهم قد تسلل إلى خلوته فقتله في غفلة منا.

- ما كان الراعي ليترك موسى فريسة للمُضلين.

- اصعد إليه.

- لم يوح إليّ الرّاعي أو يأتني المنام.

- هل سنتركهم؟

- حتى يعود موسى.

- وإذا لم يعُد؟

نظر إليها هارون ولم يعقب، كان ذلك حين رفع السامري يديه وصوته

- أيها الرب، إن كان موسى حيًا فأعده إلينا، وإن لم يكن، فلترسل إلينا علامة، ولتسر أمامنا فترشدنا إلى مصيرنا، أرض أبنائك و...

لم يكد يُنهي كلماته حتى صدرت من الشرق قرقعة مدوية وتساوى بالأرض جبل كان شامخًا، في طرفة عين، مُحدثًا باندكاكه رعدة أرضية لم ير لها مثيلًا من قبل سارت تحت القوم في موجة رفعتهم عن الأرض وأوقعتهم فزعين، قبل أن يبتعد الصدى عن الآذان قام السامري بوجه هربت الدماء منه، رفع يديه عاليا وجثا أمام العجل،

- المجد لك ولفحولتك، يا مُجامع الأرض، يا واطئ السماء

ثم التفت للناس،

- لقد قال الراعي كلمته، مات صاحب الثعبان، مضى زمنه وأتى زمن صاحب العجل، هلمّوا، هلمّوا يا بني إسرائيل، أتريدون علامة أكبر من ذلك؟ لقد انشق البحر لموسى ودكّ الجبل لأجلي، من أراد السلامة فليتبعني.

قام هارون يساند مريم

- ما الذي يحدث يا هارون؟

- إنه هذا لشيء عجاب، شيء يحدث لأخيك يا مريم

ما كاد يُتم هارون كلمته حتى خرّ نصف الواقفين من أتباعه سجدًا لعجل السامري الذي اقترب منه شيوخ القبائل يتبركون بملامسته وينظرون لهارون ورهطه الباقين باستعلاء.

- اندكاك الجبل لن يزيد هذا الملعون إلا أنصارا.

- لا تملك إلا الانتظار.

في الأيام التالية انعزل هارون وجماعته في ركن بجوار الطريق الهابط من الجبل، يتحملون نظرات السُخرية وصبر انتظار الغائب، محفوفين بالخطر مرصودين من جماعة السامري، يَحيطون بهارون ومريم في نوبات حراسة بعد أن تعدى فتى ملثم من القبيلة على هارون قاصداً قتله لولا أن صدّوه. أما العجل فبات مزاراً للمريدين؛ يطوفون حوله ويرقصون، ثم يحرقون تحته الطيور والأعشاب التي يجمعونها، ويتمسحون بالفتى السامري الذي يتكلم بكلمات موسى ويرسم لهم طريقهم، قبل أن يجذب الخرقة التي تسد أنف العجل فيجري الهواء في منخاره ليؤمّن على كلماته بخوار عجيب يتردد صداه في الأجواء فيخر القوم على وجوههم سجّداً ويبتهلون، ثم يشعلون النار ويتوددون للقمر أن ينصرهم. في اليوم الأربعين لغياب موسى التقط هارون صوت خطوات تدب على الصخر، ثلاث خطوات؛ قدمين وعصا. قام متحفزاً جاحظ العينين ففزع من حوله، التقط شعلة نار واتجه ناحية الطريق الهابط حين لمح قدمي أخيه. نحيفتين تدبان على الأرض في حزم. رفع الشعلة فأبصر العصا وألواحاً حجرية يحملها بين يديه، ثم نظر في الوجه. فقد الكثير من لحمه فبرزت عظامه وإن امتلأ بدموية الغضب. كاد قلب هارون أن يقفز من صدره. ركض إلى أخيه حتى كاد يقع قبل أن يفتح ذراعيه احتضاناً.

- أين كنت يا ابن أم؟

ألقى موسى عصاه والألواح ومد خطواته حتى قبض على لحية هارون وأحاط عنقه بذراعيه. ذهل الجمع القليلون قبل أن يستيقظ الناس تباعاً فيتجمعوا.

- أعصيت أمري يا هارون؟ ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا؟

جاهد هارون ليسحب نفساً إلى رئتيه.

- يا ابن أم! لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إنّي خشيتُ أن تقول فرق هارون بين بني إسرائيل ولم يرقب قولي.

- يا ليتك فرّقت، لقد أتاني الأمر وأنا بين يدي ربي فكدت ألقي بنفسي من فوق الجبل غضباً.

ركضتْ مريم فاستمسكت بعضد موسى

- يا موسى، إن أخاك كاد يقتل في انتظارك.

أردف هارون:

- إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بنا أتباع السامري.

نظر موسى لمريم وللقوم المتجمعين قبل أن يرفر عصبه ويُحرر رأس هارون:

- أين السامري؟

أشار هارون إلى العجل فشقّ موسى الطريق نحوه. مشى بين وجوه ضربها الوجل وأجساد ترتعش، يفسحون له ثم يسجدون في نحيب وندم، مقطوعي الأنفاس لا يقوون على الهمهمة. ينظرون لغائب عاد من العدم، غائب ظنوه مات أو قُتل، أو ضل طريقه بين السحاب.

حين أصبح موسى أمام العجل توقف وتأمله. النار كانت تزيد جسده لمعة وبرقًا. نظر للقوم من حوله شزرًا فتراجعوا في دائرة تتسع قبل أن يصعد لمنصة العجل وينظر في وجهه المحفور وأنفه الذي يصدر الخُوار. ثم رفع أصبعين فسد الثقبين ليُسكت الصوت فنادى:

- اخرج يا سامري..

تردد الصدى في الجبال فخرج الفتى من وراء صخرة. شاحب اللون جاحظ العينين متهدج الأنفاس. ركض فاعتلى منصة العجل وسجد بين قدمي موسى:

- سيدي، كدنا نيأس من عودتك. لقد عكفت تحت قدمي الإله لأبتهل علك تعود..

- أأنت من صنعت ذلك الوهم؟

- أتاني الرب في المنام فأمرني..

قبل أن يكمل السامري كلمته صفعه موسى:

. كاذب.

سقط الفتى أرضًا فأمسك موسى بتلابيبه

. أصعدُ الجبل لأقابل ربّي فتصنع لهؤلاء العميان صنمًا! كيف تجرؤ؟

. لقد سألته عنك فأعطى العلامة بأنك قد متّ.

. سألت من؟ العجل؟ أيها المُضل. كيف سوّلت لك نفسك؟

. بصُرت بما لم يبصُر به القوم.

سكنت الرياح والأنفاس واشرأبت الأعناق حول المنصة

. بصُرت بماذا؟

. بالوسيط.

. أي وسيط تقصد؟

. رأيتك تكلّم الفراغ في طرف الجبل وتتمتم بالهمسات قبل أن تصعد. فأدركت أنه حاضر النيلر. الملاك النوراني. نور تلألأ من حولك ما لبث أن طار بجناحيه في السماء. حين رحلت ذهبتُ إلى حيث كُنتما مُجتمعين فأخذت قبضة من الرمال التي وطئتها قدماه وألقيتها في قدر الحُلي السائلة فوق النار. ليتجلى الملاك في العجل كما تجلى للچيبتيين في معابدهم.

نظر موسى لعيني السامري اللتين لمعتا ببريق الجنون.

. أنت فاسد العقل. لقد أوحى لي الرّب صُعود الجبل ولم يُرسل ملائكته.

. ها أنت تقول ملائكته. ما يُدريك أن الرب لم يبعثني مثلك؟ صدّقناك حين أتتك العلامات.

- تعبد صنمًا نحتته يدك وتدّعي النبوة؟

التفت موسى للناس،

- ذلك الفتى تطلّع إلى قوم نزلت عليهم رسل السماء فأضاءت طريقهم قبل أن توجدوا، قوم بنوا أهرامًا ومعابد لتقديس الرب وملائكته، قوم نزل فيهم «إدريس»، أغرتكم الآيات التي نصرتكم أم عميت نفوسكم؟ تضلّون بعد أن انشق لكم بحر وغرق جند الطاغية أمام أعينكم؟

ارتفع صوت:

- لكن السامري أتانا بعلامة، اندك الجبل كأن لم يكن.

ضرب موسى جبهته:

- تلك العلامة لم تكن لكم، فقد طلبت من الرب رؤيته، تجلّى للجبل فلم يتحمّل ظهوره، اندك من فوره فصُعقتُ، وقعت على الأرض لساعات لا أستطيع قيامًا من هول ما رأيت.

سكت موسى وقد جحظت عيناه وتهدّجت أنفاسه قبل أن ينظر لشيوخ القبيلة

- لا أظنكم آمنتم بذلك العجل، أعينكم تفضحكم، إنما أعنتم ذلك الأحمق ونصرتموه لاستعادة ما كان لكم من حظوة، أن تخونوا القبيلة وتخدعوا الأغرار فيها ليعودوا تحت إمرتكم خير من أن تخونوا الرب. ما لكم تنظرون إليّ كأني أقول شيئًا ليس فيكم؟ نعم، إنما اتبعتم ذلك الغرير لأن ما أتى به يتبع أهواءكم.

- لست بغرير، لقد رأيت النور الذي تراه، هو من أمرني بالتطهر وسبك الخطايا.

- ما رأيت إلا شيطان نفسك، هيأ لك الكفر بالرب.

- إن أراد الرب بنا خيرًا فلم لم يمنعني؟ لم لا يدمّر ما صنعت؟

- ليختبر نفوسكم يا حمقى، وقد سقط أكثركم، فالرب يريد ليفرز من يستحق العهد ممن لا يستحق، إنّ الذين

اتّخذوا العجل إلهًا سينالهم غضب من ربّهم وذلّة في الحياة، كذلك يجزي المفترين.

ثم التفت موسى للسامري:

. أما أنت فلا مكان لك هنا، اغرب عن وجهي.

نظر الفتى السامري للناس ولموسى في غضب:

. لا بأس، فساكن العجل سينصرني.

. ستلازمك الوحدة والنبذ طوال حياتك، ستتوه روحك وتتخبطك الأخيلة حتّى تتمنى الموت، سيهلك جسدك لتقابل الرب فيأجرك بما فعلت، ولكن لن تغادرنا حتّى تنظر لإلهك الذي صنعت، لنحرّقنه وننسفه فننثره في اليمّ أمام عينيك.

قالها موسى ثم دفع العجل بقدمه فأسقطه على الأرض.

لم يسكت عن موسى الغضب حتى صهر العجل في الأتون الذي سبك فيه، قبل أن يدق المعدن حتّى فتته قطعًا صغيرة ونثره في اليمّ، ثم أمر شيوخ القبيلة قبل الفتية أن يشربوا منه ويعبوا وكاد أن يُغرق أحدهم في فورة غضب، أما السامري فراقب ما يحدث بصدمة قبل أن يهرب ركضًا أمام أعين القوم حتّى غلّفه الظلام.

تلك الليلة لم يزر مُوسى النّوم، التمس صفصافة كالتي قابل الرّب فيها أول مرّة، استند الجذع واحتضن الألواح ينظفها ويمسحها نادمًا على إلقائها على الأرض، يتطلع للفجر الذي ينبلج بعينين جاحظتين لا ترمشان، تتردد بداخله آخر كلمات الملك الحِيثي: «اكتب سجلًا لرحلتك، منذ بُعثت وحتّى تموت، وائتمن عليها شخصًا تعرفه، فأعين قومك لا تحمل الخير»

«صدقت»

زفرها موسى ثم نظر للأغصان المتدلية حوله كالستائر فرفع يده، لامس إحداها فسرت بداخله رعشة يتذكرها،

. اغفر لي غضبي وإلقائي الألواح، لقد أوكلتني نفوساً خانعة، ذليلة عن رضا، فارغة من روحك، لا تركن إلا إلى طين الأرض، كيف سيحملون كلماتك إلى الأمم وهم للإيثار أبعد ؟ كيف ستتلقى تلك القلوب حكمتك؟

سكت موسى فداعب النسيم وجهه ثم وقع في قلبه الصوت:

. إني أعلم ما لا تعلم.

هز موسى رأسه مؤمنًا:

. الجلال لك يا علي يا حكيم، سأسير كما أمرتني، وسأبلغ حكمتك، لتضمن لي طريقًا لعل روحي تمضي إلى أرض الأبدية والخلود، لتحفظنا من الشر وتغمرنا بعنايتك، ولتأذن لي أن أتبع ما قال الملك الجيبتي فأدوّن سجلًا بأيامي فأحفظ سيرتي لأمم تستحق من أحفاد بني إسرائيل، أو من غيرهم.

لا يدري كم من الوقت مر قبل أن يُخرج من ردائه قلم البوص وحفنة من بودرة النيلة الزرقاء، بللها بمياه الصفصافة وغمس البوصة:

. أنا موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم متبع ملّة إدريس الحنيفية، أكتب ذلك الكتاب في العام ٤٨٩٣ من التوقيت النحوتي بالجانب الشرقي للّيم بأرض الفيروز...

. ظننتك ستقتل الفتى بعد أن كدت لتردبني!

التفت موسى فوجد هارون جالسًا القرفصاء يراقبه:

. إن كنت تلقيت الخبر من فم العلي في صمت الجبل لذبحته قبل أن يتكلم.

. ولِمَ لم تفعل؟

. من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لا إكراه، هكذا قال ربُّك.

. وماذا عن الذين اتبعوا الفتى وعبدوا العجل وقد أمرتهم بقتل أنفسهم؟

. ذلك حكم الغضب، سيعرضون على الرب فيقضي فيهم ما هو قاض، ولتغفر لي أخذي برأسك يا أخي.

هزّ هارون رأسه ثم جلس بجانب موسى مستندًا إلى الجذع.

. لا عليك، لقد اعتدت طبعك يا مضطرب المزاج، ماذا تكتب؟

. سجلًا بأيامي.

دهش هارون:

. سجل؟ لماذا؟

. أعين القوم تفضح الغدر فيهم، وأخشى أن يأتي يوم يستكون فيه معبودًا من دون الرب ليكتب باسمي واسمك كتابًا يقدسونه.

. لكننا وحيدان بينهم!

. ليحفظه الأطول عمرًا فينا.

. وحين يموت؟

. إن لم نجد من نثق فيه يومًا فنحن هالكان.

ضرب الصمت الأخوين قبل أن يسأل هارون

. ماذا حدث فوق الجبل؟

. في القمة أرض مقعرة تمتلئ بالأمطار، في وسطها صفصافة أكبر من تلك التي نجلس تحتها وأغزر أوراقًا وأغصانًا، أدركتها ليلًا وكانت تشع بنور فيروزي يتموّج. دخلت في ستائرها وجثوت في المياه خاشعًا، حتى تكلّم ربي، أمرني بالصّيام إلا من مياه الشجرة وأوراقها، وأمرني بالصبر، والصمت. قضيت الأيام في داخلها لا أخرج ولا

أقضي حاجتي، فلم أشعر بحاجة، حتى مَحي الفرق بين اليقظة والنوم، بين النهار والليل، بين الحياة والموت، شعرت في لحظات أن لا حاجة لي في التنفس أو الطعام، أو رؤية من البشر أحد، حتى أبنائي، لم أتذكرهم، ثم بدأت عيناي تُدركان الأطياف النورانية؛ الملائكة؛ النيترو الذين كنت أراهم مُجسّدين في معبد «أون»، لهم رءوس كرءوس الطيور والأسود وأجنحة هائلة، يأتون في كل يوم ويجثون عند الشجرة، يبتهلون ويُسبحون فأسبح معهم في عقلي، كنت أرتعد ثم ينساب بداخلي سلام عجيب واطمئنان، حتى تقدم أحدهم يومًا وكان له رأس كرأس «أبو منجل»، وضع تلك الألواح أمامي ثم رفع كفه فاحترقت صدري، لم أشعر بشيء، فقط برودة منعشة ثم نور مبهر غشى عينيَّ قبل أن أفيق مُستلقيًا على جانبي تحت الشجرة وقد حفظ قلبي ما فيها من أوامر وقوانين، كان ذلك ليلًا، ثم بدأت الشجرة تنبض بالنور وتتلألأ فسجدت ووقع في صدري الصوت، طلب مني أن أبلغ القوم الحكمة والوصايا ثم سألني عن تعجّلي الصعود، فأجبته بأني تركتهم في أثري مطمئنين وعجلت إليك ربِّ لترضى، فقال لي إنه اختبر القوم وفتنهم لكي يعلم من المُخلص ومن الخائن، وأسرَّ لي باسم الفتى السامري فلم أتمالك روحي، حملت الألواح ونزلت الجبل قفزًا حتى كدت أكسر ساقيَّ، وها أنا أمامك.

- يا لها من رحلة! اشتقت أن أكون معك.

- كان على الصبور الحكيم أن يبقى.

ابتسم هارون:

- ما الذي أطال بك الأمد حتى أربعين يومًا؟

- الأسئلة، فأخوك لا يكف عن الأسئلة، تكلمت فكسرت صومي فأراد ربي أن أستمر حتى أبلغ الصفاء الكامل.

- وماذا بعد؟

- ستبلغ القوم ما جاءنا من الرب، سيكون عليَّ قراءة الألواح وسيكون عليك تعليمهم العبادة وإقامة مناسكهم، أما الآن فأمرهم بشد الرحال استعدادًا للاتجاه شرقًا.

☥

☥

☥

لا خوف يعلو فوق خوف هارب.

فاقد للذهن مشوش الذهن بارق البصر يركض ويتلفّت، كأرنب بائس يطارده فهد، الجلد أحرقته الشمس، والقدمان مجروحتان متقرحتان من حواف الصخور، في الرئتين سعال دموي وفي الفم قيح وفي العينين، يتّقي بسيفه الجوارح من الطيور والأسد والضبع والذئب والحيّة، والفتية المتربصون، لا يراهم لكنه يسمع همساتهم في رأسه، أو هكذا يخيل إليه، فيقوم من خلف صخرة أو من داخل جحر ليركض فزعًا، بلا توقف، يقتات في طريقه العشب والفئران والحيات، ويشرب من بواقي المياه في الشقوق، ثم يدركه التعب فيخر على ظهره قبل أن تبدأ الضحكات في مهاجمته حتى ينقطع نفسه وينزف دمًا فيغشى عليه لساعات لا يحصيها، يرى فيها من الهواجس ما يوقظه فزعًا، قبل أن يواصل الركض.

اتخذ الأمر منه ليالي طوالًا حتّى بلغ الوادي فالجبل، جبل ثمود ببريّة فاران، لم تتغير معالمه رغم السنين، الصخر الأحمر، الفجوات التي يخافها الصغار، والرياح التي تتخللها فتصرخ في الصدور بالفزع، فلتت منه ضحكة حين تذكر نفسه طفلًا صغيرًا يسكنه الخوف، قبل أن يركض بما تبقى له من قوة غير مبالٍ بجروح جديدة تشق جلده وصبية يراقبونه، حتّى بلغ السفح الذي طالما نهي عن اللعب قربه، جثا على ركبتيه ملتقطًا أنفاسه رافعًا عينيه للجبل، سعل بحشرجة شديدة ثم قام فتشبث بالصخر وبدأ الصعود، لنفس الفجوة التي صعد إليها غلامًا، تعثر فسقط، تأوه ثم قام، صعد ثانية فسقط، ثم نجح في الصعود ثالثة، استوى على أرض الفجوة يسعل في

نزيف كاد يغرق في دمائه. حتى التقط أنفاسه، زحف فبحث في الصخر عن اسمه الذي حفره بسكين قبل خمسة وخمسين عامًا حتى وجده مطموسًا. أزال التراب عنه بطرف سيفه وأكد الحفر. ثم جلس فارجًا قدميه، ينظر في ظلام الفجوة ويتمتم لأول مرة منذ أربعين يومًا:

.إن كنت موجودًا فأصدر صوتًا. قل شيئًا. تذمّر. هزّ جبلك بغضب. أو. اقبضني

الذين عثروا على جسده في الفجوة كانوا صبية صغارًا رأوه يتسلّق فتتبعوه، انتزعوا سيفه، والحلقات النحاسية التي ضفرها في لحيته وخاتمًا ذهبيًا عليه نقش لرأس عجل له قرنان، لمّا شوهد في يد غلام صعد أبوه والرجال إلى الفجوة فوجدوا الجسد دافئًا والنفس ضعيفًا والفم ينزف. حملوه إلى دار حكيم القرية فتعرفه بعض الشيوخ ممن لعبوا معه صبيًا. لبث في الدار لثلاثة أيام لا يستجيب جسده لعشب أو شراب. ثلاثة أيام تجمّع الناس فيها ليتطلّعوا لرجل ولد فيهم، صبيًا عنيدًا تيّم بجبل الآباء حتى خلب عقله، ثم رحل غربًا حتى صار ملكًا لمصر التي بايجيبت، قبل أن يعود إليهم، بدنًا بلا روح.

في فجر اليوم الرابع سرت البرودة في الجسد وتغير لونه. أبى الناس دفنه قبل أن يطلعوا عليه فضولًا، وضعوا جثته على حصيرة في فناء ومروا عليه لنهار كامل يتأملونه ويلمسون جثته، حتى بدأت كرشه في الانتفاخ وتكاثر الذباب حوله.

في الليل دفنه شيوخ القرية في مكان لا يعلمه إلا نفر قليلون حتى لا يصير مزارًا للعابثين أو المريدين.

وتم طمس اسمه من فجوة الجبل وصُهر سيفه وخاتمه، خوفًا من انتقام الجيبتيين.

☥

☥

☥

«جزء مفقود من البرديات يخص سنوات التيه، وقع بحوزة مردخاي ولم يعد بالإمكان استرجاعه. كان عليَّ أنا خاي مترجم تلك البرديات من الهيراطيقية إلى اليونانية أن أقفز بالبوصة سنوات في سيرة بني الرعاة، وليغفر لي العليُّ الحكيم تقصيري وإهمالي».

بعد سنوات.

الحدود الشرقية لأرض الفيروز.

حين وصل الجيش كان الثلج يغطي الجبال والوديان وجذوع النخيل، جلس أفراد القبيلة ككتل من الفرو يستدفئ بعضهم ببعض حول النيران. كتل لا تبدو منها سوى الأعين والأنوف، والتساؤلات، يتبادلون الهمسات في صمت وهم يراقبون الملك الذي ذاع صيته وترددت سيرته وسبقته الأخبار. أحمس يحاصر حصون الرعاة في هوارة وما حولها. أحمس يجتاح. أحمس يشتت. أحمس يطرد وينكل. الجبتيون يهبطون من الجنوب إلى الشمال ليسكنوا أراضي الهكسوس التي هجروها لمائة سنة ويزيد. مناوشات وهجوم مضاد من القبائل يصده جيش الجبتيين. القبائل تضعف، تستسلم، ترحل شرقًا، تخاف أسد الفتى الجبتي وتتحاكى عنه... لم يبق من الرعاة في أرض الفيروز سوى شراذم متفرقة وجماعات ممزقة بالكاد تحمي نفسها. يحرص الملك على تصفية وجودها كي لا تتكتل ثانية. يدفعها شرقًا نحو منبتها الأصلي ويزرع الحاميات ويبني القلاع. وها هو يلتقي بموسى بعد سنين غياب. ينزل عن حصانه المغطى بالوبر ليحتضن حليفه بحميمية ويتبادلا حديثًا قصيرًا ثم يمضيا لبقعة بعيدة يحرسها الجند فلا تتسرب منها الكلمات. يجلس أحمس على كرسيه ويضع الحراس كرسيًا يماثله لموسى ويشعلون النار بينهما.

- ظننت أن لن أراك ثانية.

زفر أحمس ببخار دافئ:

- إزالة ما خلفه رأس العجل سيرثه أحفاد أحفادي.

- هل عثرت عليه؟

- ترددت شائعة عن وصوله قريته ببرية فاران وموته هناك. لم يعد أمره يعنيني. فثأري منه حفرته للزمن على جدران معبدي ومقبرتي.

- صدقت. الانتقام سمة الأخساء. أعانيه من فتية القبيلة وشيوخها المخرفين. لا زالوا يتشممون رائحته رغبة في تمزيق جسده والتنكيل به. توقفت عقولهم عند لحظة شق البحر ولم يغادروها حتى الآن. يظنون أنفسهم شعب الرب المختار.

- «أغبياء. من يتوقف عن الحركة. يمت». حكمة لا تغادر عقلي. أجول من أجلها الأراضي. بلا توقف. أقتحم الحصون وأفتح المدن. أبني القناطر وأصلح القنوات التي خربوها قبل رحيلهم. ثم يتعدى الكوشيون في الجنوب فأرسل إليهم من يردعهم. وفجأة يناوش الليبيون من الغرب فأردهم. حتى الأسد مرض ولم يعد يستطيع مجاراتي.

- الرب في السماء يعرف جسامة حملك. لكنه يؤيدك ويحميك.

- ماذا عنك؟ ما الذي حدث في السنين الماضية؟ وأين أخوك هارون؟

- ذلك ما طلبت لقاءك من أجله. لقد مات هارون منذ ثلاثة أسابيع. عثرنا على جثته عند سفح الجبل الشرقي. مهشمة الرأس.

فزع أحمس:

- قتل! يا لها من مأساة. هل عرف قاتله؟

. كما ترى، أنا أقود نصف من خرجت بهم من البحر. انشق البعض كفرًا وراء فتى ظالم، والبقية تفوح منها رائحة التمرد، فمنذ نزل أمر الرب بالخروج من إيجيبت شرقًا، بت أرى في أعينهم الخنوع والتراجع، وفي فمهم السخرية، لقد أمرهم الرب بالاستعداد لقتال مرتقب مع القبائل الرعوية، ووعدهم التأييد بالنصر وجند من الملائكة، وكان جوابهم: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»، فما كان مني إلا أن ابتهلت وطلبت من ربي أن يُفرق بيني وبين الفاسقين.

. ذلك نذير سوء، استعد معي للرحيل إلى طيبة، وسأتكفل بإخراج قاتل أخيك من بين هؤلاء الخونة.

. لا أستطيع.

. يا حليفي، لقد بتّ كهلًا، ضاع عمرك على هؤلاء الأنذال، عُد معي الى «واست» لنعيش حياة كريمة، أنحت لك مقبرة تحكي حياتك، وأبني لك معبدا، وخذ معك من القبيلة من تأمنهم.

. لقد أمر ربي بالخروج.

. هذا انتحار!

. أشد من الموت ما يتمنى له الموت. لكنك تستطيع أن تقدم لي معروفًا يحمده لك الرب، شيئًا نصحتني به منذ سنين وقد أخذت بنصيحتك ففعلته.

قالها موسى ثم أخرج من تحت ردائه برديات ملفوفة بحزام.

. ذلك سجل لحياتي، دوّنت فيه قصّتي وقصّة أخي، لعل يأتي زمان يعرف فيه الناس القصة الحقيقية.

نظر أحمس في البرديات ثم لصديقه:

. أمن الحكمة أن أتركك بين هؤلاء ؟

. على أن أكمل رسالتي حتّى آخر نفس، هل تحتفظ لي بتلك البرديات ؟

. سأضعها في معبدي، وسآمر أن توضع في مقبرتي، ونسخًا منها في مقابر من يتولون الحكم من بعدي، في غرفة الجسد، مع سيرة حياة كل راحل ومتون إدريس.

. أشكرك يا صديقي.

احتضنه موسى، ربت أحمس على كتفه وهو يعرف أنها آخر مقابلة بينهما، فالموت يطل من عيني رسول الرعاة، ولا شيء سيمنعه من تنفيذ مشيئته. قاوم البكاء على كتفه، ثم ناوله خنجرًا محفورًا عليه اسمه، طلب منه الاحتفاظ به فأبى موسى بابتسامة شاحبة.

بعد ثلاثة أيام اختفى موسى، ثم عُثر على جسده فوق الجبل، مشجوج الرأس من ضربة حجر، دفنوه في موضع قتله.

وكانوا حريصين كل الحرص على ألا يعرف أحد مكانًا لقبره.

تلك كانت نهاية نبي الرعاة؛ قتله قومه مثلما قتلوا أخاه، وكذلك سيقتلون كل من يعترض طريقهم، حتى ولو كان ملكًا فوق عرشه. أيها الجيبتيون اكتبوا لأبنائكم على البرديات، على الجلود، على ألواح الأوستراكا، وعلى الجدران، اكتبوا وإلا فلن يبقى شيء من حكمتكم سوى حكايات مُلفقة، لن تلقوا تصديقًا، حتى من أبنائكم، ستصبح إيجيبت مهجورة مُوحشة، وستحرم من زيارات الملائكة، اكتبوا لتُفندوا إفك تلك الترجمة اليونانية، اكتبوا أن «فرعون» لم يكن يومًا ملكًا جيبتيًا، «فرعون» كان ملكًا لدولة الرُعاة، غزاة الشرق، اكتبوا أن «مصر» المذكورة فيها، والتي تعني «مدينة محورية عامرة يجتمع فيها السكن بأسواق التجارة»، تُرجمت عنوة إلى «إيجيبت»، لتُحمِّل أعناق الجيبتيين وزر الدماء التي جرت على يد «فرعون»، وتركوا لعنة ستستقبحون تاريخكم وأرضكم ومعابدكم من أجلها.

تذكّروا أبدًا:

فرعون: اسم ملك بدوي، هكسوسي

فرعون ليس ملكا چيبتيًا

إيچيبت ترجموها عن عمد إلى مصر

مصر هي عاصمة أرض الرعاة، أرض الفيروز

أما إيچيبت؛ اسم أرضكم الأصلي، فيعني

أرض الإله.

☥

☥

☥

بعد سنة،

مدينة أرسينوي ـ

حين اقترب من المزرعة تهافتت الكلاب خلف السور الخشبي بنباح يخيف الغرباء. اغمض عينيه وجثا بهدوء ثم رتل متن الحيوان حتى هدأت ذيولها، ثم سكتت. أخرج من السلة التي يحملها قطع لحم ألقاها إليها فالتقطوها بشغف، ثم اقترب من مزلاج الباب فرفعه ودخل بينها. التفت حوله تتشمم رائحته وتلحس ساقيه، قبل أن يتجه بهدوء إلى البيت الخشبي، سحب السكين من حزامه ومشى بحذر حتى التقطت أذناه بكاء رضيع، خفق قلبه فبطؤت خطواته وارتعشت السكين في يده. «ناديا؟ ابني؟». لسنة كاملة لم يفتأ يتتبع خبرها، رائحتها التي لم تغادر أنفه يومًا، يمشي في الأرض مطأطئ الرأس يبحث بين الأقدام عن قدمها الصغيرة، أصابعها التي عشقها، حتى التقط يومًا خبرا عن جامع كلاب يعيش في مدينة أرسينوي، يربيها ويعقد حلقات المصارعة. سافر ليالي طوالا دون طعام، دون توقف، يدفعه الأمل أن يرى عينيها ثانية، أن يمشي بأنامله على جلدها الخمري، أن يحتضنها فتتكوم بداخله ليحميها من تلك التي تعيش بداخلها: تلك اللعينة التي صبت الحمم في أذنيها ففرقت بينهما. يعززه الأمل ألا تكون قد تمكنت منها، أو أقنعتها أن تربي ابنها بدلا منها لتبث في أذنيه أحلامها المسمومة.

زفر فأفرغ رئتيه من الهم والترقب ثم تابع الالتفاف حول البيت الخالي، حتى رآه، جالسًا فوق جذع مقطوع، طويل الشعر

هزيل الجسد، يُداعب بشرود رضيعة في عُمر سنة، رضيعة لها لون ناديا. اقترب كاي فالتفت آرام، نظر إليه في هدوء المنتظر، ثم قام يحمل الرضيعة، تحفّز كاي وقبض على السّكين. لم يبدُ على آرام تراجعٌ أو اهتمام، اقترب حتى بات على بُعد ذراع، وضع الصغيرة بين ذراعي كاي فذهل، سقط سكينه، نظر في الوجه الصغير الذي يحمل قسمات من اسجدته أرضًا، ثم في عيني آرام فرأى الخواء والحطام اللذين خلفتهما ناديا. فتح فمه بصعوبة كمن صام عن الكلام دهرًا:

- ماتت ناديا بعد ولادتها بساعات، قلبها لم يتحمل. أسمتها مليكة.

توقف قلب كاي.

أردف آرام:

- رحلتْ بها إلى هنا لعلّها تنسى ماضيها، لعلّها تنساك. باتت تحدث الجدران، الكلاب، تراود فتيان القرية، وتسبُّ فتاة لا تراها عيناي، حتى اضطرمت الحمّى في جسدها، ثم أراحتها الرضيعة منك ومني، ومن نفسها.

همس كاي بشرود:

- قتلتها الملعونة؛ لأنها أحبّتني.

- أيها الساذج، ناديا لا تعرف العشق، ناديا تعرف فقط؛ كيف تُعشق.

- أين هي؟

أشار آرام لمزهرية من الفخار تحت شجرة صفصاف بعيدة.

- تكفلت النار بتطهير روحها.

قالها وابتعد، عائدًا لكلاب ركضت حوله، بينها كلب ناداه بسيربيروس.

داعب كاي الأنامل الصغيرة التي تنثني مثل أنامل أمها، داعب الشفاه المكتنزة والشعر المموج الداكن، ثم تمشّى

بأنامله على جلدها الخمري، وشامة الرسغ التي ورثتها عن أمها. ثم دنا من شجرة الصَّفصاف، ماشياً فوق الشَّوق واللّهفة، وضع ابنته على العشب وسقط على رُكبتيه، خائر القوة، بكى كما تبكي الرجال على امرأة، بحرقة، حتى روت دموعه العشب، ارتعشت شفتاه بمُتون الحب والرَّحمة، وكلمات كان يدّخرها لأذنيها، وأحلام ذهبت هباءً، وآمال أكلتها تماسيح النهر، ثم احتضن ابنته الخمرية، وحمل المزهرية، فابتعد. إلى أرض لا تعرفه، عاش فيها وحكى لصغيرته كلما نضجت، عن الراعي، عن البرديات العجيبة، ترجمة الدم ونبي الرعاة، وعن أمها التي لم ترها، أمها التي قتلته، عشقاً.

---

(1) أرسينوي، مدينة الفيوم حالياً.

☥

☥

☥

صنع «كاي» من ترجمة سفر «التصحيح» للكاهن الأعظم «مانيتون السمنودي» نسختين. أودع إحداهما معبد حتحور بأرض الفيروز، وأودع الأخرى رفوف مكتبة الإسكندرية تحت اسم «أرض الإله». أما رقات ناديا، فنثره كما أوصته، في جبّانة المعبد قرب عرائش العنب، حيث تخرج أرواح الأموات من الأرض في جذوع الأشجار.

احترقت مكتبة الإسكندرية في زمن الإمبراطور الروماني «يوليوس قيصر» عام ٤٨م.

في نوفمبر من عام ١٩٢٢ تم اكتشاف مقبرة الملك «توت عنخ آمون» على يد الأثري الإنجليزي «هوارد كارتر» وبتمويل من لورد «كارنارفون الخامس» «جورج هربرت ستانهوب». لاقى الحدث اهتمامًا عالميًا لأن المقبرة سليمة وكاملة، لم تطلها يد اللصوص من قبل.

بعد عشرين يومًا من اكتشاف المقبرة تم العثور على حائط مُغلق بختم ملكي يشير إلى أن مومياء الملك ستكون حتمًا وراءه، وكانت التقاليد تقضي بوجوب إخطار كبير مفتشي الأقصر بأي كشف فور التوصل إليه، وهو ما تم بالفعل. بعد يومين من إزالة الأتربة عن الحائط تحضيرًا لفتحه بحضور مفتشي الأقصر وبعض رجال السلطة والمدعوين . ودون إخطار . اقتحم «هوارد كارتر» ولورد «كارنارفون» وابنته «ليدي إيفيلين» تلك الغرفة ليلًا، قضوا فيها ليلة كاملة، نقلوا خلالها بعض المقتنيات إلى غرفهم، قبل أن يُغلقوا الفتحة التي حفروها ببعض الأثاث الأثري، ويتصنّعوا أمام الحاضرين افتتاحها في اليوم التالي.

في المؤتمر الصحفي الذي عقب الكشف المُبهر عن غرفة الدفن سأل الحاضرون بفضول عن برديات الملك «توت عنخ آمون»، حيث من الثابت أن غرفة الدفن تحوي سيرة الملك وبعض النصوص الجنائزية من كتاب «الخروج إلى النهار»، لكن «هوارد كارتر» أنكر العثور على أي بردية! وصرّح بأن الصندوق الذي أعلنوا أن فيه برديات، ما كان إلا بقايا لفائف الكتان المتخلف عن تحنيط المومياء!

في فجر الخامس من إبريل من عام ١٩٢٣ تُوفي مُمول الحفريات «لورد كارنارفون الخامس» إثر مضاعفات قرصة ناموسة!

قبلها بأسابيع كان يَعاني من أعراض تشبه التسمم بالزرنيخ، مثل تداعي الأسنان وتشنجات الجسم وظهور بقع لونية بأظافر الأصابع.

في ربيع ١٩٢٤ أوقف «هوارد كارتر» التنقيب في المقبرة بسبب رفض مصلحة الآثار تجديد تصريح التنقيب الخاص بزوجة اللورد «كارنارفون»، لما لاقته المصلحة من مخالفات وتلاعب بسجلات مقتنيات المقبرة، فما كان منه إلا أن اندفع إلى مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة طلبًا للدعم،قابل «كارتر» هناك أحد المسئولين الذي أكد له صعوبة التدخل لحساسية القضية، ولأنه كان معروفًا بحدّة المزاج بدأ «كارتر» يصيح في المسئول حتى سمعه موظفو المكاتب المجاورة يعلن بأنه:

«إن لم يتلقَّ ترضية كافية وعادلة، فسينشر على العالم كافة تفاصيل نصوص البرديات التي عثر عليها بالمقبرة، والتي تحوي القصة الحقيقية لما يسمى بـ«الخروج اليهودي من مصر» والذي حدث حوالي عام ١٥٧٣ ق.م».

وتطور الموقف حتى قذفه المسئول بمحبرة ارتطمت بالحائط فتحطمت، قبل أن يهدأ الرجلان ويتوصلا لاتفاق نتج عنه سكوت «هوارد كارتر» عن هذا الموضوع، إلى الأبد.

☥

☥

☥

في أكتوبر من عام ١٩٥٦ هاجم الإسرائيليون سيناء في احتلال تآمري مشترك مع إنجلترا وفرنسا. بعد شهر من نفس السنة هبطت مروحية الجنرال «موشيه ديان» في منطقة «سرابيط الخادم»، داهم وبعض معاونيه معبد حتحور، استولوا على قطع أثرية وعدد من اللوحات يطلق عليها أهل سيناء اسم «سربوط»، كان ينقش عليها سيرة ملوك مصر وأخبار الحملات العسكرية التي قادوها ضد غزاة الشرق المعروفين بالهكسوس.

امتدت حملات تنقيب الإسرائيليين الواسعة في خمسة وثلاثين موقعًا أثريًا بسيناء تم تدمير معظمها، حتى خروجهم النهائي منها عام ١٩٨٥.

☥

☥

☥

مدينة «هوارة» عاصمة الهكسوس يطلق عليها الآن اسم «القنطرة شرق».

أما «مصر» فتعرف الآن بسيناء، نسبة إلى الإله «سين»، إله القمر.

شكرٌ خاص

م. عاطف عزت	فاطمة الزهراء زكي
م. محمد عبدالعزيز خليفة داود	مي مراد
د. نديم السيّار	ناهد نصر الله
أ. أحمد علي الشيخ	لينا النابلسي
د. حسن كمال	شيماء علاء
د. تامر إبراهيم	آدم عبد الغفار
شيرين راشد	نرمين نعمان
محمد صادق	خالد ذهني
وجدان حسين	إيمان أسامة
د. عبير قاسم	إيمي رزيق